

أسواق العرب

في الجاهلية والإسلام

تأليف

سعيد الأفغاني

طبع بنفقة

المكتبة الهاشمية لأصحابها محمد هاشم الكتبي وشركاه بدمشق

المطبعة الهاشمية بدمشق

١٣٥٦ هـ : ١٩٣٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للأولين والآخرين ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين .

أما بعد فقد سبق لمدينة دمشق ، أن أقامت سنة ١٩٢٧ م معرضاً للثمار والفواكه افتتح يوم الإثنين الثاني عشر من تشرين الثاني للسنة المذكورة ، دام خمسة أيام واشترك فيه (١٥٠٠) عارض من مختلف بقاع الشام (سوريا) وكان أثره في نهضة الزراعة وانتعاشها مباركاً محموداً ، علّم الزراع ما لم يكونوا يعلمون، وحمل إلى الناس ما تنتج أرض الوطن في مختلف الأماكن من ثمار تتشابه في النوع وتتباين في الصفة ، فأغنى الناس بعض الإغناء عن رحلة زراعية واسعة في البلاد السورية ، ووفر عليهم زمناً ومشقة وأموالاً ، وخطا في سبيل تعليم الجمهور خطوة ميمونة العاقبة . ورأى فيه الزارعون من يعنى بهم ويريد لهم الخير واطراد

الرقي ، وتسابق فيه العارضون وفاز المعتني بثماره منهم بجوائزه ٠ وزاره من الرجال والنساء والأطفال ما يزيد عددهم على الأحد عشر الفاً [١]

ثم أقامت معرضاً ثانياً للصناعات الشرقية في المجمع العلمي العربي (المدرسة العادلية في باب البريد) افتتح يوم الثامن من آذار سنة ١٩٢٨ م ، نخصصت الردهة الكبرى للآثار الشرقية الإسلامية وقاعتان كبيرتان لعرض الصناعات الشرقية الحديثة ، ولم يسعف الزمن القصير أن تشترك فيه مدن الشام فاقتصر على دمشق ، وكان ما عرض في (٦٢٧) من القطع المنوعة من « السجاد والنحاس والأخشاب والأسلحة والمخطوطات والجلود والصور والأقمشة وكل ما هو من الفنون الجميلة » و « كان الإقبال على معرض الصناعات فوق ما كان يرجى وذلك لتعطش الجمهور لمثل هذه المظاهر الفنية والصناعية واهتمامه بالنهضة الاقتصادية وقد زار المعرض نيف وأربعون الفاً في خلال ثمانية الأيام (٨ — ١٥ حزيران) التي ظلت أبوابه مفتحة فيها ، منهم ثلاثة عشر الف سيدة » و « كانت نتائج المعرض مرضية محسوسة ، شعر بها

---

(١) انظر التقرير الذي رفعه رئيس لجنة إدارة المعرض إلى وزارة الزراعة والتجارة يومئذ ٠

من عرضوا مصنوعاتهم في القاعتين الخاصتين بالنفائس والاعلاق النفيسة [١] »

والمعرض الشامي الثالث كان للصناعات الوطنية ، أقيم في صرح الجامعة السورية ، في شهر آب سنة ١٩٢٩ وعرض فيه مصنوعات المناسج على اختلافها والمصابغ والمطابع والمدابغ والمطاحن والمزايت والمصابن عدا النفائس الشامية من القطع الخشبية والنحاسية والمصوغات ، هذا إلى ما اشتهرت به دمشق من عمل (السكاكر) والمربيات والزجاج .. الخ وكان الإقبال على هذا المعرض أكثر من سابقيه لشموله أكثر صناعات الشام واشتراك مدن سوريا الشمالية . وقد تجلّت فيه مواهب العرب في سوريا واستعدادهم للمساهمة في الصناعات العالمية وقوي الأمل في أَحفاد من أقاموا بأيديهم وفكرهم وجهودهم ، المجد الصناعي لقرطبة وبغداد ودمشق ومصر ، يوم لم تكن صناعة إلا صناعتنا ولا حضارة إلا ما تنعم به الإنسانية على يدنا وبمسعانا

وفي ربيع هذا العام (١٩٣٦ م) قامت الاستعدادات على قدم وساق لإنشاء معرض عام يمثل ذكاء العربي وتقدمه في جميع المناحي وقد وافق هذا التأهب كَلَباً من الزمان وحرَباً من العدو ،

---

(١) انظر التقرير الخامس بأعمال لمجمع العلمي العربي سنة ١٩٢٨ ص ٣٨

وفقراً عاماً ومصيبة شاملة ، فكان الناس مشغولين بذوات أنفسهم عما سواها ، فالسماء شحيحة ما تبض بقطرة ، والأرض محدبة ما تهتز عن خضرة ، والموارد ناضبة لا تسعف . وأجزاء البلاد يزجى فيها السموم وتبث بينها العقارب ، حتى خبطتها فتنة عمياء تنكّر فيها الساحلي للداخلي ، وتجهم العربي للعربي ، رغم الدم الصارخ في عروقهما من الفرقة ، الداعي لهما إلى الإلفة والاتحاد . وغذّى هذا الشر أناس أقيموا ليهدوا الناس إلى الخير والأخوة والمحبة والسلام ، فكانوا دعاة للشر وعمالاً على الإفساد والتفريق والشقاء . وجعلوا من الدين الذي أنزله الله ليزيد الأواصر قوة والوشائج لحمة ، ويفيض على القربى والرحم محبة ورحمة ، وتعاوناً وعطفاً ... جعلوا من هذا الدين وسائل سافلة تستغل سذاجة العامي الغفل ، وتموه عليه السم بالدسم ، ليسعى إلى حتفه بظلفه ويقتل نفسه وأخاه معاً .

بهذا اشتغل الناس يومئذ وحق لهم الشغل والتفكير في هذه القطيعة المجرمة ، إذ متى عاش رأس بلا جسم وهل استغنى قلب عن وريد وشريان ، وأين شرع الله للجارين من جنس واحد أن يعملا على شقائهما معاً ، ويسعيا إلى التعس السعي الحثيث ، ويزجا بأعقابهما وذراريهما من بعدهما في العذاب الأليم والانقراض المحتم . ثم يُعملان في أبدانهما سلاحاً دسه العدو في أيديهما وهو يتربص

بكايهما الشر ليسود في دارهما وحده لا شريك له

في غمرة هذه النزوات الطائشة ، وفي شدة مقاومة المقيد الذي شعر أَنه إنما يساق إلى الموت وهو أشد ما يكون تعشقاً للحياة وتمسكاً بحبالها ، قام « معرض دمشق وسوقها » وأعلن في أقطار الشرق موعد افتتاحه ! فاعجب إن كنت عاجباً لهذه الأمة الكريمة التي تنبض عروقها قوة غريبة وحيوية عنيفة ، إنها لم تشغلها مصيبة عن واجب فما أَهاب بها الداعي حتى هبت هبة واحدة تنظم معرضها وتمده بكل ما في بقاع الوطن من تحفة فريدة في بابها وزحفت صناعات الشام تتمثل في المعرض للعالمين ، وازدهى هذا المعرض بعبقرية الوطن تتجلى في الفكر الخصب واليد الصناع

***

افتتح المعرض مساء الأحد الحادي والثلاثين من حزيران سنة ١٩٣٦ م ، في مدرسة التجهيز الجديدة ، حيث أجمل بقعة في دمشق وأنزهها وأحفلها بآثار العرب في القديم والحديث فصروح الجامعة السورية الحديثة وبناء دار الآثار ونزل « خوام » عن يمين بردى .. إلى جانب القباب الأَثرية والمآذن الشاهقة ، تلك تقفك على نشاط العربي ابن العصر العشرين وهذه تذكرك بعنفوان مجده في القديم .

ومن غريب الاتفاق أن تقوم معارض دمشق الثلاثة ، في المجمع العلمي العربي ، والجامعة السورية ومدرسة التجهيز أكبر المعاهد العلمية وأعودها بالخير على البلاد ، لتثير في الناس أثرين مزدوجين ، يرتبطان أشد الارتباط ، ولا ينفكان مرتبطين أبداً أو يفنيا معاً : عبقرية الفكر وعبقرية اليد لا تقوم حضارة على علم وحده ولا على صناعة وحدها ، ولا بد من الاثنين معاً . وقد فهمنا هذه الظاهرة وأخذنا في العمل لتحقيقها ، وقطعنا في هذا أشواطاً نسأل الله أن يرعاها بعنايته حتى نبلغ بها الغاية .

* * *

وهناك اتفاق آخر فطن له كثيرون ، وعجبوا له العجب كله وهو افتتاح المعرض في ليلة ذكرى المولد النبوي ، في الليلة التي يستعيد فيها المسلمون ذكرى ما قدموا للانسانية من نظم وحضارة وعدل وسعادة ، في الليلة التي ولد في مثلها قبل أربعة عشر قرناً ، خير طفل حملته الأرض ، وكان له يد ومنة على كل من نعم بسعادة وشمل برحمة وتمتع بعدل واغتبط بعرفان

افتتح معرض دمشق وسوقها في مساء الليلة التي يقول فيها المسلم والعربي : كان منا هادٍ أفاض الرحمة على الإنسان والحيوان والجماد فتفاءل الناس خيراً وأيقنوا أنهم لا بد بادئون تاريخهم

من جديد وقد ولد ليلة المولد هذا المعرض، وهو فاتحة مباركة في تاريخ بعثنا الحديث إن شاء الله

فإنا كما شرعنا نصل حلقات السلسلة التي انقطعت، بجهادنا للحرية والحق، والعدل والنور، افتتحنا ليلتنا هذه بوصل حلقة مجدنا الصناعي والتجاري. وإن الإنسانية لتنتظر على أحر من الجمر، وبفارغ الصبر، الشعبَ الذي نعمت في ظلاله ليتبوأ مكانه من جديد ويقوم برسالته في هذا العالم الذي ملئ اليوم رذيلة وعسفاً ومادية وإن انتعاش الشعب العربي انتعاش للخير والإنسانية، ونصرته نصرة للعدل والعمران، وما كانت الإنسانية لتنسى الأمة التي كانت على عهدها حقائق ملموسة فأصبحت اليوم طلاءً ودهاناً، بل الإنسانية اليوم — إذا دققنا في حقيقة أعمال من يدعون حمايتها — شقاء باسم السعادة، وظلم باسم الرحمة، ووحشية باسم الحضارة، ولصوصية باسم الحق، ودناءة وحطة وإماتة ضمير وخذلان خلق وبهيمية باسم التمدين

كنت في هذا الجو من الغبطة والذكرى والتأثر، لما استعرضت في ذهني حلقات تاريخنا وأين انقطعت كل حلقة ومتى عهدنا بوصلها فكان أول ما جال في خاطري وأنا في معرض دمشق وسوقها

أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، وكيف كانت تزخر بالناس من تجار وصناع ، وأدباء وشعراء وخطباء ، وساسة وأشراف

عجبت لهذه الذكرى وقد أعاد هذا المعرض لنا أسواقنا — مع مراعاة الفارق بين الزمانين — وذكرت أن المجمع العلمي بدمشق سيقوم بمهرجان للمتنبي في آخر أسبوع من تموز ، وقد اختار لهذا المهرجان مكان المعرض وزمانه ، لتتم لنا صورة عن أسواق العرب ومحافلهم فيها فكملت بهذا أداة هذه السوق العربية الكبرى بما سيلقى فيها من أدب وشعر وعلم ، وبمن سيؤمها من العلماء والأدباء من المشرق والمغرب : عرباً وأجانب ومستشرقين وأصبح من كان يتمنى أن ينعم بمرأى عكاظ في الجاهلية يستطيع أن يشهد عكاظ العرب في القرن العشرين ، فينظر كيف انقلب الزمن وكم قطعت الحضارة بين العكاظين من أشواط

ولعل القارئ أحس مما قدمت مقدار الحاجة إلى بحث يعرض لأسواق العرب وما كانت عليه في الجاهلية والإسلام ، وما قامت به من عمل في خير العرب ولغتهم ، ليقف على شأنها في تاريخنا ويستطيع أن يفاضل بين رسالتها قديماً ورسالة المعارض حديثاً وما زالت هذه الأسواق تقتعد الذروة من اهتمام الأمم مذ كان اليونان وأولمبياهم وأعيادهم وقد رغب إليّ من أرضى رأيه أن

أسد هذه الثلمة في المكتبة العربية فعكفت على أمهات المصادر — وهي في موضوعنا هذا جد شحيحة — أنقب فيها وأفليها لأخلص منها بكل ما يفيدني في بحثي حتى تمت لي مادة هذا الكتاب الذي تنحصر بحوثه بين عهد الجاهلية والقرن الثاني للهجرة ولعل الله ييسر لي في المستقبل أن أصل هذا البحث عصراً فعصراً في أمصار العرب حتى عصرنا الحاضر

ومن مارس التنقيب في مصادرنا العربية، القديمة منها خاصة، واطلع على ما تزخر به من كنوز مبعثرة هنا وهناك، لا تجمعها جامعة ما، عرف مقدار العنت والنصب اللذين يتعرض لهما الباحث، ولا سيما في موضوع كهذا لم يعالج بعد وأنا أعفي القارئ من وصف ما لقيت من عناء فما أريد أن أمن عليه وحسبي أن أكون في وجداني قد أبلغت نفسي عذرها

وقد مهدت للكلام على الأسواق ببحوث رأيتها لازمة، وثيقة العلاقة بموضوعي كبيوع الجاهلية ورباها وأسهبت في الكلام عَلَى قريش لأنهم في الحقيقة هم الفريق التاجر من العرب وحرصت كل الحرص أن أنقل القارئ إلى جو تلك الأسواق فيراها كما هي.

سيكون في هذه البحوث أدب جم وتاريخ كثير كما فيها صناعة وتجارة، وستعرض فيها عادات العرب في أسواقها ومجالسها

الأَدبية وبلاغتها النثرية والشعرية ، حتى النحو سيكون له بعض النصيب لأن إحدى الأَسواق كانت تقصد من أجل مادة يستعين بها النحو في تنظيم قواعده وتبويب فصوله

وبعض هذه الحوادث والأَخبار والأُشعار التي سأعرضها — وإن كان مظنة أنه مصنوع — قد اجتهد صانعه أن يقلد فيحسن التقليد ويحاكي الأَصل فإن شككنا في نسبة الخبر لم نشك أبداً فيما يدل عليه أو يستخلص منه وذكرت من هذه الأُحداث هنات جوزت لنفسي نقلها في هذا الكتاب مع تصريحها بما يحتشم منه لأَنها لا تتم الصورة إلا بها ولأني أحرص على أن يتمثل القارئ حالة الأَسواق تمثلاً صادقاً صحيحاً كاملاً

وقد عنيت بشرح ما يشكل من غريب أو معنى مغلق ، لأَكون قد بلغت جهدي واستفرغت وسعي في الاجتهاد لأن يكون هذا العمل أقرب من كمال وأبعد من نقص وأنا أشكر لمن أَطلعني على عيب أو نبهني لإصلاح ، فما يزال الإنسان بحاجة إلى من ينبهه ويصلح عمله

والله المستعان ومنه الرضى والمثوبة

غرة ربيع الثاني سنة ١٣٥٥ هـ و ٢ حزيران سنة ١٩٣٦ م

المؤلف

الباب الاوّل

شؤون العرب التجارية

بين الجاهلية والإسلام

تجارة العرب

لبلاد العرب موقع جغرافي متوسط ، بين بلاد أعظم الدول وأقدم الحضارات فإلى شمالها الشرقي بلاد فارس وإلى شمالها الغربي بلاد الروم ومصر ، وإلى غربها الجنوبي وراء البحر بلاد الحبشة وفي جنوبها البحر الهندي الذي يفصلها عن بلاد الهند

ولا نكون إلى الغلو إذا قلنا إن معظم تجارات العالم منذ القديم حتى القرون الوسطى هي بين هذه البلاد التي عددنا فالدولتان العظيمتان اللتان تنازعتا النفوذ والسيادة في العالم ، وهما فارس والروم كانتا على علاقات تجارية وسياسية مع بلاد العرب في الشمال والجنوب وقل نحواً من ذلك في علاقة الحبشة والهند مع اليمن وعمان والبحرين ، وإن كانت علاقة أضيق حدوداً

وكان للمواصلات التجارية في جزيرة العرب طريقان أحدهما شرقي يصل عمان بالعراق وينقل بضائع اليمن والهند وفارس براً ثم يجوز غرب العراق إلى البادية حتى ينتهي به المطاف في

أسواق الشام ، يمر التجار فيه على أسواق اليمن والعراق وتدمر وسوريا ويبيعون في كل قطر ما لا يكون فيه ويأخذون منه إلى غيره ما يروج فيه والطريق الثاني وهو الأهم غربي يصل اليمن بالشام مجتازاً بلاد اليمن والحجاز ناقلاً أيضاً بضائع اليمن والحبشة والهند إلى الشام وبضائع الشام إلى اليمن حيث تصدر إلى الحبشة وإلى الهند في البحر

وقد أطمع هذا الموقع الجغرافي لبلاد العرب كثيراً من الفاتحين فغزاها الإسكندر فارتد عنها في غير طائل ، وطمع فيها قديماً ملوك الفرس وبابل ونينوى ومصر والغريب أنها احتفظت بمكانتها هذه حتى العصر الأخير إذ بسط الإنجليز سلطتهم شرقي الجزيرة وغربيها فملكوا « عدن » ميناء اليمن الطبيعي حيث ترسو السفن من الحبشة ومن الهند وملكوا العقبة « أيلة » محط رحال القوافل العربية في القديم وأول الثغور الرومانية التي يحلها تجار العرب ، ففازت إنجلترا بمناطق نفوذ على هذين الخطين التجاريين ضماناً لطريق الهند وتجارتها

كان من المعقول أن يمارس كثير من العرب التجارة رجالاً ونساء ، وخاصة الذين تقع بلادهم قريبة من إحدى هاتين الطريقين ، ومن لم يتاجر منهم أفاد من التجارة بالواسطة فعمل

في هذه القوافل إما دليلاً وإما سائقاً أو منتظماً في جملة حماتها الذين يؤجرون أنفسهم وسلاحهم ودوابهم فيها

ولم يبعد اسطرابون حين قال « العرب تجار وسماسرة »

وقد شغلت دول العرب القديمة كتدمر وسبأ والمعينيين ، المراكز الممتازة في تجارة الشرق حتى ذكرتهم التوراة ووصفت ثروتهم وتجارتهم وحمل أهل تدمر في القديم إلى مصر وجنوب أوروبا صادرات بلاد العرب والعراق والهند وكانت النفائس التي يحملها التدمريون من بلاد الشرق أثمن ما يتغالى به الملوك القياصرة ولما ازدهرت الدولة المعينية في اليمن تعاطى أهلها التجارة وساعدهم عليها امتداد نفوذهم حتى شواطيء البحر المتوسط وموانيء خليج العجم

أما سبأ فليس مكان غناها وتجارتها بالمجهول فقد ذكرت التوراة أن ملكة سبأ « قدمت إلى سليمان (١٢٠) قنطاراً ذهباً وأطياباً كثيرة وحجارة كريمة » وحسبك هذا دليلاً على وفرة مالها وخيراتها والسبئيون قديماً أغنى العرب ثروة وأوسعهم تجارة ، يحملون ما يأتيهم من بضائع الحبشة والهند إلى مصر والشام والعراق فبسطوا بذلك نفوذهم التجاري واستأثروا بالتجارة بين تلك الأقطار المذكورة

جاء في تاريخ العرب الأدبي لـ (نيكلسون) [1]

« قال مولر قامت السفن منذ زمن بعيد تمخر عباب المياه بين مواني بلاد العرب الشرقية وبين الهند ، محملة بالبضائع وكانت منتجاته الأخيرة وخاصة الطيب والبخور والحيوانات النادرة (كالقردة والطواويس) تنقل إلى ساحل عمان ؛ ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد كانت لهم دربة بالخليج الفارسي حيث كانوا يممون شطر مصر يبيعون فراعنتها وأمراءها بضائعهم ، وقد كانت صعوبة الملاحة في البحر الأحمر سبباً في تفضيل الطريق البري للتجارة بين اليمن وسوريا ، وكانت القوافل تقوم من « شبوت » في حضرموت وتذهب إلى مأرب عاصمة سبأ ، ثم تتجه شمالاً إلى مكرُبَة (مكة فيما بعد) وتظل في طريقها من بترا حتى غزة المطلة على البحر الأبيض المتوسط » وظل رخاء السبئيين قائمًا حتى أخذت التجارة الهندية تهجر البر وتسلك عبر البحر على طول شواطئ حضرموت وخلال مضيق باب المندب . وكانت نتيجة هذا التغير — الذي يظهر أنه حدث في القرن الأول للميلاد — أن أخذت قوتهم تتضعضع شيئًا فشيئًا »

وحل محل هؤلاء ، الحميريون الذين جعلوا عرب الحجاز تحت

---

(١) ترجمة حسن حبشي في العدد (١٧٥) من مجلة الرسالة

سيطرتهم فاستخدموهم في نقل تجاراتهم إلى أن تخلص الحجازيون منهم وصاروا هم نقلة التجارة في الجزيرة قبيل البعثة

ولا بد لنا من التنبيه على عنصرين تجاريين عملا في بلاد العرب وهما الأنباط واليهود فقد كان الأولون يختلفون بين بلاد الشام والحجاز والعراق في الجاهلية وكان أكثر ما يحملون من بضائع الزيت والدرمك (دقيق الحُوّارى [١] » يحملونها من الشام إلى الحجاز وإلى العراق ويرجعون من هذين القطرين بالأدم والتمر وغيرهما من الحاصلات ، فكانوا يشاركون القوافل العربية في تجاراتها ويقيمون لأنفسهم أسواقاً في البلاد العربية ذاتها فابن سعد يذكر أن هاشماً في بعض أسفاره إلى المدينة « نزل بسوق النبط فصادف سوقاً تقوم بها في السنة يحشدون لها . [٢] » ولما كانت الفتوحات والغزوات قام الأنباط التجار بمهمة نقل الأخبار بين الشام والحجاز

وأما اليهود فقد « كانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز حتى صار لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد كأبي رافع الخيبري الذي أرسل بضاعته بواسطة القوافل

---

(١) الحُوّاري لُباب الدقيق وكل ما حُوِّر أي بُيِّض من طعام .

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٤٥ ، وانظر شرح المراهب ج ٣ ص ٢٣

إلى الشام واستورد منها الأَقمشة المختلفة ويمكن أَن يقال إن تجارة البلح والشعير والقمح كانت خاصة بهم في شمال الحجاز [١] »

لكن شأن اليهود فاق شأن الأَنباط لاستيطانهم في جزيرة العرب فاستفحل أَمرهم وزاحموا السكان الأَصليين على مرافقهم وكانت لهم خبرة في الزراعة والتجارة وتنمية المال فاستغنوا وبنوا لأَنفسهم القرى والمزارع والحصون وأَشهر مراكزهم العامة في المدينة وخيبر

قام اليمنيون في القديم إذاً بنقل المتاجر بين بلاد العرب والبلاد المجاورة وظل ذلك دأبهم على اختلاف دولهم في الأَزمان التي تقدمت القرن السادس الميلادي ، فاستأثروا بتجارة الجزيرة مع غيرها من الممالك ، يحملون التمر والزبيب والأُدم والبخور والحجارة الكريمة والمنسوجات من مواطنها ثم يستبدلون بها بضائع أخرى ، مع ما يصنعون هم أَنفسهم من الأَطياب والعطور التي يتخذونها في بلادهم ويبيعونها في أَسواق العالم القديم آسيا وإفريقية

وقد نشأت مع الزمن وسط هذه الطريق التي كثيراً ما سلكوها قبل الميلاد ، محطتان تجاريتان عظيمتان هما مكة والمدينة وعظم أَمرهما وصار أَهلها يشاركون في الاتجار

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٨

قبائل اليمن فلما كان القرن السادس انتقلت التجارة من أيدي اليمنيين بالتدريج ، إلى قريش ، القبيلة المكية التي ارتفع أمرها وقويت ونشطت وبدأت تحل محل الأولين في الاستئثار بتجارة جزيرة العرب إلا ما كان من تجارة فارس ، فإنها بقيت في أيدي عرب الحيرة وهم يمانون

كانت أقطار العرب غير متساوية في الخصائص والمرافق فبينما نجد نجداً أرضا قاحلة رملية لا زراعة لأهلها ، نجد في اليمن مزارع خصيبة تفيض بالخير الواسع . ونجد بعض مدن الحجاز كمكة تشبه نجداً في جدبها وبعضاً آخر فيه مزارع ونخيل كالمدينة والطائف وإن لم تكونا بدرجة اليمن قال الألوسي « وأما أهل اليمن وعمان والبحرين وهجر فكانت تجاراتهم كثيرة ومعايشهم وافرة ، لما في بلادهم من الخصب والرخاء والذخائر المتنوعة والمعادن الجيدة وغير ذلك من أسباب الثروة والغنى وأما أهل نجد فكانوا دون غيرهم في الثروة والتجارة لما أن الغالب على أرضهم الرمال فكانت بلادهم دون بلاد سائر العرب في رفاهية العيش ورواج التجارة »

فلا بدع أن تكون التجارة من أول أسباب المعاش للحجازيين فعكفوا عليها وتمادحوا بكسب المال وأخذوا يضربون

في الأرض يبتغون الرزق من هذه المهنة ، فعرفوا قبل الإسلام بكثير ، كثيراً من مدن الشام كبصرى وغزة وأيلة والمشارف ، ومدن العراق واليمن وحتى مصر فقد رووا أن نفراً من بني مالك، أجمعوا على الوفود إلى المقوقس وأهدوا له هدايا [1] وذكروا أن ابن جدعان أتى مصر ببضاعة فباعها ورجع إلى عكاظ

ولم يحاول انتزاع تجارتهم هذه منهم أحد ، إلا ما ذكروا من أمر الحبشة التي أرادت الاستيلاء على مكة نفسها ، المركز التجاري العظيم في جزيرة العرب واشتهر كل قطر بما يصنع أو يصدر من متاع فالسيوف والبرود لليمن قال الأصمعي « أربعة قد ملأت الدنيا ولا تكون إلا في اليمن : الورس والكُنْدُر [2] والخطي والعقيق » وقالوا « برود اليمن وريَط الشام وأردية مصر [3] »

ولعل ما ذكر الثعالبي من غنى الحجاز في الإسلام ، صحيح إلى حد بعيد فيما كان عليه من قبل ، قال [4] « وكان يحمل من مكة والمدينة والحجاز كل عام إلى السلطان من العنبر ثمانون رطلاً ومن المتاع أربعة آلاف ثوب ومن الزبيب ثلاثمائة راحلة »

---

(١) طبقات ابن سعد

(٢) ضرب من العلك نافع لقطع البلغم جداً « القاموس »

(٣) ثمار القلوب ، ص ٤٢٤

(٤) المصدر نفسه ، ص ٤٢٦

وكان من أعجب ما يأتي النجاشي من مكة الأدم [١]

« ووصل المكيون قبيل الإسلام — عند ما كان العداء بين الفرس والروم بالغاً منتهاه — إلى درجة عظيمة في التجارة ، وكان على تجارة مكة يعتمد الروم في كثير من شؤونهم ، حتى فيما يترفهون به — كالحرير — وحتى يستظهر بعض مؤرخي الإفرنج أنه كان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشؤون التجارية وللتجسس على أحوال العرب ، كذلك كان فيها أحابيش ينظرون في مصالح قومهم التجارية [٢] »

هذا وهناك بلدان اختصت بضرب من العروض أو الصناعة فتقصد لما عرفت به كالطائف فإنه يحمل إليها الأدم فيدبغ فيها قال الهمداني « الطائف مدينة قديمة جاهلية وهي بلد الدباغ ، يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة [٣] » ثم يصدر عنها إلى الحبشة وغيرها . وكهجر والبحرين حيث التمر الجيد المنقطع النظير وكالشام ومشارفها حيث يحمل الزيت والزبيب والخمر وغيرها

ومما ضمن استمرار الحركة التجارية الداخلية والخارجية في

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٠٣

(٢) فجر الاسلام ص ١٥

(٣) الإكليل ج ٨ ص ١٢٠

جزيرة العرب ، اختلاف أقطارها هذا الاختلاف في المحصول الصادر والوارد وما أَحسن قول الهمذاني في ذلك

« ولو لا أَن الله عز وجل خص بلطفه كل بلد من البلدان وأعطى كل إقليم من الأَقاليم ، بشيء منعه غيرهم لبطلت التجارات وذهبت الصناعات ، ولما تغرب أَحد ولا سافر رجل ولتركوا التهادي وذهب الشراء والبيع والأَخذ والعطاء إلا أن الله أعطى كل صقع في كل حين نوعاً من الخيرات ومنع الآخرين ليسافر هذا إلى بلد هذا ويستمتع قوم بأمتعة قوم ليعتدل القسم وينتظم التدبير . قال الله عز وجل : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ درجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا » سورة الزخرف الآية ٣٢ ، وقال الله تعالى : « وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا » سورة السجدة الآية ١٠ [(١)]

☆ ☆ ☆

لم يخفف الإسلام كثيراً من شغف العرب بالتجارة فقد استمروا فيه على ما كانوا عليه في الجاهلية وإذا استثنينا فترة الفتوح التي شغلتهم كانت أَحداثهم التجارية في الإسلام امتداداً

(١) كتاب البلدان « ايدن » ص ٢٥١

لأحداثهم في الجاهلية مع مراعاة الظروف التي تغيرت كل التغير وشغل القرشيون بالجهاد فكان منهم عمال ومنهم قواد ومنهم قضاة الخ وخير ما يدلنا على بقاء ولوع القوم بالتجارة آية الجمعة

كان المسلمون يجهزون العير إلى الشام — كما في الجاهلية — فتذهب بأموالهم ومتاعهم فتباع هناك ثم تحمل إلى الحجاز فتأتي المدينة ، وكانوا يستقبلونها بالطبل والتصفيق فرحاً بها فذكر المفسرون أن دحية بن خليفة الكلبي رجع مرة بتجارة زيت وطعام من الشام والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة على منبر مسجد المدينة ، فاستقبلها الناس كعادتهم بالفرح والطبول والتصفيق ، وخشي المصلون أن يسبقوا إلى العير فيفوتهم الربح فتركوا الرسول يخطب وبادروا إليها في البقيع ولم يبق مع الرسول إلا اثنا عشر رجلاً فأنزل الله تعالى في ذلك

«وإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضّوا إِلَيْها وَتَرَكوكَ قَائِماً» الجمعة، الآية ١١

كان لا بد من أن تدخل أحوال العرب التجارية في طور جديد فاهتم الإسلام بأمر تجارتها وشرع لهم فيها ما يحتاجون إليه وطفح الحديث بأحكام البيع والشراء والاحتكار والديون والربا الخ وعني الخلفاء بعد الرسول عناية خاصة بالتجارة بعد أن هدأت مشاغل الفتوح أيام أبي بكر وعمر وعثمان ،

ولنلاحظ أَن فترة الفتوح نفسها لم تكن لتخلو من الاتجار حتى من عمال الخليفة أَنفسهم ، وهذا خير ما يفسر لنا حرص القوم على حرفتهم ، واشتد عمر على عماله فلم يقبل منهم الاشتغال بالتجارة أَبداً وصار يؤاخذ كل من فشا لهم غنىً في قومهم فيدقق عليهم فإن اعتذروا بتجارة تجروها فربحوا منها صادرهم ولم يلق لعذرهم بالاً ، وكأنه يقول لهم بعثتكم عمالاً ولم أَبعثكم تجاراً

ومن حسن الاتفاق أن الخلفاء الثلاثة الأُولين كانوا تجاراً ، فأبو بكر وعثمان كانا بزازين وعمر تجر في الجاهلية واستغنى في غزة ، وكان مبرطشا [يكتري للناس الإبل والحمير يأخذ عليه جُعْلاً — تاج العروس] أما علي فلم نعرف أنه تجر وقد ظهر الإسلام وهو صبي ومع هذا فقد كان على علم من التجارة وأُحوالها لأَنها مهنة قومه جميعاً ولما ولي الخلافة لم يكن يجهل خطر التجار وقيمة التجارة ومن الطريف حقاً أن ننقل بهذه المناسبة مرسوماً أَصدره إلى عامله الأَشتر في التجار والصناع فإنه يدل على إحاطته بأَسرار التجار وأُخلاقهم ويعلمنا من جهة ثانية منزلة هذه الطبقة بين بقية الطبقات وما كان يعلق عليها من مهام ، قال من كلام له للأَشتر

« ثم استوصِ بالتجار وذوي الصناعات وأَوصِ بهم خيراً ،

المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه ، فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح ، في برك وبحرك ، وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها . فإنهم سِلْم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته وتفقّد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك ، واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً في البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة ، فامنع من الاحتكار فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منه وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارف حُكْرة بعد نهيك إياه فنكّل به وعاقبه من غير إسراف [١] . »

* * *

ولنا أن نستأنس بشيء آخر له خطره في الدلالة على ما شغلت التجارة من حياة العرب وأفكارهم واهتمامهم ، وذلك هو اللغة والأشعار والأمثال فإنها تكشف لنا إلى حد بعيد ما كان عليه القوم من عادات وأحوال وأول ما نلاحظ في هذا الباب غنى اللغة بالألفاظ التي تتعلق بالأسفار وما إليها من حط وترحال ونزول على الماء ووصف لدواب السفر وضروب سيرها ولسنا

(١) شرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد ج٤ ص ١٣٩

مبالغين إذا قلنا إن أكثر القصائد في الجاهلية والإسلام يفتتحها صاحبها بذكر رحلته وما لاقى فيها هو وراحلته من التعب والشقاء والضيق والعطش والجوع ، عدا ما هناك من ألفاظ كثيرة تتعلق بالبيع والشراء والصفقة الرابحة والخاسرة ولما كانت الخلافة ، لم يجد العرب لفظاً يدلون به على بذل الطاعة للخليفة غير المبايعة فاشتقوا لهذه الحال المستجدة كلمة من كلمات التجارة التي كانت الشغل الشاغل لهم ونظرة واحدة إلى مادة « باع » مثلاً في اللسان أو التاج توضح لنا المواضع التي استعيرت لها هذه الكلمة لتشبه أحوالاً مختلفة بحال من حالات البيع والشراء فقالوا مثلاً « بايعه بالخلافة ، وأخذ منه البيعة ، وباعه من السلطان إذا سعى به إليه الخ

وكذلك إذا نظرنا إلى مادتي « سام » و « سوق » وأمثال قولهم : نفقت السوق إذا راجت ، وانحمقت إذا كسدت . وبعته ناجزاً بناجز ويداً بيد عدا ألفاظ أخرى سيمر بعضها بك حين الكلام على بيوع الجاهلية

وهذا القالي قد عقد في أماليه فصلاً في « ما يقال في وصف الرجل لا يملك شيئاً [1] » من مثل قولهم ما له سبد ولا لبد

(١) ج ١ ص ٩٠

ومطلباً آخر فيما يقال « لمن يصلح المال على يديه [1] » كقولهم هو ترْعِيَّة مال ، مِجن مال الخ واقرأ إن شئت الفصل الذي كتبه في « دعاء العرب [2] » فستجد جملاً كثيرة في حرمان من يدعون عليه من ضروب المال

أما الأمثال التي تتعلق بأمورهم التجارية وأحوالهم فيها فكثيرة وإليك طائفة منها تمثل لنا شيئاً من تجاربهم وأحوالهم في أسفارهم :

عند الصباح يحمد القوم السُرى — لا تدرك الراحة إلا بالتعب — قتل أرضاً عالمها وقتلت أرض جاهلها — أَن ترد الماء بماء أكيس — لا يرحل رحلك من ليس معك — إن يَدْمَ أظلُّك فقد دَمِي خُفِي — إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أَبقى ..الخ.

وأَكثر من هذا ما أرسلوه في المال نفسه وفي السعي للرزق وفي الربح والخسارة والبيع والشراء فإنهم يستعيرون ألفاظها لكثير من أحوالهم كما في هذه الأمثلة

الحمد مغنم والذم مغرم — خير مالك ما نفعك — لم يضع من مالك ما وعظك — خير المال عين ساهرة لعين نائمة — من العجز نتجت الفاقة — كالب طواف خير من أَسد رابض — حظ جزيل بين شدقي ضيغم — افتح صدرك تعلم عجرك — لا ترسل

---

(١) ج ٢ ص ٣٢٢ (٢) امالي القالي — النوادر ص ٥٥ ، ٧٥

الساق إلا ممسكاً ساقاً — كمستبضع التمر إلى هجر — ما عنده خير ولا مير — سواء هو والعُدم — البضاعة تيسر الحاجة ومن اشترى فقد اشتوى — إن الجواد عينه فراره — أعطاه اللقاء غير الوفاء — أَحشفاً وسوء كيلة — أَخسر صفقة من شيخ مهو — صفقة لم يشهدها حاطب . الخ

أما الحث على السفر في طلب المال فقد استفاض في أشعارهم جاهليين وإسلاميين ولست بحاجة إلى أن أشير إلى ما قالوا في فوائد المال من حِكم وما يصون المال من حسب ويجلب من هيبة فأَمره معروف وما أكثر ما قالوا في هذا الموضوع من مثل قول عروة بن الورد

ذريني للغنى أسعى فإني ‏ ‏ ‏ ‏ رأَيت الناس شرهم الفقير

وقوله

دعيني أُطوِّف في البلاد لعلني ‏ ‏ ‏ ‏ أُفيد غنى فيه لذي الحق محمل

وقول الآخرين

سأُعمل نص العيس حتى يكفني ‏ ‏ ‏ ‏ غنى المال يوماً أو غنى الحدثان ،
سأكسب مالاً أو أموت ببلدة ‏ ‏ ‏ ‏ يقل بها قطر الدموع على قبري ،
ومن يك مثلي ذا عيال ومقتراً ‏ ‏ ‏ ‏ من المال يطرح نفسه كل مطرح ،
فسر في بلاد الله والتمس الغنى ‏ ‏ ‏ ‏ تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا . الخ

بل ما لنا لا نعمد إلى القرآن الكريم نفسه وفيه على ذلك أوضح الأدلة : يقرب لهم المعاني بما تفيض به حياتهم ويضرب لهم الأمثال على الضلالة والهدى والمؤمنين والكافرين من التجارة نفسها فهو يقول في المؤمنين المطيعين الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة إنهم « يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُور » فاطر ، الآية (٢٩) ويشبه الذين شغلتهم الضلالة عن الهدى بالخاسر في تجارته فيقول :

« أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ » البقرة ، الآية (١٦) « أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ » البقرة ، الآية (٨٦) « بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ » البقرة ، الآية (٩٠)

ومدح آخرين سعوا في مرضاة الله فقال : « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ ٱللهِ » البقرة ، الآية (٢١٧) ، وقال : « إِنَّ ٱللهَ ٱشْتَرَى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » التوبة ، الآية (١١٢)

ولأن التجارة والبيع أهم ما يشغل العرب لم يذكر الله غيرهما من المشاغل حين أثنى على أناس لا يغفلون عن ذكره فقال : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ » النور ،

الآية (٣٧) وقال في تأنيب الذين اشتغلوا بالتجارة عن الصلاة : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا » الجمعة ، الآية (١١)

ولما أراد تشويق قوم إلى الإيمان قال

« هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عذابٍ أَلِيمٍ تؤمنون بالله » الصف ، الآية (١٠ و ١١)

وكثيراً ما تتكرر كلمات التجارة والربح والخسران في القرآن

وأحسب أن هذا القدر كاف في بيان الحيز الذي شغلته التجارة من حياة العرب في جاهليتهم وإسلامهم حتى إن صعصعة ابن صوحان لم يذكر للعرب من الحرف غيرها . جاء في أمالي القالي: « قال معاوية لصعصعة بن صوحان : « صف لي الناس » فقال « خلق الناس أخيافاً فطائفة للعبادة ، وطائفة للتجارة ، وطائفة خطباء ، وطائفة للبأس والنجدة ؛ ورجرجة بين ذلك يكدرون الماء ويغلون السعر ويضيّقون الطريق[1] »

ولعلك تتساءل بعد هذا قائلاً إن التجارة تستلزم إلماماً بقيود وحسابات والعرب أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب فكيف كان ذلك ؟ والجواب أن هذا الحكم على العرب حكم على مجموعهم لا على جميعهم : فمنهم من كان يقرأ ويكتب ويحسب وقد تعلم القرشيون

---

(١) ج ١ ص ٢٥٧ والأخياف الأخلاط ، والرجرجة شرار الناس ورذالتهم

الكتابة منذ القديم في الحيرة والأنبار وكذلك فعل أهل الطائف وسترى في أحداث عكاظ أن عمرو بن الشريد دعا فيها بصحيفة وكاتب وسجّل على نفسه صكاً أشبه بسند التمليك (طابو) الذي نألفه اليوم كان هناك إذن صحف وكتاب وصكوك عند العرب وعند اليهود بل إنا لنجد في آيات سورة البقرة الأخيرة ما يجعلنا نذهب إلى معرفة العرب بتقييد المعاملات التجارية وليس من المعقول أن يخاطبهم الله بشيء لا يألفونه من الإملاء والكتابة بالعدل وإشهاد الشهود في قوله

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ » الخ البقرة الآية (٢٨٢)

هذا مجمل ما أردت أن أعرّض له من بيان اهتمام العرب في التجارة ، ولم أقصد فيه إلى شيء من التطويل لأن الكتاب ليس في تاريخ تجارة العرب وإنما هو في أسواقها والتجارة أحد مواضيع الأسواق ، وحسبها هذه الإلمامة الموجزة نمهد بها قبل الشروع في الموضوع لتتم لنا الصورة التي نريد أن يتمثلها القارئ مستوفاة في غير نقص ولا زيادة

بيوع الجاهلية

ألف العرب في جاهليتهم أَنماطاً خاصة من البيع يتخذونها في أَسواقهم وهي في جملتها مما يثير استغرابنا ودهشتنا لأَن أكثرها مما يُغبَن فيه البائع أو المبتاع ونصور لنا تلك البيوع ما كان عليه تفكير فريق منهم ولا بد من التنبيه إلى أَنها لم تكن تتخذ في جميع الأَسواق بل منها ما تمتاز به سوق من سوق وجماعة من جماعة وإليك ما عثرت عليه من بيوعهم

١ — **الرمي بالحصاة :**

ذكروا لهـذا البيع صوراً كثيرة تجري في سوق دومة الجندل منها

١ — أن يقول أَحد المتبايعين للآخر « ارم هذه الحصاة ، فعلى أي ثوب وقعت فهو لك بدرهم » [الألوسي]

٢ — أَن يقول البائع « إذا رميت هـذا الثوب بالحصاة فهو مبيع منك بكذا » فيجعل الرمي بالحصاة نفسه بيعاً »

[شرح مسلم]   أَو يعترض القطيع من الغنم فيأخذ حصاة ويقول : « أَي شاة أَصابتها فهي لك بكذا »

٣ — أن يقول « بعتك من السلع ما تقع عليه حصاتك » أو « بعتك من الأرض إلى حيث تنتهي حصاتك » [اللسان والتاج]

٤ — أن يقبض المشتري على كف من حصىً ويقول : « لي بعدد ما خرج في القبضة من الشيء المبيع . » [الألوسي]

٥ — أن يبيعه سلعة ويقبض على كف من حصىً ويقول : « لي بكل حصاة درهم . » [الألوسي]

٦ — أن يقول للمشتري : « بعتك على أنك بالخيار إلى أَن أَرمي بهذه الحصاة فإذا نبذتها وجب البيع . » [الألوسي وشرح مسلم]

٧ — « أَن يجتمع النفر منهم على السلعة يساومون بها صاحبها فأيهم رضي ألقى حجره

وربما اتفق في السلعة الرهط فلا يجدون بداً من أن يشتركوا وهم كارهون ، وربما ألقوا الحجارة جميعاً فيوكسون صاحب السلعة إذا تظاهروا عليه . »

انفرد بهذه الصورة الأَخيرة المرزوقي في كتابه « الأَزمنة والأمكنة » (٢ ١٦٢) وسماها إلقاء الحجارة بدلاً

من رمي الحصاة ونص على شيوعها في سوق دومة الجندل

أقرب هذه الصور إلى الرضى أن يكون رمي الحصاة إيذاناً بوجوب البيع وانقطاع الخيار أما بقية الصور فهي من بيع الغَرَر وهي إلى القمار أقرب وبه أشبه، وقد عد الإسلام هذه البيوع فاسدة كلها لما فيها من الجهالة والضرر بالبائع أو المشتري .

٢ — المنابذة :

ولهم في هذا النوع من البيوع ثلاث صور

١ — أَن تقول « انبِذ إلي الثوب أو أنبذه إليك وقد وجب البيع بكذا وكذا » [القاموس] فيكون النبذ إيذاناً بالبيع وقطعاً للخيار

٢ — أَن يرمي الرجل إلى الرجل بثوبه وينبذ الآخر إليه ثوبه ولم ينظر واحد منهما إلى ثوب صاحبه فيكون ذلك بيعهما عن غير نظر ولا تراض [شرح مسلم ٣٥٦]

٣ — نبذ الحصاة وقد تقدم

يقال في هذا البيع ما قيل في رمي الحصاة وقد نهى الإسلام عنه وأبطله

٣ — الملامسة :

وهي على أَوجه ثلاثة

١ — أن يأتي البائع بثوب مطوي ، أَو في ظلمة فيلمسه المستام فيقول له صاحب الثوب « بعتكه بكذا بشرط أَن يقوم المسك مقام نظرك ولا خيار لك إذا رأيته » [شرح مسلم] فلا يقلب المشتري الثوب لا ليلاً ولا نهاراً

٢ — أن يجعل المتبايعان اللمس نفسه بيعاً بغير صيغة كما تقدم في المنابذة ورمي الحصاة

٣ — أن يجعلا اللمس شرطاً في قطع خيار المجلس وغيره

وقد ألحق الإسلام هذه الصور بسابقتها وأبطلها ونهى عنها فقد جاء في صحيح مسلم « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيعتين الملامسة والمنابذة »

وذكر الأَلوسي مع الملامسة الإيماء والهمهمة (وهي الكلام الخفي وكل كلام معه بجح) وعلل اتخاذهم لها بخوف الحلف والكذب وهو طريف في الأَقوال غريب

٤ — المعاومة

أو بيع السنين وهو أن يبيع ثمر الشجرة عامين أو ثلاثة أو أَكثر . وقد أبطله الإسلام لأنه من الغَرر فهو بيع معدوم ومجهول وغير مقدور على تسليمه وغير مملوك [شرح مسلم ٦ : ٣٦٨]

٥ — المزابنة

هي بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر كيلاً . وكذا كل ثمر بيع على شجر بثمر كيلاً وقد روى صاحب القاموس : « أنه كل جزافٍ لا يعلم كيله ولا عدده ولا وزنه بيع بمسمى من مكيل وموزون ومعدود ، أو بيع معلوم بمجهول من جنسه أو بيع مجهول بمجهول من جنسه أو هي بيع المُغابنة في الجنس الذي لا يجوز فيه الغبن . » اه والمزابنة المدافعة وسمي هـذا البيع مزابنة لأن أحد المتبايعين إذا ندم زبن صاحبه عما عقد عليه . وسبيله في نهي الإسلام عنه سبيل ما تقدمه لما فيه من الغَرر

٦ — المحاقلة :

هي في الزرع على نحو المزابنـة في التمر فيباع الزرع القائم بالحب كيلاً

٧ — المخابرة

وهي — وإن كانت بالزراعة ألصق لأنها معاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها من الزرع كالثلث ونحوه من الأجزاء المعلومة — تتعلق بموضوعنا لأن أحد أعلام العربية فسرها تفسيراً يجعلها بهذا الباب أشبه جاء في شرح مسلم للنووي قيل إن

المخابرة مشتقة من الخُبْرة وهي النصيب وقال أبو عبيدة هي النصيب من سمك أو لحم يقال تخبّروا خُبْرة إذا اشتروا شاة فذبحوها واقتسموا لحمها وقال ابن الأعرابي هي مأخوذة من خيبر لأن أول هذه المعاملة كان فيها اه والذي يظهر أن ابن الأعرابي يشير إلى المزارعة لا إلى الاشتراك بالشاة الذي فسّر المخابرة به أبو عبيدة ، لأن لأهل خيبر أرضين وعلماً بالزراعة

٨ — حبل الحبلة :

كان بيعًا يتبايعه أهل الجاهلية كان الرجل منهم يبتاع الجزور إلى أن تُنتج الناقة وأحياناً إلى أَن تُنتج التي في بطنها فإذا نُتِجت حمَلها فالحبَل الأول يراد به ما في بطن النوق من الحمْل والثاني حبَل الذي في بطون النوق

فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا البيع . « وإنما نهي عنه لمعنيين أَحدهما أنه غُرورٌ وبيع شيء لم يخلق بعد ، وهو أَن يبيع ما سوف يحمله الجنين الذي في بطن الناقة على تقدير أَن تكون أنثى فهو بيع نتاج النتاج . (والثاني) : أَن يبيعه إلى أَجل ينتج فيه الحمل الذي في بطن الناقة وهو أَجل مجهول ولا يصح » [١] والحَبلة بالتحريك جمع حابل

---

(١) انظر شرح مسلم ٦ ٣٥٩ ، والنهاية لابن الأثير

٩ — التصرية

كان من عادة بعض العرب إذا أَراد بيع شاة أَو ناقة امتنع من حلبها أَياماً فيحتفل اللبن في ضرعها فيعظم فإذا كان ذلك منها عرضها للبيع فيظن المشتري أَن كثرة لبنها واحتفال ضرعها عادة مستمرة لها فلايلبث أَن يتبين خطأه بعد شرائها · والتصرية الجمع يقال صرّى الماء في الحوض إذا جمعه جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تصرّوا الإبل والغنم ، فمن ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها ، فإن رضيها أَمسكها وإن سخطها ردّها وصاعاً من تمر [1] »

١٠ السرار

لم أَجد هذا الضرب من البيع في جميع المصادر التي بيدي ، لم يذكره أَحد غير المرزوقي بقوله « وكان بيعهم بها (أَي بعكاظ) السرار ، فإذا وجب البيع وعند التاجر أَلف رجل ممن يريد الشراء ولا يريده فله الشركة في الربح »

وقد رجعت في هذه الكلمة إلى المعاجم التي في يدي وهي : الصحاح ، تاج العروس (شرح القاموس) ، لسان العرب ، المحمل لابن فارس (نسخة مخطوطة كاملة في المكتبة الظاهرية)

---

(١) شرح مسلم ٦ : ٣٦٠ ، البخاري (ليدن) ٣٤ كتاب البيوع رقم ٢٧

الجمهرة لابن دريد ، الفائق ، أَساس البلاغة ، النهاية لابن الأثير ، المصباح ، فلم أَجد أَحداً تعرض لهذا الضرب من البيوع ثم تحريت في شروح الحديث وكتب الفقه مظنّة أَن أجد فيها تعرضاً له في صدد كلامهم عن البيوع الفاسدة أَو المنهي عنها فلم أَظفر إلا ما وجدت في محيط المحيط ولم أَدر من أَين استقاه فأنا أَنقله هنا عنه قال

« وبيع السرار أَن تقول أخرج يدي ويدك ، فإن أَخرجت خاتمي قبلك فهو بيع بكذا وإن أَخرجت خاتمك قبلي فبكذا ، فإن أَخرجا معاً استأنفا الإخراج ! ؟ »

١١ — الناجز

وهو البيع العام المعروف لجميع الناس بادين وحاضرين ، وذلك إذا كانت المبادلة يداً بيد وقد قالوا بيع السوق ناجزاً بناجز أَي حاضراً بحاضر

* * *

جرى العرب في جاهليتهم على ما علمت من أَنواع البيع التي تعرض أَحد المتبايعين للغبن والضرر بلا مسوغ فلما أكرمهم الله بالإسلام رفع عنهم ضيم الجاهلية ونهاهم عن بيع الغَرَر بجميع صوره وأَشكاله ليكون لكل من المتبايعين محض الاختيار

فلا يتم بيع إلا إذا كان واضحاً معــلوماً للمتبايعين ، وبالرضى الــكامل ولقد تتبع الإسلام معاملات الجاهليين فأبطل كل ما فيه غش وضرر كما في بيع حبَل الحَبلة وفي التصرية . وشرع لهم في التجارة والبيوع ما ضمن خير النــاس جميعاً بائعهم ومشتريهم ورفع عنهم الحيف الذي كان يحيق بهم مما اعتادوه في جاهليتهم

لم يقتصر الجاهليون في تجارتهم على ما قدمنا من بيوع فاسدة وعادات ضارة فلهم إلى ذلك مساوئ لا تقل قبحاً عما تقدمها : فمنها النَجْش وهو أن تواطئ رجلاً إذا أَراد بيعاً أَن تمدحه ، أَو أَن يريد الإنسان أن يبيع بِياعة فتساومه بها بثمن كثير لينظر إليك ناظر فيقع فيها وكذلك في الأَشياء كلها [(١)]

ومن عاداتهم المَكْس وهي دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في أسواق الجاهلية ويقال للعشّار أَيضاً صاحب المكْس . والمكس لغة النقص ، والمماكسة في البيع انتقاص الثمن وانحطاطه [(٢)]. ولعل ذلك يكون بعد الاتفاق على ثمن معين أَو نقد البائع ثمناً دون ثمن سلعته قال الشاعر

أَفي كل أَسواق العراق إِتاوةٌ
وفي كل ما باع امرؤ مكْس درهم

---

(١) ، (٢) المخصص والقاموس

وظاهر أن المقصود بالمكس أشبه بالضرائب التي تجبيها حكومات اليوم على البضائع

وقد امتد تحكم تجار العرب إلى القوت الضروري فكانوا يحتكرونه على الفقراء فيتلقون الركبان ويشترون منهم الطعام وربما باعوه في مكانه قبل أن يبلغ السوق وقبل أن ينقلوه ومنهم من كان يشتري ويبيع لحساب أهل البادية فيلحق بهؤلاء الضرر البالغ لجهلهم أمور التجارة ولأنهم في كل حال مغلوبون على أمرهم ، بعيدون عما يباع ويشترى لهم ، ولعلهم إن حضروا البيع رفعوا عن أنفسهم بعض الحيف فلما كان الإسلام نهى عن جميع هذه المفاسد جملةً فقد جاء في صحيح البخاري [1] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« لا تلَقّوا الركبان ، ولا يبعْ بعضكم على بيع بعض ، ولا تناجشوا ، ولا يبع حاضرٌ لبادٍ ، [2] ولا تُصَرّوا الغنم ومن ابتاعها فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها ، إن رضيها أمسكها وإن سخطها ردها وصاعاً من تمر » وقد فسر ابن عباس قوله (لا يبع حاضر لباد) بقوله لا يكن له سمساراً

---

(١) طبع ليدن ٣٤ كتاب البيوع رقم ٢٧

(٢) للحديث زيادة من رواية جابر : دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من اشترى طعاماً فلا يبعه حتى يستوفيه ويقبضه » قال ابن عمر : « وكنا نشتري الطعام من الركبان جزافاً (أي بلا كيل ولا وزن ولا تقدير) فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نبيعه حتى ننقله من مكانه . »

ثم شرع لهم السهولة في المعاملة والتبيين في البيع كما في حديث :

« البيّعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا مُحِقت بركة بيعهما »

وهناك مَبيعاتٌ خاصة لأهل الجاهلية حرّمها الإسلام وحرّم ثمنها ، أهمها الخمر ، فسيأتي أن الخمر من أهم ما كان يتجر به العرب وقد اشتهرت مدن معينة في الجاهليـة بخمرها الطيب اللذيذ ولا مندوحة عن ذكر غزة وأذرعات وأندرين وهجر والحيرة وغيرهن من البـلدان التي تحمل خمرها قوافل العرب التجارية وقد قال الشاعر

إذا ذقت فاها قلت طعم مُدامة
مُعتّقة ممـا يجيء به ٱلتَّجْرُ (١)

---

(١) التجار (٢) كتاب البيوع [٤٣] ليدن

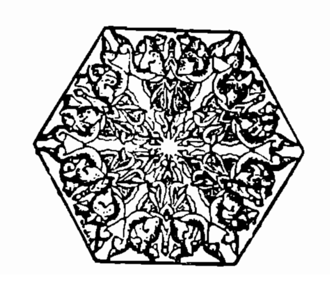
وهي مورد تجاري عظيم لم يكن يستغني عنه العرب فلما حرّم الله على المسلمين الخمرة حرّم أيضاً ثمنهـا حسماً للداء فلا ، يجوز بيعها ولا شراؤها كما نهى عن ثمن بقية المحرمات ففي صحيح البخاري « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثمن الـكلب ومهر البغي وحلوان الـكاهن »

و « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرَّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام [٢] » وعن عائشة قالت « لمـا نزلت آخر البقرة قرأهن النبي في المسجد ثم حرَّم التجارة في الخمر »

لكن التجارة الممقوتة التي يصم عارها بعض أهل الجاهليـة هي البغـاء كانوا يؤجرون إماءهم للرجال ويأخذون هم ما يـكتسب لهم جواريهم من هذا الكسب المرذول واستمرت هذه العادة حتى جاء الإسلام وكانت الهجرة ذكر المفسرون أن لعبد الله بن أبي بن سلول جاريتين يقال لهما مُسَيْكة ومُعـاذة وكان يـكرههما على الزنى الضريبة يأخذها منهما (وكذلك كانوا يفعلون في الجاهليـة) فلما جاء الإسلام قالت مُعاذة لمسيكة « إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين فإن يك خيراً فقد استكثرنا منه ، وإن يك شراً فقد آن لنا أن ندعه . » لـكن عبد الله هذا قال لهما : « ارجعا فازنيا . » فقالتا « والله

لا نفعل ، قد جاء الإسلام وحرم الزنى .» فأتتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكتا إليه أمرهما فأنزل الله هذه الآية

« وَلاَ تُكْرِهوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغوا عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنيا . وَمَنْ يُكْرِههُنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غفورٌ رَحيمٌ » سورة النور ، الآية ٣٣



ربا الجاهلية

لست هنا بصدد بيان الربا وأنواعه ومضارّه على التجارة والعمران والأخلاق، وما يعقب من خراب البيوت وتقويض الأسر وفقدان الثروة والشقاء والدمار، فذلك معروف أمره، مستوفى شرحه في مظانه من كتب الحديث والتفاسير عدا ما يعاين الناس في حياتهم من شروره على المرابين أنفسهم قبل غيرهم، فحوادثه نشاهدها في كل يوم بالعشرات وإنما أريد الإشارة إلى ما استفاض منه في الجاهلية حتى أتى الإسلام فاجتثه من جذوره.

يرجح أن الذي أشاع الربا في جزيرة العرب هم اليهود الطارئون عليها، الذين اتخذوا من بعض قراها ومدنها مستعمرات عالجوا فيها الزراعة فأصابوا منها الغنى ولم يكن لعرب الحجاز فيها كبير نصيب فكان العربي إذا أعوزه المال اقترض ورهن عند دائنه درعه أو ثيابه أو سلاحه، وأحياناً تشتد به الحاجة ويشتط الدائن فيرهن ولده.

إلا أن الربا لم يقتصر على اليهود، بل ما زال ينتشر في مكة

والطائف وخيبر ووادي القرى ويثرب حتى أَلفه الناس وصاروا يأخذون به ويعطون

اشتهرت الطائف برباها ولعل هذه الشهرة كانت لمكان اليهود منها فقد جاء في فتوح البلدان للبلاذري (ص ٥٦) أَنه « كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فأَقاموا بها للتجارة فوضعت عليهم الجزية »

ويذكر المفسرون « أَن أَربعة أخوة من ثقيف كانوا يداينون بني المغيرة بن عبد الله بن عمير بن عوف الثقفي ، و كانوا يرابون فلما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم على الطائف أسلم هؤلاء الإخوة بنو عمرو الثقفي وطلبوا رباهم من بني المغيرة فقال بنو المغيرة : « والله ما نعطي الربا في الإسلام وقد وضعه الله عن المؤمنين . » فاختصموا إلى عتاب بن أُسيد و كان عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة فكتب عتاب إلى النبي بقضية الفريقين و كان ذلك مالاً عظيماً فأنزل الله « يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين » البقرة ، الآية (٢٧٨)

هذا وقد كانت ثقيف صالحت النبي صلى الله عليه وسلم على أن ما لهم من ربا على الناس وما كان للناس عليهم من ربا فهو موضوع وثقيف هم أهل الطائف

ولم تقتصر علائق أهل مكة مع أهل الطائف على المراباة والتجارة بل كان لأهل مكة أملاك بالطائف يصلحونها ويستغلونها فقد «كان للعباس أرض بالطائف وكان الزبيب يحمل منها فينبذ بالسقاية للحاج وكانت لعامة قريش أموال بالطائف يأتونها من مكة فيصلحونها وصارت أرض الطائف مخلافاً من مخاليف مكة [١]»

ومن مراجعة كتاب الصلح الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران نعلم أن غير اليهود لهم نصيب يحملونه من مر الربا هذا، فقد شرط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به «ومن أكل منهم ربا من ذي قِبَل فذمتي منه بريئة» ولعل نصارى نجران كانوا قد بلغوا من التعامل به مبلغاً صعب عليهم فيه تنفيذ هذا الشرط لما تأصل فيهم من اعتياده حتى استفحل أمره فيهم أيام خلافة عمر بن الخطاب وشاعت لهم أموال أفادوها منه وخاف عمر العاقبة فأجلاهم [٢]

تسرب الربا إلى أهل مكة وتعاملوا به وعُرف رجال منهم من أهل الشرف والرئاسة بتعاطيه كالعباس بن عبد المطلب وخالد

---

(١) البلاذري ج ١ ص ٥٦ (٢) المصدر نفسه ص ٦٦

ابن الوليد وعثمان بن عفان[١] وغيرهم ومتى انتشرت عادة قبيحة ستر فشوّها قبحها فلم يترفع عنها أحد ، وكانت الضرورة والحاجة شر معوان على تعاطيه وبذلك انحصر الغنى في طائفة معينة وعم الفقر من عداهم

بلغ اليهود في هذا الميدان شوطاً لم يلحقهم فيه لاحق قط ، لما تركز فيهم من الثراء وما حذقوا من حسن التأتي في تثمير أموالهم ، واستغلال الفقر والسذاجة في العرب فاعتقدوا الأرضين وبنوا الحصون ثم دأبوا في جمع المال وتنميته وإدانته حتى كثرت الرهائن عندهم واشتطوا في طلبها وافتنوا في تنويعها افتناناً شائنا فصاروا يرتهنون الأولاد ويطلبون النساء أيضاً ولا يرعون في سبيل المادة حلفاً ولا آصرة : جاء في سيرة ابن هشام (٢ : ٣٤١) أن أبا نائلة سلكان بن سلامة أتى أحد أشراف اليهود وأغنيائهم ، كعب بن الأشرف وكان أخاه من الرضاعة فقال له « إني قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك » فقال كعب « أترهنوني نساءكم ! » قال : « كيف نرهنك نساءنا وأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم ؟ » قال كعب « أترهنوني أبناءكم ؟ » قال « لقد أردت أن تفضحنا ، إن

---

(١) انظر تفسير الخازن عند قوله « وذروا ما بقي من الربا » من سورة البقرة

معي أصحاباً لي على مثل رأيي وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة ما فيه الوفاء . »

يريد أبو نائلة بقوله : « على مثل رأيي » : تضايقهم من مجيء الرسول والمسلمين ومزاحمتهم في بلدهم (المدينة) على العيش ، فلينظر امرؤ كيف لم يشفع شيء عند كعب في سبيل المادة ، لا مشايعة القوم له (ظاهراً) في هواه وعداوته لرسول الله ، ولا أخوة الرضاعة ، لا شيء إلا المال والربح ، المال وحده هو معبود اليهود منذ خلقوا إلى يوم يبعثون

هذا الغلو من اليهود في الربا وتعاطيه منذ القديم هو السبب في تشنيع القرآن الكريم لفعلتهم وتعنيفهم عليها حين يقول « فَبِظُلْمٍ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ كَثِيراً وَأَخْذِهِمُ الرِّبٰوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً » النساء الآية ١٥٨ ، ١٥٩

أتى الإسلام وطعمة كثير من الجاهليين ومأكلهم من الربا فامتنع قسم منهم من الاتجار لأن الربح قد حصل لهم بأخف مؤونة وأيسر مشقة فلا أسفار ولا تعرض لأخطار ولا جهد ولا سعي وكف أكثرهم بطبيعة الحال عن الإقراض بلا فائدة

واعتاد المدين إعطاء الربا راضياً، غير واجد فيه غبناً ولا شناعة وقال كثير منهم « سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير » هوّنوا بذلك على أنفسهم ورأوا البيع والربا سواء في الزيادة حتى أكذبهم الله وعنفهم أشد تعنيف بقوله : « ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَا وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَا » البقرة ، الآية : ٢٧٥

ولما حرّم الإسلام الربا جملة واحدة كان لا بد من تشريع حاسم للعلاقات التي سبقت إسلام المتعاملين به والتي كانت لا يخلو من الارتباط بها من كان يتعاطى التجارة وغيرها من شؤون الكسب ووقف الناس إزاء مشكلة جديدة هل يمضون عقودهم على ما عقدوا قبل الإسلام إذا حل الأجل أم يتقيدون بتعاليمه فيهملون ما كان منها فاسداً حسب هذه التعاليم ؟ وإذا كان الأمر الثاني فلا بد حينئذ من غبن يلحق الدائن وقد عرضت قضية من هذا الشكل فنزل الوحي بالحل القاطع

ذكر الطبري في تفسيره أن العباس ورجلاً من بني المغيرة (لعله خالد بن الوليد المصرح به في تفسير الخازن) كانا شريكين في الجاهلية ، سلفا في الربا إلى أناس من ثقيف وهم

بنو عمرو بن عمير لجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا وذكر الخازن أن عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب كانا أسلفا في التمر فلما كان وقت الجُذاذ قال صاحب التمر لهما « إن أنتما أخذتما حقكما لم يبق لي ما يكفي عيالي ، فهل لكما أن تأخذا النصف وتؤخرا النصف وأضعف لكما ؟ » ففعلا ، فلما حل الأجل طلبا منه الزيادة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاهما

وسواء أكانت الحادثة الأولى أم الثانية سبباً في نزول الآية، فإن من المعقول أن تتعدد الحوادث على هـذا النسق لتفشي المعاملات فيما سبق على الربا، وحلول الآجال أجلاً بعد أجل، وتحير الدائن والمدين معـاً بين إمضاء التعاقد السابق للتحريم أو الإذعان والكف عما نهى الله عنه، فقد نزل قول الله فاصلاً في هذه المسائل وأشباهها بهذا التشريع الحاسم الذي لا هوادة فيه :

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِن ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ » البقرة الآية ٢٧٨ : ٢٧٩

فسمع العباس وخالد وعثمان وغيرهم وأطاعوا وأخذوا رؤوس

أموالهم . وكتب رسول الله يجيب عتّابًا عامله على مكة بهذه الآية وقال له في آخرها « إن رضوا وإلا فآذنهم بحرب .»[١]

هذا ما كان من الربا في الجاهلية عامة يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى فإذا حل الأجل ولم يكن عند صاحبه قضاء ، زاده وأخر عنه إلا أن هناك ربًا خاصًا كان من أثقل الأعباء على المعسرين وهو ربا الأَضعاف الذي أَشار القرآن الكريم إليه بقوله « لا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَٰوا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً . الآية » آل عمران، الآية ١٣٠ وذلك أن الرجل منهم في الجاهلية يكون له على الرجل مال إلى أجل ، فإذا حل الأَجل وكان الذي عليه الدين ضائقًا لا يجد ما يؤدي به دينه قال صاحب المال : « زدني في المال حتى أزيدك في الأجل .» فيقول الآخر « أخر عني دينك وأزيدك على مالك كذا .» فيفعلان ويكون الدين مئة فيصير إلى قابل مئتين مثلاً ، وربما حل الأجل الثاني والذي عليه الدين في إعساره ذاك ، لم يتخلص منه ، فيؤجله الدائن أجلاً ثالثًا ، ويزيد المال الذي عليه وربما فعلوا ذلك مرارًا حتى تصير المئة بعد سنين مئات

وذكر ابن حجر في الزواجر ما يفيد أن ربا الجاهلية كان الإنساء فيه بالشهور ، وعلى ذلك يسهل علينا إدراك هذا التضعيف

---

(١) انظر تفسير الطبري .

فيه قال « وربا النسيئة الذي كان مشهوراً في الجاهلية ، لأن الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره إلى أجل ، على أن يأخذ منه كل شهر قدراً معيناً ورأس المال باق بحاله ، فإذا حل الأجل طالب برأس ماله ، فإن تعذر عليه الأداء زاده في الحق والأجل »

ذلك تضعيفهم في العَيْنِ (النقود) وأما تضعيفهم في السن ففي الإبل وقد شرحوا ذلك بما يأتي

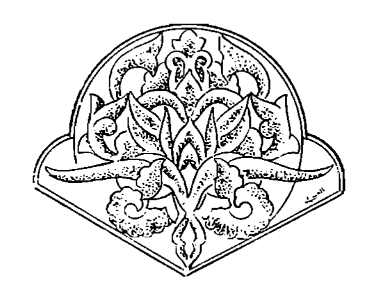
« إنما كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السن يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول (تقضيني أو تزيدني) فإذا كان عنده شيء يقضيه قضى وإلا حوّله إلى السن التي فوق ذلك إن كانت ابنة مخاض (وهي التي دخلت في السنة الثانية) يجعلها ابنة لبون (ما دخلت في الثالثة) في السنة ثانية ، ثم حِقة (ما أتت عليها الرابعة) ثم جذَعة (ما أتت عليها الخامسة) ثم رَباعياً ثم هكذا إلى فوق . »

***

بدأت العلائق التي نشأت عن تعامل الجاهلية تضمحل بقاياها مع الزمن وقد تشدد الإسلام بما يرتبط منها بالربا تشدداً حازماً ، وورد فيها من الوعيد والتهديد ما لا مجال لبسطه هنا

وكان خاتمتهـا ما جهر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، في خطبته البليغة المـأثورة التي كانت فاصلة بين آثار الجاهلية وبين عهد جديد ، والتي بيّن فيها أهم الأمور الجسام التي يريد من أمته التمسك بها . وكان في طليعتها دون شك، الربا فقال فيه :

« ألا وإن كل ربا الجاهلية موضوع كله ، وأول ربا أبتدئ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب . »



المحلون والمحرمون والحمس

كان العرب يعظمون أمكنة خاصة وشهوراً معينة ، لا يسفكون فيها دماً ، ولا يتجاوز بعضهم على بعض حتى يزايلوا المكان الحرام ، أو ينقضي الشهر الحرام

وكان من بعد النظر أن جعلوا أكبر أسواقهم يقام في الأشهر الحرم ، فكانت سوق حُباشة وسوق صُحار في رجب ، وحضرموت في ذي القعدة ، وعكاظ ومجنة وذو المجاز في ذي القعدة وذي الحجة ، ومعلوم أن الأشهر الحرم أربعة رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، تضع فيهن العرب سلاحها فلو لقي المرء قاتل أبيه ما وسعه التعرض له بسوء ، حتى إن تلقيبهم رجب بالأصم ، لأنه لا ينادى فيه يا صباحاه[1] ولا يا لفلان ؛ فينقطع فيه صوت الأسلحة وكان من أعظم العار أن يتعدى المرء حدود الشهر الحرام والبلد الحرام ولهذا سمت العرب حروب قريش وهوازن

---

(١) انظر القاموس

في عكاظ بحروب الفجار لفجورهم باقتتالهم في الشهر الحرام

ولما ترصدت سرية عبد الله بن جحش عير قريش، وكانت تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارتهم فيها عمرو بن الحضرمي، بنخلة بين مكة والطائف، وظفرت بالعير وقتلت ابن الحضرمي بعد أن هاب قوم الإقدام على القتل لأنهم كانوا في آخر يوم من رجب، وأقبلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعير وبأسيرين، امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أخذ الخمس وقال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام[1].» وسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا

وأيقنت قريش أنها وقعت على ما تعيب به محمداً وأصحابه عند العرب عامة لما انتهكوا من حرمة الشهر فجعلت تشيع قولها:

«قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال» وأكثروا من ذلك لما فيه من تهييج العرب وتغيير قلوبها على صاحب الدعوة وتصويرها له في صورة المستحل الذي لا يرعى حرمة للشهر المحرم كما لم يرعَ من قبل حرمة آلهتهم وتناست قريش ما كانت

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص ١٩٤

صنعت مع النبي وأصحابه من إيذاء وتعنيف حتى اضطروهم إلى الهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة . ثم تناست ما عاملت به المستضعفين من المسلمين من إقامةٍ في الهاجرة تصهرهم الشمس ، ومن إلقاء الصخور عليهم ، وتهافتهم على هؤلاء ضرباً وإيلاماً حتى يفتنوهم عن دينهم ثم تنويعهم أساليب العـذاب لهم ولأهليهم فلما أشفق المسلمون من صنيع سرية عبد الله بن جحش واستطـالة ألسنة قريش فيهم أنزل الله هذه الآية :

« يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ...الآية »

البقرة ، الآية ٢١٧

وقال عبد الله بن جحش يردّ على قريش

تعدون قتلاً في الحرام عظيمة وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد وكفر به والله راءٍ وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله لئلا يُرى لله في البيت ساجد
فإنا وإن عيرتمونا بقتله وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمي رماحنا بنخلة لما أوقد الحرب واقد

دماً وابن عبد الله عثمان بيننا ينازعه غل من القد عائد(١)

قال المرزوقي «كانت هذه الأسواق منها ما يقوم في الأَشهر الحرم ولا يقوم في غيرها ، ومنها ما لا يقوم في الأُشهر الحرم ويقوم في غيرها ، لكنه لا يصل إليها أَحد إلا بخفير ولا يرجع إلا بخفير »

ولا يخفى أن الأُمن من أَوكد الأسباب في انتظام أمور التجارة ، فلولاه ما أُخرج بائع بضاعة ، ولا تظاهر مشترٍ بملك نقود ومن هنا كان لقريش تلك الزعامة التجارية لأُنها تسكن الحرم حيث الأُمن والسلم ، وحيث لا تحدث أَحداً نفسه بالبغي والعدوان فكانت تجارات العرب أروج ما تكون حيث يستتب الأُمن وتعمّ الثقة

رعاية هذه الحرم على ما تقدم ليست مطردة على إطلاقها ، بل هي كذلك في الأعم الأغلب ، إذ أن هناك قبائل معدودة لا تعرف لهذه المحرمات حقاً ، فكانت تسفك الدم ولو في الشهر الحرام أَو البلد الحرام علمت قريش أُمر هذه القبائل فكانت

---

(١) ذكر ابن هشام أنها تنسب أيضاً لأبي بكر ، ومهما يقل في نسبتها فإن فيها الجواب الطبيعي الذي لا يعقل إلا أنهم أجابوا به قريشاً .
واقد هو ابن عبد الله التميمي الذي رمى ابن الحضرمي فقتله ؛ وعثمان بن عبد الله : أحد الأسيرين ؛ والغل : ما يشد على العنق . والقد . السير من جلد .

تسلك في طريقها على القبائل التي تحفظ لها حرمتها فإذا وردت على من لا يرعاها تخفَّرت بخفير

ونحن مدينون للمرزوقي الذي له الفضل بإطلاعنا على ما لقريش من منزلة سامية في نفوس قبائل العرب وخاصة الذين يكونون على طريقها، كما علمنا منه القبائل التي لا تجتاز بها قريش إلا متخفرة كانت قريش في خروجها من مكة قاصدة دومة الجندل إذا « أخذت على الحزن لم تتخفر بأحد من العرب حتى ترجع وذلك أن مضر عامتهم لا تتعرض لتجار قريش ولا يتهجمهم حليف لمضري ، مع تعظيمهم لقريش ومكانهم من البيت وكانت مضر تقول قد قضت عنا قريش مذمة ما أورثنا أبونا إسماعيل من الدين وكانوا إذا خرجوا من الحزن أو على الحزن وردوا مياه كلب ، وكانت كلب حلفاء بني تميم فإذا سفلوا عن ذلك أخذوا في بني أسد حتى يخرجوا على طيئ فتعطيهم وتدلهم على ما أرادوا لأن طيئًا حلفاء بني أسد فإذا أخذوا طريق العراق تخفروا ببني عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة فيجيز لهم ذلك ربيعة كلها . »

هذا هو نظر أغلب العرب إلى قريش تعظيم لهم واحترام لمكانهم من البيت ولأنهم سدنته والقائمون بأمور الحاج أيام

الحج أذعنت لهم بذلك العرب وعرفوا لهم حقوقهم لأنهم قوّام الدين الذي دان به العرب قبل الإسلام وهم لهم تبع . وقد استغل القرشيون هذه المكانة القدسية ، فضربوا في جزيرة العرب شمالاً وجنوباً متاجرين ، لا يعرض لهم ولا لأموالهم أَحد

وكانوا بطبيعة الأمر مسيطرين على الأسواق الثلاثة الكبرى التي تقوم قريباً من مكة وهي عكاظ ومجنة وذو المجاز وفيها يجتمع أكبر حفل من بلاد العرب من جميع أطرافها لوقوع هذه الأسواق في أَيام الحج وقريباً من أمكنته

ويظهر أَن قريشاً لم تكتف بما لها من نفوذ في قبائل العرب بل أَرادت أن تصبغ نفسها صبغة تمتاز بها منهم في الدين نفسه ، كأنهم طبقة خاصة تتمتع بحقوق ليس لغيرهم أن يتمتع بها ، ورمت من وراء ذلك إلى أن تمكن هيبتها في نفوس الأعراب الغفل أقصد بذلك ما يعرف في كتب السير بحديث (الحُمْس) :

مادة (حمس) في اللغة تفيد الشدة والصلابة في الدين والقتال تلقبت قريش بالحمس هي وأحلافها من كنانة وخزاعة وجديلة ومن تبعهم في الجاهلية ، وخلاصة هذا الحديث في بدعتهم تلك أَنهم قالوا فيما بينهم

« نحن بنو إبراهيم وأَهل الحرمة وولاة البيت وقطّان مكة ،

فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا فلا تعظموا شيئاً من الحِل كما تعظمون الحَرَم . فإنكم إن فعلتم ذلك استخف العرب بحرمتكم وقالوا قد عظموا من الحِل مثل ما عظموا من الحَرَم . » فأجمعوا على هذا الرأي وتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها كما يفعل سائر العرب وهم مع إقرارهم أَن الوقوف بعرفة من مشاعر الحج ودين إبراهيم ، ومع أنهم يأمرون العرب عامة بالوقوف والإفاضة ، ابتدعوا لأنفسهم البقاء في الحرم واعتذروا لذلك بقولهم « نحن أَهل الحرم فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس » وجعلوا لأنفسهم حق تمييز غيرهم بما ميزوا به أنفسهم ثم ترقوا في الامتياز فحرموا على أنفسهم ائتقاط الأقط وسَلْء[1] السمن ما داموا حرماً . كما حرموا الاستظلال بغير بيوت الأدم محرمين كما حرموا على أَنفسهم أن يدخلوا بيتاً ما داموا محرمين ثم حظروا على غيرهم الأكل من غير طعام الحرم ، فمن جاء بطعام من غير الحرم ، وكان حاجاً أَو معتمراً حرم عليه الأكل منه ولم

---

(١) سلأ السمن طبخه وعالجه ، والأقط شيء يتخذ من المخيض الغنمي وأقط الطعام عمله به « القاموس »

يقتصر تحكمهم بغيرهم على هذا ، بل تعداه إلى الثياب فجروا على كل إنسان من غيرهم الطواف بالبيت أول ما يقدمون إلا بثياب الحمس ، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا عراة ، ومن طاف في غير ثياب الحمس حرمت عليه بعد الطواف فألقاها ولم يُنتفع بها قط

استغلوا سـذاجة من حولهم من الأَعراب لينفردوا بالحرمة والتقديس فيأمنوا بعدها على تجارتهم ويستفيدوا من هـذا التمويه ثراء وبسطة عيش فلما جاء الإسلام دكت الامتيازات كلها جملة واحدة ونزل قول الله لقريش

« ثُمَّ أَفِيضُوا منْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ » البقرة ، الآية ١٩٩

فشعائر الدين بعد هذه الآية يذعن لها الناس جميعاً بلا تمييز

واستوى في الحج القرشي وغيره بعد أَن كانت قريش تنفرد دون جميع الحجاج إذا خرجوا من مكة يوم التروية وترووا من الماء ، فتنزل الحمس أطراف الحرم من نَمِرة يوم عرفة وتنزل الحلة عرفة وقد أجمع أَصحاب السِير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف مع الناس بعرفة في سنته التي دعا فيها قبل الهجرة ولم يقف مع الحمس في طرف الحرم فكان هذا مما جلب نظر الناس ، وروى ابن هشام عن جبير بن مطعم أنه قال : « أَضللت بعيراً في يوم عرفة ، فخرجت أقصه وأتبعه بعرفة إذ أُبصرت محمداً

بعرفة ! فقلت : هذا من الحمس ، فما يقفه ها هنا ؟ !فعجبت له[1] .»

تزيُّد قريش في دينها أو في ابتداعها على الأَصح ، علَّم بعض العرب الاحتيال ، وما زال الدين ـ كما هي الوطنية في أيامنا ـ مبتلى بمكر المرتكبين والمحتالين ورواد المنافع . فكان إذا أَحدث أحد العرب حدثًا وخاف على نفسه وجد في حرمة الشهر وحرمة الحرم خير معاذ يعتصم به من أن يناله القصاص والظاهر أَن أمثال هذه الحوادث تكررت حتى حلت من حياة العرب الاجتماعية محل العادات المستحكمة فقد ذكر الأَزرقي أنه كان « من سنتهم أَن الرجل يحدث الحدث يقتل الرجل أو يلطمه أَو يَضرب به فيربط لحاء من لحاء[2] الحرم قلادةً في رقبته ويقول « أَنا ضرورة .» فيقال « دعوا الضرورة بجهله وإن رمى بجعره[3] في رحله » فلا يعرض له أحد فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا ضرورة في الإسلام ، وإنه من أحدث حدثًا أخذ بحدثه »[4] اه

إذا أُضفت هذه التزيّدات إلى ما في نفوس العرب من نفرة للخضوع حتى للدين ، استطعت أَن تستسيغ وجود قبائل تستهين

(١) انظر ج ٢ ص ١٩٤

(٢) اللحاء ما علَى العود من قشر بالمد والقصر لغة .

(٣) الجعر ما يبس من العذرة

(٤) اخبار مكة ص ١٣٢

بالحرمات وتتجاهل مكان قريش فتراها كغيرها من سائر العرب دماء وأموالاً ، بل تذهب أبعد من ذلك فلا ترعى حرمة شهر ولا أيام حج ومن هنا تخوّف الناس بعض التخوف من ورود الأَسواق عزلاً ، ولو كانت مواسمها في الأشهر الحرم فإن كنت علمت أَن عكاظ ومجنة وذا المجاز ، الأسواق الكبرى للعرب تقام في الأشهر الحرم فاعلم أن الأمن فيها هو أَكثر حالها والأغلب من أَيامها وأَن ما وقع فيها من أحداث استحلت فيها حرمتها ، صادر ممن لا يرى لها حرمة وهم أَقلية قلما يقيم المؤرخون لها حسابا

انقسم العرب إزاء حرمة هذه الأسواق أقساماً ثلاثة

١ — فأَما قسم فقد استحلوا المظالم فيها في أُشهر الحج ، ففعلوا المناكر وأَحلوا الحرام وفتكوا وسرقوا ولم يحفظوا للمكان ولا للشهر ولا لقريش حرمة ما ، فسموا [المُحلّين] لما استحلوا من الحرم وهم قبائل من أسد وطيءُ وبكر بن عبد مناة وقوم من بني عامر بن صعصعة [١] وأناس من خثعم وقضاعة . وغير هؤلاء أيضاً : ذؤبان وصعاليك وخلعاء ، ممن نفاهم قومهم وتبرؤوا منهم

٢ — وأما القسم الثاني فأقوام حفظت للمكان قدسه وللشهر حرمته وللقُوّام عَلَى البيت منزلتهم ، فكفت عن الفتك والسرقة

---

(١) انظر كتاب الأزمنة والأمكنة

وسائر المظالم وأنكرت على المحلين استخفافهم ، ونصبت أنفسها لنصرة المظلوم وحقن الدماء ومنع الأذى فسموا بـ [الذادة المحرمين] وهم أغلب العرب .

٣ — والقسم الثالث « أهل هوًى شرعه لهم صلصل بن أوس من بني عمرو بن تميم ، فإنه أحل قتال المحلّين [1] . » فيلبسون سلاحهم ليدفعوا عن الناس أذى المحلين من الفريق الأول وكان في هؤلاء أيضاً قبائل من طيئ وخثعم ، وناس من بني أسد بن خزيمة .

أما سائر العرب ممن لم نعد ، فهم في صف المحرّمين يضعون أسلحتهم في الأشهر الحرم و « كان الرجل إذا خرج من بيته حاجاً أو داجّاً (والداج التاجر في الأشهر الحرم) أهدى وأحرم ثم قلّد وأشعر [2] فيكون ذلك أماناً له في المحلين . وكان الداجّ إذا انفرد وخشي على نفسه ولم يجد هدياً ، قلّد نفسه بقلادة من شعر أو وبر ، وأشعر نفسه بصوفة فيأمن بها وإذا صدر من مكة تقلد من لحاء شجر الحرم وكان الداج وغيره إذا أمّ البيت

---

(١) الأزمنة والأمكنة

(٢) أهدى ساق الهدْي وهو ما يهدى إلى الحرم من النَّعَم . وأحرم دخل بالحج . وقلد من تقليد الهدْي وهو أن يعلق بعنق البعير قطعة من جلد ليعلم أنه هدْي فيكف الناس عنه . وأشعر البدَنة (الناقة) إشعاراً حزّ سنامها حتى يسيل منه الدم فيُعلم أنها هدي

وليس له علم بذلك ولا هو في سيماء المحرم أخذ المحلون ما معه .
وكانت العرب جميعاً تنزع أسنتها في الأشهر الحرم ، غير المحلين
والذين يقاتلونهم ، فإنهم كانوا يقاتلونهم حتى في الأشهر الحرم [1] »

خير تلك الطوائف الطائفة الثالثة التي نعتها المرزوقي بأنها أهل هوى : إذ لا يكفي أن يكون الإنسان محرّماً يرعى ذمام الشهر والمكان كافّاً أذاه عن غيره وهو ينظر إلى المحلّين يسفكون الدم الحرام وينهبون المال الحرام ليس من البر أن يترك هؤلاء وانتهاكهم ، بل البر كل البر أن يكون المرء محرّماً ثم مدافعاً عن المحرّمين شر هؤلاء المعتدين وبذلك تستأصل شأفتهم ويحسم ضرهم . أما كف اليد والاقتصار عليه بينما العين تنظر مكان المستبيحين ومدى أذاهم في الآمنين البريئين ، فإنه إن لم يكن إثماً لم يكن برّاً وإن دان به أكثر العرب .

بقي أمر ، وهو أي الحرمتين العربُ أكثر رعاية لها : ألشهر أم الحرم ؟ فإن المرء ليحب أن يعرف الواقع لستطيع أن يتمم فكرته عن مفاضلتهم بين الحرمتين ومن يتتبع ما وراء الحوادث يعرف أن العرب أرعى لحرمة الحرم منها لحرمة الشهر ولنا على ذلك أدلة

(١) الأزمنة والأمكنة

١ — منها أن حرمة الحرم لا تكلفهم إلا رعاية مكان محدود مدة إقامتهم فيه فهي ميسورة لهم وقلّ أن حفظ التاريخ انتهاكاً لحرمة الحرم . وليس كذلك حرمة الشهر فإن أمد رعايتها طويل جداً وهو ثلث السنة فيجب عليهم أن يكفوا عن الاعتداء مدة أربعة أشهر في أي بقعة كانوا وهو قيد صعب على طبيعة العربي النفور من القيود

٢ — كثير من القبائل انتهكت حرمة الشهر ولم تجرؤ على انتهاك حرمة الحرم على حين أن ثأرها وشرفها — وأنت تعلم قيمتهما عندهم — كانا يتقاضيانها غض النظر عن حرمة الحرم كان من هؤلاء القبائل قريش نفسها فسيمر بك في حرب الفجار التي كانت بين قريش وأحلافها وبين هوازن وقيس وأحلافهما ، أن القوم اقتتلوا بعكاظ في الشهر الحرام فاستووا جميعاً في انتهاك حرمته مع أن قريشاً هي القيّمة على دين العرب بحكم مكانها من البيت

إلا أن قريشا لما انسلّت من عكاظ حين أتاها نبأ اعتداء أحد أحلافها على هوازني ، خوفاً من هوازن التي كانت متكاثرة في السوق ، علمت هوازن بالأمر فاتبعت قريشا فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلت قريش الحرم فأمسكت عنهم هوازن رعاية لحرمته . فهم جميعاً يرون للحرم من الرعاية ما لا يرون للشهر

٣ — للعرب أساطير تقص العقاب الشديد الذي نزل بمن لم يبال حق الحرم ، وليس لهم في قوتها أساطير تعاقب من انتهك حرمة الشهر . واقرأ إن شئت حديث إساف ونائلة [1] اللذين مسخا صنمين لأنهما لم يحفظا للبيت حرمة واقرأ إن شئت الأحداث التي يرويها ابن هشام (١ ١٨ فما بعد) في ذلك والأشعار ، وكلها متضافر في بيان تعظيم حرمة البيت والعقاب الشديد الذي حل بمن أراد انتهاكها

٤ — أمر النسيء وهو تلاعب محض بالتقاليد التي تخص الشهر ، ولم يؤثر لهم مثله ولا قريب منه فيما يخص الحرم . جاء في أمالي القالي :

[أنهم كانوا إذا صدروا عن منى قام رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة فقال : « أنا الذي لا أعاب ولا يرد لي قضاء . » فيقولون له : « أنسئنا شهراً » أي أخر عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر . وذلك أنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم) لا تمكنهم الإغارة فيها لأن

---

(١) في كتاب الأصنام للكلبي : أن إساف رجل من جرهم يقال له إساف ابن يعلى ، ونائلة بنت زيد من جرهم وكان يتعشقها في أرض اليمن ، فحجا فدخلا الكعبة ، فوجدا غفلة من الناس وخلوة من البيت ، ففجر بها فيه ، فمسخا فأصبحوا فوجدوهما ممسوخين فوضعوهما ليتعظ بهما الناس فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها . اه . ثم صارت قريش تنحر عندهما النسائك

معاشهم كان من الإغارة : فيحلّ لهم (نعيم بن ثعلبة) المحرم ويحرم عليهم (بدلاً منه) صفراً ؛ فإذا كان في السنة المقبلة حرّم عليهم المحرّم وأحل لهم صفراً ، فقال الله عز وجل : « إِنَّمَا ٱلنَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ ، يُضِلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ ، فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ .. الآية » التوبة ، الآية ٣٨

وقال الشاعر

ألسنا الناسئين على معدّ   شهور الحِل نجعلها حراماً] [١]

هذا وقد وقر في نفوس العرب « أن مكة لا تقر فيها بغياً ولا ظلماً ، لا يبغي فيها أحد إلا أخرجته ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه [٢] . » وذهب الزرقاني إلى أنها سميت (بكة) لأنها تبكّ (تدقّ) أعناق الجبابرة

فللحرم في صدورهم رهبة لا يدانيه فيها غيره

رأيت أن اسم الحرم الذي تضاف إليه قريش ، كان خير حارس لتجارتها وعيرها تسير بفضله آمنة مطمئنة ، تتمتع بالرعاية والحرمة إلى اليمن وإلى العراق وإلى الشام

وقد ذكر النيسابوري في تفسيره (عند الكلام على الإيلاف)

---

(١) ١ : ٤ طبع دار الكتب المصرية

(٢) شرح المواهب ١ ٩٢

أن أشراف مكة لما كانوا يرتحلون للتجارة في الشتاء والصيف كانوا « يأتون لأنفسهم ولأهل بلدهم بما يحتاجون إليـه من الأطعمة والثياب . وإن ملوك النواحي كانوا يعظمونهم ويقولون هؤلاء جيران بيت الله وقطّان حرمه ؛ فلا يجترئ عليهم أحد . » وظاهر أن المقصود بملوك النواحي أمراء العرب في اليمن والعراق والشام . فإن هؤلاء هم الذين يعظمون البيت ؛ لا قيصر وكسرى

هذا مكان قريش من العرب في الأعم الأغلب ، ولا حكم للنادر . ولو لم يكن ذلك مستتباً لقريش ما كان هناك من معنى لسعي هاشم في طرق أبواب الأسواق الخارجية يفتحها لقبيله ، بينما تجارته المحلية غير آمنة فهو وإخوته ما شرعوا بمفاوضاتهم التجارية مع دول الرومان والفرس واليمن والحبشة إلا وقد فرغوا من الاطمئنان إلى الطرق الموصلة إلى هذه الممالك

الباب الثاني

أحداث قريش التجارية

ا — قريش التجار
ب — إيلاف قريش
ج — حلف الفضول
د — حرب الفجار

١ - قريش التجار

- ١ -

في سبب تسمية هذه القبيلة قريشاً أَقوال مثبوتة في كتب السيرة والأَدب تبلغ العشرين عداً أَما القَرْش في اللغـة فهو الجمع وإليك زبدة هذه الأَقوال

١ — سموا قريشاً لتجمعهم إلى الحرم بعد تفرقهم في البلاد ، وذلك حين غلب على مكة قصي بن كلاب الذي سمي مجمّعاً لذلك ، وقال فيه الشاعر

أبوكم قصي كان يدعى مجمِّعاً به جمع الله القبائل من فهر

٢ — أَو لأُنهم كانوا أهل تجارة وتكسُّب وضرب في البلاد ابتغاء الرزق ، يتقرشون البياعات فيشترونها ولم يكونوا أَهل زرع وضرع من قولهم فلان يتقرش المال أَي يجمعه

٣ — أو لأنهم كانوا يفتشون الحاج فيسدون خلتها فمن كان محتاجاً أَغنوه ومن كان عارياً كسوه ، ومن كان معدماً

واسوه ، ومن كان طريداً آووه ، ومن كان خائفاً حموه ، ومن كان ضالاً هدوه الخ

٤ — أَو لأَن أباهم النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً فقالوا تقرّش

٥ — أَو لأنه جاء إلى قومه فقالوا : كأنه جمل قَرِيش أي شديد .

٦ — أو لأَن قُصَيًّا كان يقال له القرشي

٧ — أو سميت القبيلة بمصغر القِرْش وهي دابة بحرية تخافها دواب البحر كلها [1]

٨ — أو سميت بقُرَيْش بن يَخْلُد بن غالب بن فِهر وكان صاحب عيرهم أو دليلها ، فكانوا يقولون قدمت عير قريش ، خرجت عير قريش [2]

---

(١) نسبوا هذا القول إلى ابن عباس . جاء في خزانة الأدب ١ : ١٨٩ (السلفية)

(سأل عمرو بن العاص عبد الله بن عباس بم سميت قريش ؟ قال « بدابة في البحر تسمى قريشاً ، لا تدع دابة إلا أكلتها ، فدواب البحر كلها تخافها » قال المشمرخ بن عمرو الحميري

وقريش هي التي تسكن البحـ ـر بها سميت قريش قريشاً) اه

وكأن هذا البيت تعريف لغوي منظوم كما تنظم المتون . والله أعلم

(٢) انظر مادة قريش في القاموس وشرحه وفي لسان العرب وخزانة الأدب ١ : ١٨٩ (السلفية) .

فهذه ثمانية وجوه في هذا الاسم . وكل وجه منها معه شفيع من معنى أو مناسبة ، ينفذ به إلى القبول

إلا أن منها جميعاً قولين يظفران على التمحيص ؛ أما الأول فهو أنه أطلق على النضر بن كنانة ، فكل من كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي . وهناك مذهب آخر له شأنه من حيث رواته الثقات ، يرمي إلى أن هذا اللقب أطلق على حفيده « فهر بن مالك بن النضر » نقله صاحب المصباح عن السهيلي وشارح القاموس عن ابن الكلبي وقال « إنه مرجع في هذا الشأن » ، وذكر أيضاً في سيرة ابن هشام . ونحن إذا دققنا في صيغة الرواية عند ابن هشام وصاحب المصباح وجدناها مبنية للمجهول « ويقال » وبهذا نعلم أن الراويين ضعفاها فكفيانا بذلك المؤونة [1] وقول الشاعر

---

(١) ومع ذلك فقد قال في العقد الفريد (٢ ٢٠٣) : « إنما جمع قصي إلى مكة بني فهر بن مالك ، فجد قريش كلها فهر بن مالك ، فما دونه قريش وما فوقه عرب . »

وجاء في خزانة الأدب ١ ١٩٠ « قال عبد الملك بن مروان : سمعت أن قصياً كان يقال له القرشي ، لم يسم قرشي قبله . »

أَبوكم قُصَي كان يدعى مجمّعًا به جمع الله القبائل من فهر

المتقدم الذكر لا يمنع أَن يكون ولد النضر جميعاً من قريش والنص على فهر لا يخرج إِخوته وأَولاد عمه من القرشية

ولا بد من التنبيه هنا عَلى حجة قوية ولعلها قاطعة ، جاءت في سيرة ابن هشام وهي كفيلة بالفوز بطمأنينة الباحث ، فقد ذكر بيتاً لجرير في مدح هشام بن عبد الملك يعني فيه برة بنت مرّ أخت تميم بن مر وهي أم النضر هذا ، وذلك قوله

فما الأم التي ولدت قريشًا بمُقْرِفة النجـار ولا عقيم
وما قرم بأنجب من أَبيكم وما خال بأكرم من تميم[1]

وجرير من تميم

وأما الثاني في بيان السبب في هذه التسمية وأي التفاسير هو الأرجح: يستبعد الذهن أن تكون دابة البحر هي التي أوحت هذا الاسم ، ولو روي هذا القول عن ابن عباس لبُعد العرب حول مكة عن البحر وجهلهم حيوانه ففي هذا الشرح تكلف ظاهر كالذي في اشتقاقه من الجمل القَرِيش والذي لا يجد المرء غيره مذهباً يرتضيه هو أن تكون (قريش) من القَرش

(١) سيرة ابن هشام ١ ٩٠ ، والإقراف أن تكون الأم عربيـة والأب غير عربي والقِرم السيد والفحل ٠

بمعنى الجمع ، لما كانوا يتعاطون من التجارة وجمع المال إذ كانوا معروفين بذلك عند العرب عامة ذكر ابن هشام أَن التقرش التجارة والاكتساب وأن القروش (أَيضا) التجارة والاكتساب وأَتى على ذلك بشاهد من كلام العرب . لكن الجاحظ أزال اللبس في ذلك وأحسن الإيضاح حين قال في صدد كلامه عنهم

« وبالتجارة كانوا يعرفون ، ولذلك قالت كاهنة اليمن « لله در الديار لقريش التجار » وليس فوقهم قرشي كقولهم هاشمي وزهري وتميمي لأَنه لم يكن لهم أب يسمى قريشاً فينتسبون إليه ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة والتقريش [1] »

وقد تقدم الدليل آنفاً على أن النضر هو قريش ولا داعي لتسميته بذلك إلا معنى التجارة والكسب

وقريش في الأَصل طبقتان قريش البطاح وقريش الظواهر أَما قريش البطاح فهم الذين نزلوا بطحاء مكة وبطنها وهم سادة القرشيين ، فيهم بنو هاشم وبنو أمية ومنازلهم الشعب بين أَخشبَيْ مكة [2] وهم صُبابة قريش وصميمها وساداتها وأغنياؤها ، اختطوا منازلهم في البطحاء ونزلوها .

---

(١) رسائل الجاحظ ص ١٥٦

(٢) أخشبا مكة جبلاها : أبو قبيس والذي يقابله

وأما قريش الظواهر فهم الذين لم تسعهم الأباطح فنزلوا أعلى مكة خارج الشعب ، فانتشروا حولها في ظواهرها وهم دون أولئك شرفاً وغنى وشأنا قال في لسان العرب « وقريش البطاح أكرم وأشرف من قريش الظواهر .» واستشهد لذلك بقول الشاعر

فلو شهدتني من قريشٍ عصابة   قريشِ البطاح لاقريشِ الظواهر

وقول الكميت

فحللت معتلج البطا   حِ وحلّ غيرك بالظواهر[1]

وهناك قرشيون استوطنوا الطائف وغيرها حيث اتخذوا الأموال والمزارع فلم ينسبوا إلى ظواهر ولا إلى بطاح روى صاحب تاج العروس أن « في قريش من ليس بأبطحية ولا ظاهرية .»

* * *

أول بانٍ لمجد قريش وموطدٍ لنفوذها هو قُصي بن كلاب ، إذ استنقذ أمر مكة وولاية البيت من جُرْهُم وخزاعة بعد حرب شديدة وجمع أَشتات قومه فأَنزلهم حول الحرم وملك أَمرهم « فكان أول بني كعب بن لؤي أصاب ملكا أطاع له به قومه فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله وقطع مكة رباعاً بين قومه فأنزل كل قوم من قريش

(١) انظر لسان العرب وتاج العروس مادتي : بطح ، ظهر

منازلهم من مكة التي أَصبحوا عليها فسمته قريش مُجمِّعا لما جمع من أَمرها وتيمّنت بأمره فما تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش ولا يتشاورون في أَمر نزل بهم ولا يعقدون لواءً لحرب قوم من غيرهم إلا في داره الخ ...»[1]

فأنت ترى أَن قصياً مكّن دعائم قريش ونظم أُمورهم ثم جعل من داره التي اتخذها لنفسه وجعل بابها إِلى مسجد الكعبة مجلس شورى لقريش ودار حكومة معاً وسماها دار الندوة وكانت قريش بعده لا تقضي أمراً إِلا فيها ، فيها ينظمون عيرهم إلى الشام أَو اليمن فلا تخرج عير إلا منها ولا يقدمون إلا نزلوا فيها ، ويتفاوضون في أَمر تجارتهم وحربهم وسلمهم وفيها كان معظم المؤامرات التي ائتمروا بالنبي وأُصحابه في بدء الدعوة ، و كانت لهم محكمةً يلجأ إِليها المتخاصمون ويقضي فيها شيوخهم المقدمون ولا ريب أَن أُمور التجارة القرشية بعد الذي صنع قصي لهم اطرد تقدمها وازدهارها فاتسعت ونمت

وأَراد قصي تثبيت هيبة قريش في نفوس العرب ففرض عليهم خرجاً يخرجونه في كل موسم من أَموالهم ، فإِذا كان الحج قال قصي

(١) سيرة ابن هشام ١ ١١٨

«يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيف الله وأهله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم» فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه فيصنعه طعاماً للناس أيام منى فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد[1] من الحجاج وأهل مكة . وهذه هي الرفادة

امتدت أيام قصي حتى كبر فعهد إلى ولده عبد الدار باللواء والسقاية والرفادة، لأنه لم يشرُف في حياته وكان بكره؛ فقد بطّأ به عمله عن أن يلحق بأخيه عبد مناف الذي بلغ في الشرف والسيادة شأواً بعيداً فخص قصي عبدَ الدار بذلك جبراً له حتى يلحق بأخيه . ثم تنازع على الشرف بنو عبد الدار وبنو عبد مناف وتحزب لكل من الفريقين أقوام وأفضى النزاع إلى الاستعداد للحرب وتعاهد عند الكعبة بنو عبد الدار وحلفاؤهم على النصرة فسموا الأحلاف، وتعاقد بنو عبد مناف وغمسوا أيديهم في جفنة مملوءة طيباً فسموا المطيِّبين ثم كان سعي بين الفريقين انفرج عن صلح بينهما على أن يكون لبني عبد مناف السقاية والرفادة وأن يكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار . فتحاجز الناس على ذلك حتى أتى الإسلام وهم عليه

---

(١) سيرة ابن هشام ١ ١٢٢

ازدهر مجد قريش التجاري وبلغ أوجه في الحقيقة ، بهاشم بن عبد مناف ؛ لأن تجارة قريش قبله لم تكن تعدو مكة « وإنما كان يقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب . » [١] حتى جاء هاشم ففتح في وجوههم ما فتح

كانت لهاشم دون إخوته الرفادة والسقاية فقام بأمرهما إذ كان أخوه عبد شمس رجلاً سفّاراً مقلاً ذا عيال وهاشم موسر طماح بعيد النظر ، وقد ضرب القرشيون على عهده في الأرض فأكثروا الأسفار التجارية ومن الغريب أن أولاد عبد مناف كلهم حليفو أسفار طوحتهم الغربة فمات كلٌّ بناحية أما هاشم فمات بغزة من ارض الشام فسميت به غزة هاشم ، وأما أخوه المطلب فقد مات بردْمان من أرض اليمن وأما أخوه نوْفل فمات بسلْمان من أرض العراق وعبد شمس مات بمكة

اضطلع هاشم بأعباء الأمور وأكثر من الأسفار وهو أول من عقد المعاهدات التجارية لقريش (كما سيأتي قريبا عند الكلام على الإيلاف) فثمر الأموال وارتفع له ذكر نابه بين قومه واستفاضت له مكارم سار بها الركبان [٢] . قال ابن سعد

---

(١) الأمالي ج ٣ ص ١٩٩

(٢) الطبقات ج ١ ص ٤٣ اوربا

«كان اسم هاشم عمراً فأصابت قريشاً سنوات ذهبن بالأموال فخرج هاشم إلى الشام فأمر بخبز كثير فخبز له فحمله في الغرائر⁽¹⁾ على الإبل حتى وافى مكة فهشم ذلك الخبز يعني كسره وثرده ونحر تلك الإبل ثم أمر الطهاة فطبخوا ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة . فكان ذلك أول الحيا بعد السنة التي أصابتهم فسمي بذلك هاشماً وقال ابن الزِبَعْري في ذلك

عمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

وقال وهب بن عبد قصي في ذلك :

تحمل هاشم ما ضاق عنه وأعيا أن يقوم به ابن بيض
أتاهم بالغرائر متأقات من أرض الشام بالبُر النقيض
فأوسع أهل مكة من هشيم وشاب الخبز باللحم الغريض
فظل القوم بين مكللات من الشيزاء حائرها يفيض⁽²⁾ اهـ

والظاهر أن هاشماً لقي مجداً وعزاً ومكانة لم يحظ ببعضها أحد فأثار ذلك حسد الأقران له لمّا انقطعوا دون بلوغ شأوه وأورثوا هذا الحسد أبناءهم من بعدهم ولم يشفع لهاشم ما قدم

---

(1) ، (2) الطبقات ١ ٤٤ ، الغرائر جمع غرارة وهي الجُوالق (العدل) متأقات ممتلئات . الغريض الطري والشيزاء ممدود شيزى وهو الخشب الأسود يعمل منه القصاع . والحائر : الودك .

لقومه من خير وما رفع لهم من ذكر وما وطد لهم من تجارات فإن ابن سعد يروي لنا بعد ما تقدم من صنع هاشم، أول ما زرع الشر بين بني أمية وبني هاشم قال « فحسد هاشماً أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف، وكان ذا مال فتكلف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه، فشمت به ناس من قريش فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة . فكره هاشم ذلك لسنه وقدره، فلم تدعه قريش وأحفظوه . فقال لامية : فإني أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحرها ببطن مكة، والجلاء عن مكة عشر سنين . فرضي أمية بذلك وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي فنفّر هاشماً عليه، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من حضره وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية . »[1]

جرى بنو قصي على سنة أبيهم في إطعام الحاج إلا أن هاشماً امتاز منهم جميعاً فسار بهذه السنة إلى شوط بعيد لم يبلغه أحد قبله ولا بعده ولاغرو فقد كان من الغنى بالمكان المشهور وأسعفه في التجارة حظ قلما أتيح لغيره وعلى يده وأيدي إخوته فتحت لقريش أسواق في بلاد الروم وفارس والحبشة . فصنع للحاج

---

(١) الطبقات ١ ٤٤

ما لم يصنعه أحد ونحن عارضون لك من ذلك ما وصفه ابن أبي الحديد ومنبهوك خاصة على شرف هاشم وكمال مروءته في حرصه على ألا يطعم الحاج إلا ما حل كسبه

كان يقوم أول نهار اليوم الأول من ذي الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشاً فيقول « يا معشر قريش أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوها وأعظمها أحلاماً وأوسطها أنساباً وأقربها أرحاماً يا معشر قريش أنتم جيران بيت الله أكرمكم بولايته وخصكم بجواره دون بني إسماعيل ، وحفظ منكم أحسن ما حفظ منكم جارٌ من جاره فأكرموا ضيفه وزوار بيته فإنهم يأتونكم شعثاً غبراً من كل بلد : فورب هذه البنية ، لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتكموه ألا وإني مخرج من طيب مالي وحلاله مالم يقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ولم يدخل فيه حرام فواضعه ، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج منكم رجل من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً ولم يقطع فيه رحم ولم يغتصب » فكانت قريش تخرج من صفو أموالها ماتحتمله أحوالها وتأتي به إلى هاشم فيضعه في دار الندوة لضيافة الحاج [1] اهـ

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣ : ٤٥٤

والمرء — وإن حدثته نفسه فيما روى ابن أبي الحديد — موقن أن هاشماً في الغاية من النبل والشرف وتحري الطيب من المكاسب كان إذا جمع الأموال من قريش يأمر بحياض[1] من أدم فتجعل في موضع زمزم ثم يستقى فيها الماء من آبار مكة فيشربه الحاج وكان يطعمهم أول ما يطعم، قبل التروية بيوم، بمكة وبمنى وجمع وعرفة. وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر ويجعل لهم الماء فيسقون بمنى — والماء يومئذ قليل — في حياض من الأدم إلى أن يصدروا من منى فتنقطع الضيافة ويتفرق الناس لبلادهم.

لم تكن أمور قريش وخدمة الحجيج لتصرف هاشماً عن تجاراته وأسفاره بل كان بين هذا وذاك يقود قوافل قريش إلى الشام وقد تزوج قبيل وفاته في إحدى هذه الرحلات والفضل لابن سعد في وقوفنا على بعض تفاصيل للعير التي خرج بها هاشم كما له الفضل في معرفتنا ممارسة المرأة العربية للتجارة ومشاركة الرجال في الجاهلية بالخروج إلى الاسواق والاتجار فيها قال:

« خرج هاشم في عير لقريش، فيها تجارات وكان طريقهم على المدينة، فنزلوا بسوق النبط فصادفوا سوقاً تقوم بها في السنة يحشدون لها. فباعوا واشتروا ونظروا إلى امرأة على موضع مشرف

(١) انظر طبقات ابن سعد ١ ٤٥

من السوق ، فرأى امرأة تأمر بما يشترى ويباع لها ، فرأى امرأة حازمة جلدة ، مع جمال . فسأل هاشم عنها أأيّم هي أم ذات زوج ؟ فقيل له «أيّم كانت تحت أحيحة بن الجلاح فولدت له عمراً ومعبداً ، ثم فارقها .» وكانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشرطوا لها أن أمرها بيدها ، فإذا كرهت رجلا فارقته وهي سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار فخطبها هاشم فعرفت شرفه ونسبه ، فزوجته نفسها ودخل بها وصنع طعاماً ودعا من هناك من أصحاب العير الذين كانوا معه ، وكانوا أربعين رجلاً من قريش فيهم رجال من بني عبد مناف ومخزوم وسهم ، ودعا من الخزرج رجالاً وأقام بأصحابه أياما وعلقت سلمى بعبد المطلب فولدته وفي رأسه شيبة فسمي شيبة وخرج هاشم في أصحابه إلى الشام حتى بلغ غزة فاشتكى فأقاموا عليه حتى مات فدفنوه بغزة ورجعوا بتركته إلى ولده .»[1]

ذكر ياقوت أن قبر هاشم بغزة حيث مات ، وأنها لذلك يقال لها غزة هاشم وروى لمطرود الخزاعي في رثائه

مات الندى بالشام لما أن ثوى فيه بغزة هاشم لا يبعد

(١) الطبقات : ١ ٤٥

قال ياقوت « مات هاشم بغزة وعمره خمس وعشرون سنة وذلك الثبت وقيل عشرون .» وفي النفس من هـذا التقدير شيء لأَن ما حفلت به حياة هاشم وما تم لقومه على يديه يندر أن يكمل لابن خمس وعشرين

قام بأمر قريش بعد هاشم أخوه الأَصغر المطلب بن عبـد مناف وكان ذا شرف في قومه وفضل وكانت قريش إنما تسميه الفَيْض لسماحته[1] وفضله وقد ضم إليه ابن أَخيه شيبة بن هاشم في أحد أسفاره فدخل به مكة مردفاً إياه على بعيره فظنت قريش أنه غلامه فقالوا عبد المطلب فقال المطلب ويحكم إنه شيبة ابن أَخي هاشم ، قدمت به من المدينة . ولما خرج المطلب في رحلة له إلى اليمن مات بردْمان وكان آخر من مات من بني عبد مناف نوفل الذي تقدم أَنه مات بسلمان من أرض العراق فذكرهم مطرود بن كعب الخزاعي في رثائه فقال

أربعـة كلهم سيد أَبنـاء سادات لسادات
ميْت بردْمان وميْت بسلْـ ـمان وميْت بين غزات[2] . الخ

(١) ابن هشام ١ ١٢٨

(٢) ومن الغريب الطريف أنه أصاب أولاد العباس بن عبد المطلب ما أصاب إخوة هاشم هؤلاء حتى قالوا أبعد قبور إخوة على الأرض قبور أولاد العباس فعبد الله بن عباس الحبْر دفن في الطائف ، والفضل =

ثم انتهت السقاية والرفادة من بعده إلى عبد المطلب بن هاشم فأدار أمور قومه وأهم ما صنع لهم حفر بئر زمزم وقد كان في قريش ذا هيبة ومكانة

وفي أيامه هددت مكة وتعرضت مكانتها التجارية للهبوط ، إذ قصدها أبرهة « يريد بلا شك الاستيلاء على مكة ومفاتيح تجارتها [١] » فاعتصمت قريش في شعف الجبال وفي الشعاب تخوفاً من معرة الجيش وأخذ عبد المطلب بحلقة باب الكعبة مع نفر من قريش يستعدي رب البيت على الأحباش بما لا غرض لنا بذكره هنا ، إلا أننا لا نرى مندوحة عن التعرض للمقدمة التي قدّم بها أنيس (سائس فيل أبرهة) ، عبد المطلب إلى أبرهة إذ قال له « أيها الملك ! هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عير مكة ، يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال [٢] » وكان أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير

= ابن عباس رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم مات في طاعون عمواس بالشام أيام عمر ، وعبيد الله بن عباس الجواد مات بالمدينة ، وقثم بن عباس شبيه النبي صلى الله عليه وسلم مات بسمرقند زمن معاوية ، وعبد الرحمن بن عباس قتل بإفريقية زمن عمر . اه . ملخصاً عن النوادر للقالي ص ١٩٧

(١) ، (٢) تاريخ العرب الأدبي للاستاذ رينولد نيكلسون ترجمة محمد حسن حبشي في الرسالة عدد ١٨٩ ٦٤

أَصابها خارج مكة فأتاه يستردها . وإذا كان مائتا بعير مما يملك مثل عبد المطلب وهو لم يشتهر بكثرة الأسفار كما اشتهر غيره من القرشيين ، أمكنك أَن تتصور الغنى الذي تمتع به هذا البطن من العرب

وعبد المطلب هذا هو الذي رأس وفد قريش الذي ذهب إلى سيف بن ذي يزن ليهنئه بالملك وبالظفر وقد لقي الوفد ورئيسه خاصة من إجلال الملك وإكرامه ما تجد تفصيله في العقد الفريد (١ ١٧٥) فارجع إليه ثمة . وينسب إلى عبد المطلب هذه الأبيات يذكر فيها حرمة البيت ويعرض لجيش أَبرهة

نحن آل الله في ذمته لم نزل فيها على عهد قدمْ
إن للبيت لرباً مانعاً من يرد فيه بإثم يُخترم
لم تزل لله فينا حرمة يدفع الله بها عنا النقم

ثم أَفضى الأمر من بعده إلى أَصغر أَولاده العباس بن عبد المطلب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ابن ثماني سنين وبقي الأمر في يده حتى جاء الإسلام

ومن تمام الوصف أَن نختصر هنا عن العقد الفريد توزيع الوظائف الرسمية على بطون قريش ، في هذه الجمهورية التجارية في مكة ، التي شبهها « لامنس » بجمهوريتي البندقية وقرطاجة ، لسيطرة

الماليين من أرباب التجارة وأصحاب رؤوس الأموال [١]

قال ابن عبد ربه (العقد ١ ٢٠٣)

« من انتهى إليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالإسلام عشرة رهط من عشرة أبطن ، وهم هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتميم ومخزوم وعدي وجُمح وسهم

١ — فكان من هاشم ، العباس بن عبد المطلب يسقي الحجيج في الجاهلية وبقي له ذلك في الإسلام

٢ — ومن بني أمية ، أبو سفيان بن حرب : كانت عنده العُقاب راية قريش ، وإذا كانت عند رجل أُخرجها إذا حميت الحرب ، فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العُقاب وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه

٣ — ومن بني نوفل الحارث بن عامر وكانت إليه الرفادة .

٤ — ومن بني عبد الدار ، عثمان بن طلحة كان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة والندوة

٥ — ومن بني أسد يزيد بن زمعة بن الأسود ، وكانت إليه المشورة وذلك أن قريشاً لا تجتمع على أمر حتى يعرضوه عليه فإن وافقه وإلا تخير وكانوا له أعوانا ؟

---

(١) مجلة الشرق سنة ١٩٣٦ ص ٥٣٩

٦ — ومن بني تميم أبو بكر الصديق وكانت إليه في الجاهلية الأشناق وهي الديات والمغرم فكان إذا احتمل شيئاً من الدماء فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه

٧ — ومن بني مخزوم خالد بن الوليد ، وكانت إليه القبة والأعنة فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش ، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحرب.

٨ — ومن بني عدي عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة في الجاهلية وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً ، وإن نافرهم حي لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به .

٩ — ومن بني جمح صفوان بن أمية وكانت إليه الأيسار وهي الأزلام يستقسم لهم بها إذا أرادوا أمراً من أمورهم العامة .

١٠ — ومن بني سهم الحارث بن قيس وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التي سموها لآلهتهم

فهذه مكارم قريش التي كانت في الجاهلية وهي السقاية والعمارة والعقاب والرفادة والسدانة والحجابة والندوة واللواء والمشورة والأشناق والقبة والأعنة والسفارة والأيسار والحكومة والأموال المحجّرة ، إلى هؤلاء العشرة من هذه البطون العشرة

على حال ما كانت في أوليتهم، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر وجاء الإسلام فوصل لهم ذلك . فكانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر في بني هاشم . والعِمارة هي ألا يتكلم أَحد في المسجد الحرام بهُجر ولا رفث ولا يرفع صوته ، فكان العباس ينهاهم عن ذلك وأما حلوان النفر : فإن العرب لم تكن تملك عليها في الجاهلية أحداً فإن كان حرب أَقرعوا بين أهل الرياسة فمن خرجت عليه القرعة أَحضروه صغيراً كان أو كبيراً . فلما كان يوم الفجار أقرعوا بين بني هاشم فخرج سهم العباس وهو صغير فأجلسوه على المجن »

* * *

— ٣ —

هذا أمر سراة قريش ورؤساهم فأما عامتهم فقد أَخذوا يشغلون مركزاً ممتازاً بين قبائل العرب ساعدهم على بلوغه مقامهم في مكة حيث البيت والحرم، إذ كانوا يقومون بسدانة البيت وما يحتاج إليه من خدمة وعناية . فكانت العرب تعرف لقريش شرفها ومكانتها وغناها كما تعرف لها زعامتها الدينية وسيطرتها على مكة وإدارتها

والقرشيون من بين عامة سكان الحجاز أَغنياء مهرة في أمور

التجارة لا يكاد يعرف لكثير منهم عمل غير الاتجار «ومن لم يكن من قريش تاجرا فليس بشيء» . فكانوا ينظمون عيرهم في الشتاء إلى اليمن حيث يبتاعون سلع الهند والحبشة المستفيضة هناك فيحملونها إلى الحجاز ، وعيراً في الصيف إذ يرحلون بما حملوا من الحبشة والهند وما عندهم أيضاً من محصول بلادهم كالتمر والأدم ، إلى الشام فيفرغون في أسواقها : غزة وبصرى وغيرهما ، مافي أحمالهم ويأخذون بدلاً منها ما في الشام مما لا يكون بالهند ولا بالحبشة .

وكانوا يسيرون قوافل عظيمة معها حامياتها وأدواتها ومعهم الأدلاء يسيرون بين أيديهم أما الحاميات فأكثر ما تكون من بني غفار ومن إليهم ، ممن يتقاضون على مرافقة العير وحمايتها جعلاً من قريش هذا عدا عبدان قريش ومواليها وأحلافها

اختلاط القرشيين بالروم والفرس والحبشان جعلهم يتميزون من سائر العرب بميزات أفادوها من هذا الاختلاط ، فتعلم فريق منهم الكتابة من الحيرة ونشروها لما رجعوا إلى بلادهم فكان في مكة والطائف عدد غير يسير يحسنون الكتابة (١) وكان أكثر كتاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم . ومن هنا كان القرشيون

---

(١) انظر بلوغ الأرب ٣ : ٣٦٨ وما بعدها

أَقرب العرب من علم وثقافة وتهذيب ، لمخالطتهم هؤلاء الأَجانب المتحضرين وقبسهم شيئًا من تعاملهم في بيوعهم وأنظمتهم في تجارتهم حسبما كانوا يرون في الأسواق التي كانوا يحطون رحالهم فيها . وهذه الأسواق وإن لم تكن في الدرجة الأولى بين أسواق الرومان ، ولا أَهلها سابقين في مضمار الحضارة كثيرا ، لم تخل من آثار بعيدة في التحضر استفاد منها تجار مكة شيئًا يعتد به في السياسة والاقتصاد بل لقد تأثروا برحلاتهم هذه ببعض المعتقدات أَيضاً فقد ذكروا أن عبادة الأصنام طارئة على أهل مكة من الشام وأن عمرو بن لحي – فيما زعموا – أَول من نشر عبادة الأصنام حول الكعبة حين حمل معه صنماً من أصنام وجدها في جنوب الشام فنصبه في الكعبة

فأنت ترى أن هذه الرحلات أثرت حتى في معتقدات العرب ومن القريب المألوف أن يحمل الرحالون من البلاد التي ينزلونها شيئًا من طرائفها في العادات والدين والأخلاق والعروض والأزياء يتحدثون عنه إذا ردّتهم أسفارهم إلى بلادهم ، فيُعجبون منه ذويهم وجيرتهم ممن لم يكن له بتلك البلاد عهد . وما أَكثر ما يحاول الإنسان تقليد من يملأ عينه

أفادت قريش من هذه الرحلات وهذا الاختلاط بالأمم التي

سبقتهم ، كثيراً من اللباقة والكياسة إلى ما عرفت به من الفصاحة المشهود لهم بها ، حتى إن العرب كانت تعرض شعرها على قريش وعرض علقمة الفحل عليهم شعره فوصفوه بِسِمْطِ الدهر ، وثقفت ألواناً من الدهاء والاحتيال ، لا يحسنها إلا من رسخت قدمه في التجارة وأسبابها وضروب تعاطيها ، حتى إذا دار الزمان وقضي للعرب أن تكون لهم دولة ذات سياسة داخلية وخارجية ، كان أَقطاب هذه الدولة وأركانها ، أولئك التجار الذين يعرفون كيف يتأَتَّوْن للأُمور ويتلطفون لمواجهة الصعاب وتذليل العقبات وحل المشكلات من أمثال أَبي بكر وعمر وعثمان وأَبي سفيان ومعاوية وعمرو بن العاص وزياد والمغيرة ، وتلك الطبقة الممتازة من أَكابر التجار في الجاهلية وكبار أَهل الحل والعقد في الإسلام

ومتى رميت برجل ذي ذكاء ومواهب ، في قطر تجاري كالشام أَو العراق (قبل الإسلام) فاختلط بالتجار ، وقاسى محيطاً غير محيطه ، تفتحت تلك المواهب ، وانجلت عن نبوغ كبير ما كان لينكشف لو جمد صاحبه في محيطه الضيق ، بين شعاف مكة وبطاحها إن شئت فانظر إلى هذا الاحتيال المضاعف الذي أَتاه المغيرة بن شعبة وضحك به على كل خمَّار في الحيرة (إن كان ليعجز عن أقل منه أَقطاب فضائح « ستافسكي » رغم ما

يجهزهم به العصر العشرون من وسائل وعدد) ولعل في هذه القصة التي سأوردها لك بياناً شافياً لهذا الدهاء التجاري الذي تمرست به قريش وامتازت به من العرب قاطبة

قال المغيرة بن شعبة :

« أول ما عرفني به العرب من الدهاء والحزم ، أني كنت في ركب من قومي ، في طريق لنا إلى الحيرة فقالوا لي « قد اشتهينا الشراب وما معنا إلا درهم زائف . » فقلت : « هاتوه وهلموا زقين » . فقالوا : « وما يكفيك لدرهم زائف زق واحد ! » قلت « أعطوني ما طلبت وخلاكم ذم » ففعلوا وهم يهزؤون من قولي

فصببت في أحد الزقين شيئاً من ماء ثم جئت إلى خمَّار فقلت له « كل لي ملء هذا الزق » فملأه . فأخرجت الدرهم الزائف فأعطيته إياه فقال « إن ثمن هذا الزق عشرون درهماً جياداً ، وهذا درهم زائف ! » فقلت « أنا رجل بدوي وظننت أن هذا يصلح كما ترى ، فإن صلح وإلا فخذ شرابك . » فاكتال مني ما كاله وبقي في زقي من الشراب بقدر ما كان فيه من الماء فأفرغته في الزق الآخر وحملتها على ظهري وخرجت . فصببت في الزق الأول ماء ودخلت إلى خمار آخر فقلت : « إني

أَريد ملء هذا الزق خمراً فانظر إلى ما معي منه، فإن كان عندك مثله فأعطني.» فنظر إليه (وإنما أردت ألا يستريب بي إذا رددت الخمر عليه) فلما رآه قال «عندي أجود منه» قلت: «هات.» فأخرج إليّ شراباً فاكتلته في الزق الذي فيه الماء ثم دفعت إليه الدرهم الزائف، فقال لي مثل قول صاحبه فقلت: «خذ خمرك» فأخذ ما كال لي وهو يرى أَني خلطته بالشراب الذي أَريته إياه وخرجت فجعلته مع الخمر الأَول

ثم لم أزل أفعل ذلك بكل خمَّار في الحيرة حتي ملأت زقي الأول وبعض الآخر ثم رجعت إلي أَصحابي فوضعت الزقين بين أَيديهم ورددت دراهمهم

فقالوا «ويحك! أَي شيء صنعت؟» فحدثتهم فجعلوا يعجبون وشاع لي الذكر في العرب بالدهاء حتى اليوم [1] »

هذا احتيال لا يخترعه إلا عقل تاجر ماهر، ملم بحرفته وأسرارها وبالغش وضروبه أحسنته قريش وشركاؤها كما أحسنت ضرباً آخر من اللباقة وحسن التأتي مع الدول المحاورة التي تاجروا في بلادها، فكانوا بهذه الكياسة، ينجون من عقاب المخالفات التي يرتكبونها وعواقب المغامرات التي يقتحمونها ولما

---

(١) الأغاني ١٤ ١٣٥

أرادت قريش أن تفتح لها أسواق فارس ولم تكن ترتادها كما ترتاد أسواق الشام ، كان لا بد في سبيل الوصول إلى ذلك من مغامرات ومخاطرة وتعرض للأذى وكانت الحاجة تخلق لها مغامرين أذكياء منها أو من شركائها يصلون برفقهم ودهائهم إلى ما يريدون مع السلامة والغنيمة ونحن ذاكرون لك هنا شاهداً ، مهما يكن حظ التزيد فيه فإن ما يخلص منه بعد الامتحان صالح لأن يعطيك صورة صحيحة عن فطنة القوم في أمور التجارة والاحتيال لها والجرأة فيها

ذكر الرواة أن أبا سفيان خرج في جماعة من قريش يريدون العراق بتجارة ، فلما ساروا ثلاثاً جمعهم أبو سفيان فقال لهم « إنا من مسيرنا هذا لعلى خطر ، ما قدومنا على ملك جبار لم يأذن لنا في القدوم عليه ، وليست بلاده لنا بمتجر ؟ ولكن أيكم يذهب بالعير فإن أصيب فنحن براء من دمه وإن غنم فله نصف الربح ؟ »

فقال غيلان بن سلمة : « دعوني إذن فأنا لها » فدخل الوادي فجعل يطوفه ويضرب فروع الشجر ويقول

ولو رآني أبو غيلان إذ حسرت عني الأمور إلى أمر له طبق
لقال رعب ورهب يجمعان معاً حب الحياة وهول النفس والشفق

إما بقيتَ على مجد ومكرمة   أو أسوة لك فيمن يهلك الورِق

ثم خرج في العير ، وكان أبيض طويلاً جعداً ضخماً فلما قدم بلاد كسرى تخلّق ولبس ثوبين أَصفرين وشهر أمره وجلس بباب كسرى حتى أذن له ، فدخل عليه فخرج إليه الترجمان وقال له « يقول لك الملك : ما أَدخلك بلادي بغير إذني ؟» فقال : « قل له : لست من أهل عداوة لك ، ولا أَتيتك جاسوساً لضد من أضدادك ، إنما جئت بتجارة تستمتع بها ، فإن أَردتها فهي لك وإن لم تردها وأذنت لي بذلك رددتها .» فتكلم كسرى فلما سمع صوته غيلان سجد . فقال الترجمان « يقول لك الملك لم سجدت ؟ » فقال « سمعت صوتاً عالياً حيث لا ينبغي لأحد أن يعلو صوته إجلالاً للملك ، فعلمت أنه لم يقدم على رفع الصوت هناك غير الملك فسجدت إعظاماً له .» فاستحسن كسرى ما فعل وأمر له بمرفقة توضع تحته ، فلما أُتي بها رأَى عليها صورة الملك فوضعها على رأسه ، فاستجهله كسرى واستحمقه وقال للترجمان : « قل له إنما بعثنا بهذه لتجلس عليها .» قال « قد علمت ، ولكني لما أتيت بها رأَيت عليها صورة الملك ، فلم يكن حق صورته على مثلي أَن يجلس عليها ، ولكن كان حقها التعظيم ، فوضعتها على رأسي لأنه أَشرف أَعضائي وأكرمها عليَّ »

فاستحسن فعله جداً ثم قال له : « ألك ولد ؟ » قال : « نعم » قال « فأيهم أحب إليك ؟ » قال « الصغير حتى يكبر والمريض حتى يبرأ والغائب حتى يؤوب » فقال كسرى « زه ما أدخلك عليَّ ودلك على هذا القول والفعل إلا حظك ، فهذا فعل الحكماء وكلامهم ، وأنت من قوم جفاة لا حكمة فيهم ، فما غذاؤك ؟ » قال : « خبز البُر » قال « هذا العقل من البُرّ لا من اللبن والتمر . » ثم اشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها وكساه [وبعث معه من الفرس من بنى له أُطماً بالطائف فكان أول أطم بني بها [1]] فهذا نمط مما بلغ إليه القوم .

مكانة قريش من العرب وقيامها على الدين كافها مغارم كانت تؤديها عن طيب نفس ، ويتعاون أفراد هذا الحي على الإنفاق في كل ما يعود على مكة والبيت وأهله بالفخر والتكرمة ولنا على ذلك دليلان مشهوران هما خير ما يمثل لنا تضامن هذا الحي في المكارم ، وما يتكلف من بذل وخدمة

---

(١) انظر الأغاني ١٢ ٤٦ ولغيلان هذا شأن في العرب ، فالمرزوقي [٢ : ٢٧٤] عده من حكام قيس وذكر أن له ثلاثة أيام : يوم ينشد الناس بشعره ويوم يحكم بين الناس ويوم يقعد للناس فيه فيُزار وينظَر إلى سرره وجماله . فلا تعجب بعد هذا إن حدثتك نفسك بتزيد أضيف إلى أخباره

في سبيل تقوية منزلته من نفوس العرب وفي سبيل تعظيم حرمة البيت وأهله وحفظ قدسيته في قلوب القبائل كافة

أما الأول فالرفادة التي كانت من مناقب قريش خاصة ، مما تفاخر به أحياء العرب قاطبة وهي ـ كما ذكرنا في موضع آخر ـ شيء تترافد به قريش في الجاهلية تخرج فيما بينها مالاً تشترى به للحاج طعاماً وزبيباً ٠» ولعل في هذا الأمر شيئاً وراء إكرام حجاج البيت الحرام ، ومـا إلى ذلك من أمور تتصل بشعائر وعقائد تمت إلى الدين ، وهذا الشيء هو إغراء العرب بحج تلك الأسواق التجارية والإقبال عليها حتى تغص بالبائعين والشارين ، فتأمن قريش على أرباحها وتكفل من ذلك رواج تجاراتها التي هي قوام أمورها في الحياة ٠ فالغرض الحقيقي ـ فيما يبدو لي ـ تجاري أكثر منه دينياً ولا يفسر ذلك أحسن تفسير إلا الحوادث التي رافقت البعثة ، وما لاقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أول أمره من الألاقي والأذى وما كانت قريش ـ وهي مـا هي حصافة عقول ـ لتعمى عن نور الإسلام لو لا أنهـا خافت على زعامتها التجارية والدينية أن يدركها الإسلام ويذهب ريحها ، وهي إنما تسلطت على نفوس العرب السذج بتلك الخرافات التي جعلت من أصنام الكعبة آلهة مقدسة لفّق حولها أباطيل وقصص اتخذت

مع الزمن شكل العقائد ، وجعلت من قريش قُوّاماً على هـذا الدين الذي دانته العرب في الجاهلية

وأما الأمر الثاني فما كانت تتشارك فيه من كسوة الكعبة جاء في (أَخبار مكة للأَزرقي ص ١٧٤)

« إن الكعبة كانت تكسى في الجاهلية كسىً شتى ، كانت البدنة تُجلّل الحبرة والبرود والأَكسية ، وغير ذلك من عصب اليمن ، وكان هذا يهدى للكعبة سوى جلال البدن ، هـدايا من كسىً شتى خزٍّ وحبرة وأَنماط تعلق فتكسى فيه الكعبة ويجعل ما بقي في خزانة الكعبة فإذا بلي منهـا شيءٌ أخلف عليها مكانه ثوب آخر ، ولا ينزع مما عليها شيءٌ من ذلك ، وكان يهدى إليها خلوق ومِجمر ، وكانت تُطيّب بذلك في بطنها ومن خارجها »

ويظهر أن الحرص على شرف هـذه الكسوة كان بالغاً ، وكان مما تباهي به قريش سائر العرب حتى كان في الأفراد من اشرأب للاستئثار بهذه المكرمة وحده بلا شريك ، ففي ص١٧٥ من الكتاب المذكور

كانت قريش في الجاهلية ترافد في كسوة الكعبة فيضربون ذلك على القبائل بقدر احتمالها من عهد قصي بن كلاب حتى نشأ

أبو ربيعة بن المغيرة بن عمرو بن عبد الله بن مخزوم ، وكان يختلف إلى اليمن يتجر بها ، فأثرى في المال فقال لقريش

« أنا أكسو وحدي الكعبة سنة ، وجميع قريش سنة . »

فكان يفعل ذلك حتى مات يأتي بالحبرة الجيدة من الجَنَد فيكسوها الكعبة فسمته قريش العَدْل ، لأنه عدل فعله بفعل قريش كلها ، فسموه إلى اليوم العدل ويقال لولده بنو العدل . »

لم تنج قريش من ألسنة العرب ، ولم تخل ممن نفس عليها مكانها أو حقد عليها استئثارها بالغنى من أفناء العرب الذين يقدمون مكة فيعانون من تجارها عنتاً وإرهاقاً ، عدا ما يسامون من الهزء أحياناً ، ومن أداء الربا المضاعف لهؤلاء وكان اشتغال التجار بتجارتهم وانكبابهم على شؤونها قد صرفهم بعض الصرف عن معالجة شؤون الحرب كما يعالجها أمثالهم من غير التجار ولاحظ ابن سلام أن الذي قلل شعر قريش عدم اشتغالها بالحروب « فلم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عُمان وأهل الطائف[1] . » وعمان والطائف أيضاً بلدان تجاريان ولما أرادت أن تباهي الأنصار ولم يكن لها أيام ولا أشعار جعلت « تزيد في أشعارها[2] » . عرف بعض العرب ذلك من أمرها والبدو يحقرون التجارة بطبعهم ككل الأمم التي تعيش من الغزو

(١) طبقات الشعراء ص ١٠٢ (٢) ص ٩٨ المصدر نفسه .

والسلب فصاروا يعيّرونهم بها ، وطارت لهم أشعار في ذلك ، منها ما يحقر التجارة نفسها ، ومنها ما يقصد إلى قريش مباشرة ، وانظر إن شئت قول القائل يريد مكة

ولا مرتع للعين أو متقنّص   ولكنّ تجْراً والتجارة تحقر

وقول ابن الزِبعري

ألهى قصياً عن المجد الأساطير

وقولها رحلت عير أتت عير

ومن هنا كانت استهانة بعض العرب بقريش وعدم الهيبة منها لانكبابها على التجارة وشغلها عن الحروب من دون سائر العرب ، عرف ذلك من أمرهم القاصي والداني ، جاء في تاريخ الطبري عند كلامه على فتوح سعد بن أبي وقاص قائد الجيوش الإسلامية في العراق ما يأتي

« سأل النعمان بن قبيصة الطائي ، وكان على مرابطة كسرى عن سعد بن أبي وقاص فقيل له : « رجل من قريش » فقال « أما إذ كان قرشياً فليس بشيء ، والله لأجاهدنه القتال ، إنما قريش عبيد من غلب ، والله ما يمنعون خفيراً ولا يخرجون من بلادهم إلا بخفير[1] إلا أنه لما عانى من شدة بأسهم ما عاناه علم

(١) تاريخ الطبري ١ ٢٣٥٠

أَن في جلود أُولئك التجار مغاوير حرب ومذاويد حق .[١]

كان لهؤلاء القرشيين معارف في بلدان الشام واليمن وفارس وكانت قريش تنظم وفوداً تفد على ملوك النواحي ، ونحن نعلم أن عمرو بن العاص كان يعرف مصر وغزة والشام تمام المعرفة ويعزى نجاحه في فتح مصر إلى إجادة معرفته بها ولما كان أمام غزة دخل على حاكمها بصفة موفد وعرفه الحاكم وأمر حاجبه سراً بقتله لولا أن نبهه عربي نصراني كان يعرف عمراً في الجاهلية حين كان يتاجر والقصة مشهورة وعرف من القرشيين تجار كبار ذوو أسفار بعيدة كثيرة ، فأبو سفيان كان « تاجراً يجهز التجار بماله وأموال قريش إلى أرض العجم[٢] » ولعل أول عير طرقت بلاد فارس العير التي كان هو صاحبها ، والتي دخل بها غيلان مخاطراً كما تقدم ثم كانت له عودات إلى فارس ودخل وافداً مرة على كسرى وأهدى إليه « خيلاً وأدماً فقبل الخيل ورد الأدم »

---

(١) [ليس غريباً أن يحقر بعض العرب حينذاك التجارة ، وإنما الغريب أن تستمر هذه النغمة في النفوس حتى القرن الرابع الهجري وقد تبدلت الأرض غير الأرض فيقول شاعر مثل المتنبي

ولا من في جنازتها تجار يكون وداعها نفض النعال]

(٢) الاغاني ٦ : ٣٤٣ طبع دار الكتب

قال أبو سفيان « أدخلت على كسرى فكأن وجهه وجهان من عظمه فألقى إلي مخدة كانت عنده فقلت واجوعاه ! هـذه حظي من كسرى بن هرمز ؟ فخرجت من عنده فما أُمر علي أَحد من حشمه إلا أعطانيها حتى دفعتها إلى خازن له فأَخذها وأعطاني ثمانمائة إناء من فضة وذهب[١] . »

وكان يخرج إلى اليمن أيضاً ويتصل بطبقات أهلها وأَحبار يهودها كما يتصل غيره فيعلمون من الأخبار والسياسة ما لا يعلمه غيرهم واقرأ في الأغاني كيف يشرح لك الحرب بين هرقل وفارس وكيف انتصر هرقل وكيف خرج من حمص ليصلي ببيت المقدس شكراً لله وهو حديث طويل مستوفى في كتب السيرة هو والحوار الذي دار بين هرقل وأبي سفيان في شأن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا بأس في أن أنقل هنا أول هذا الحديث لعلاقته بموضوعنا قال أبو سفيان

« كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا . فلما كانت الهدنة [هدنة الحديبية] بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرجت في نفر من قريش إلى الشام ، وكان وجه متجرنا منه

(١) العقد الفريد ١ : ١٧٤

غزة ؛ فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من الفرس ... الخ[١] »

واقرأ أيضاً ما كان بينه وبين العباس وحبر من أحبار اليهود في متجرهم باليمن (أغاني ٦ : ٣٤٩) فستعرف من كل ذلك أن هؤلاء التجار كانوا على اتصال بما كان يجري في زمنهم من أحداث سياسية ، شديدو الاهتمام بذلك لما يعود على علائقهم بالبلدان وعلى تجاراتهم . وكانوا ينقلون إلى بلادهم بعض ما يجدون في متاجرهم الخارجية من طرف وغرائب . ولعلهم استفادوا من بعض الأنظمة الاجتماعية التي وجدوا عليها الروم أو فارس . بل ما يدرينا أن دار الندوة نفسها اقتباس مغير مصغر ، عن مجامع الروم الدينية والمدنية فقد كانت مجلساً منظماً « لتشاور قريش وعقد الألوية في حروبهم . ولا ينكح رجل من قريش إلا فيها ولا يعقد لواء الحرب لهم ولا لغيرهم إلا فيها ، ولا يعذر غلام إلا فيها[٢] ولا تدرّع جارية من قريش إلا فيها يشق عليها درعها ثم تدرع وينطلق بها إلى أهلها ولا تخرج عير من قريش إلا منها ولا يقدمون إلا نزلوا فيها . » وهذا عبد الله بن جدعان أتى

---

(١) الأغاني ٦ : ٣٤٥ [دار الكتب]

(٢) مدنية العرب في الجاهلية والاسلام ــ محمد رشدي : ص ٥٨ ويعذر غلام : يختن .

العرب بطعام لا عهد لهم به: وفد على كسرى فأطعمه الفالوذج فسأل عن صنعه وحمل معه غلاماً يحسن له عمله، فصار يطعم أهل مكة منه وهو من سراة مكة وأجوادهم وأحد أغنيائهم الكبار و «وضع الموائد بالأبطح إلى باب المسجد ثم نادى مناديه: ألا من أراد الفالوذج فليحضر، فحضر الناس[1]» وقال فيه أمية بن أبي الصلت يصف طعامه هذا

له داع بمكة مشمعلّ وآخر فوق دارته ينادي
إلى رُدُح من الشيزى ملاء لُباب البُر يلبك بالشهاد[2]

---

(١)، (٢) الاغاني ٨ : ٣٣٠ اشمعلّ القوم في الطلب إذا بادروا فيه وتفرقوا ورُدُح جمع رداح وهي الجفنة العظيمة. والشيزى خشب أسود تتخذ منه القصاع

جاء في الأمالي ٣ : ٣٨ : قال أمية بن أبي الصلت: أتيت نجران فدخلت على عبد المدان بن الديان، فاذا به على سريره، وكأن وجهه قمر، وبنوه حوله كأنهم الكواكب، فدعا بالطعام فأتي بالفالوذج فأكلت طعاماً عجيباً ثم انصرفت وأنا أقول:

ولقد رأيت القائلين وفعلهم فرأيت أكرمهم بني الديان
ورأيت من عبد المدان خلائقاً فضل الأنام بهن عبد مدان
البرُ يلبك بالشهاد طعامه لا ما يعللنا بنو جدعان

فبلغ ذلك عبد الله بن جدعان، فوجه إلى اليمن من جاءه بمن يعمل الفالوذج بالعسل، فكان أول من أدخله مكة ففي ذلك يقول ابن أبي الصلت

«له داع ... البيتين»

ولعل الفالوذج الذي كان صنعه الغلام الفارسي بمكة لعبد الله بن جدعان لم يكن لذيذاً في معدة الشاعر أمية كما كان فالوذج نجران .

وممن كان يواصل أسفاره في التجارة أبو طالب والعباس عما النبي صلى الله عليه وسلم وقد أخرج أبو طالب ابن أخيه محمداً مرتين إلى الشام في تجارة مرة وهو فتى لا تتجاوز سنه الخامسة عشرة ومرة وهو شاب في سن الخامسة والعشرين

وقد تجر أبو بكر إلى الشام وتجر عمر إلى غزة وفيها استغنى في الجاهلية على ما قال ابن حوقل[١]، وقلّ أن تجد قرشياً ذا شأن في الجاهلية والإسلام إلا كان تاجراً واستفاض لهم غنى عريض وثروة واسعة حتى كثر منهم الأجواد وغزرت عطاياهم وقصدهم العفاة وأصحاب الحاجات وكان من ذلك ما نقرؤه من أخبار جودهم الكثيرة في العقد الفريد والأغاني وغيرهما من الأمهات.

ولم تكن النساء القرشيات لتقصر عن الرجال في هذا المدى بل كان منهن من اتسعت ثروتها من التجارة حتى فاقت كثيراً من الرجال ولعل السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين خير مثال نقدمه على ذلك فقد كانت من أكبر تجار قريش وأكثرهم مالاً وأوفرهم غنى، وكانت في حسب ومقام رفيع في قومها، مع مزايا في أخلاقها طيبة كانت تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم ترسل بأموالها إلى الشام وإلى

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ص ١١٣ طبع ليدن .

عكاظ وحباشة وغيرهما من أسواق العرب وكثيراً ما كانت ترجع هذه الأموال بربح وافر. وذكروا أن عير خديجة كعامة عير قريش[١] . ولما بلغها عن محمد بن عبد الله ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه عرضت عليه أن يخرج إلى الشام ، ولعل الحقيقة ما ذكره الزرقاني شارح المواهب من أن الرسول نفسه استشرف للسفر بمال خديجة فقد ذكر

[أن أبا طالب قال له « يابن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكرة وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ؛ وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون في مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك.» فقال محمد « لعلها ترسل إليّ في ذلك » فقال أبو طالب « إني أخاف أن تولي غيرك.»]

وبلغ خديجة ما كان من محاورتهما فقالت لمن بلغها : « ما علمت أنه يريد هذا » ثم أرسلت إليه وقالت له « دعاني إلى البعثة إليك ما يبلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك،

(١) شرح المواهب ١ : ١٩٨

وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك . » فذكر ذلك لعمه فقال : « إن هذا لرزق ساقه الله إليك » وكان عمره صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة خمساً وعشرين سنة

كانت قريش تنظم كل سنة عيراً بتجارة إلى الشام ، وكانت هذه القوافل تزيد شأناً عاماً فعاماً

ولما بلغ أذى قريش من المسلمين ما بلغ ، حتى اضطر هؤلاء إلى الهجرة إلى الحبشة ، ثم الهجرة الكبرى إلى المدينة ، واعتز المسلمون وقووا كان أول أمر ينتصفون به لأنفسهم ، ويحملون أعداءهم من قريش بسببه على الكف من كيدهم وأذاهم لمن في بلدهم من ضعفة المسلمين ، هو التعرض لتجارتهم ، لعلمهم أن ذلك أبعث على الرعب وأبلغ في النكاية بهم ، فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم سرية عليها عبد الله بن جحش أمير ، لتتعرض لعير قريش ، وكانت راجعة من الشام فترصدوها بموضع بين مكة والطائف يعرف بنخلة ، وكان في العير العلاء بن الحضرمي ، فلما مرت بهم حملوا على من فيها واحتجزوا الأموال وكانت زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش فقتل من حامية القافلة من قتل ، وأسر من أسر وقوى الله المسلمين بما غنموا من

عدوهم الذي أخرجهم من ديارهم وأبنائهم ، وبلغ الخبر قريشاً فكانت الأذية منهم بالغة

وكان السبب في استدراج المسلمين قريشاً إلى المعركة الحاسمة بين الإسلام والشرك في بدر الكبرى تجارياً أيضاً فإن قريشاً أقبلت لها عير من الشام عليها أبو سفيان في ثلاثين راكباً ، وكان فيها معظم أموالهم ، قدّرها المؤرخون بخمسين ألف دينار ، وقالوا : « لم يبق قرشي ولا قرشية له مثقال إلا بعث به في العير وبلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبرها فتجهز ليتعرض لها ، ولكن أبا سفيان أخذ على الساحل فنجا بها بعد أن أرسل إليهم نذيراً ضمضم ابن عمرو الغفاري يستنفرهم إلى العير فجدع هذا أنف بعيره وحوّل رحله وشق قميصه من قُبُل ومن دُبُر وصرخ في أهل مكة إن محمداً مع أصحابه قد عرض لعير قريش ، يا معشر قريش ! اللطيمة اللطيمة ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، ما أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث ...

فنهضوا وقالوا « أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي ، كلا والله ، ليعلمن غير ذلك . » وخرجوا ألفا بين فارس وراجل ، كل من قدر على النهوض نهض ومن لم يستطع أرسل بماله وسلاحه من يقوم مقامه . وكان كل ذي خطر إما في

العير مع أبي سفيان ، وإما في النفير إلى بدر ، وصاروا بعد ذلك إذا استصغروا أحداً قالوا « لا في العير ولا في النفير » فأرسلوها مثلاً في الناس

ثم نجت العير ، والتقى الجمعان في بدر الكبرى وكان من أمرهم ما يعلم الجميع

وليس يصور لنا ذلك الغنى المستفيض إلا الأخبار التي أثرت عن كبار القرشيين في الجاهلية والإسلام ، ولا بأس في ذكر عبد الله بن جدعان مثلاً في ذلك

فقد تقدم أنه كان يبسط الموائد في مكة يطعم الناس الفالوذ وله جفنة عظيمة يأكل منها الفارس على فرسه ، وفي الحديث : « كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكة عُمَيّ[1] » ورويت له أخبار أشبه بما يروى عن الملوك فقد كان يتخذ القيان يغنينه ثم يهبهن لمادحه ، وكان يقضي عن الناس ديونهم ، وله شاعر هو أمية بن أبي الصلت ، وكان يلقب بحاسي الذهب ، وما أجد حاجة إلى التنبيه على بطلان خرافة الكنز التي ذكروها ليبرروا وجود كل هذا الغنى عنده ، فليس من كسب له ولا لقومه سوى التجارة ، وما عرفنا أن رمال الجزيرة مما تبطن الكنوز .

(١) صكة عمي حين اشتداد الهاجرة

وأصحاب السير يقدمون لنا حساباً نستطيع أن نعتمد عليه هنا في معرفة أرباحهم التجارية لنقدر نحن بعد ذلك الأمد الذي للغوه في الثروة قالوا إن قريشاً لما رجعوا من هزيمة بدر إلى مكة ، وقد أصيب أصحاب القليب ورجع أبو سفيان بعيره (سالمة) مشى جماعة من أشراف قريش ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم وأبناؤهم يوم بدر فقالوا « يا معشر قريش إن محمداً وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه » يعنون عير أبي سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة ، والعير ـ كما تقدم من عادتهم ـ تنزل أول ما تنزل في دار الندوة حتى يتفق أصحابها على إخراجها للبيع ، فائتمر القرشيون وشركاؤهم أن ينفقوا ربح هذه العير على تجهيز جيش يحاربون به محمداً صلى الله عليه وسلم ، وكانت ألف بعير موقرة بما قيمته خمسون ألف دينار ، وكانوا يربحون بكل دينار ديناراً ـ على ما نقل الزرقاني ـ فيكون ما أنفق على هذا الجيش خمسين ألف دينار أو ـ على رواية المقل ـ خمسة وعشرين ألف دينار وهو على كل حال مبلغ ضخم جداً ، وكان عدد من استأجرهم أبو سفيان من الأحابيش فقط ألفين

وفي هذا الحادث نزل قول الله عز وجل « إِنَّ ٱلَّذِين كَفَرُوا

يُنفِقونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدّوا عَنْ سَبيلِ اللهِ ، فَسَيُنفِقونَها ثُمَّ تَكونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبون الآية » الأنفال، الآية ٣٦

وخليق بمن كانت أرباحهم بهـذا المقدار أن يثروا في المدة الوجيزة الثراء الكبير ونحن نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ من العباس الفداء يوم بدر فكان مقداره عشرين أوقية من ذهب ، وأن عثمان بن عفان وحده جهّز جيش العسرة (تبوك) ألف بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ولما كانت الفتوحات زاد غناه بما لا يقدر حتى إن ابن سعد صاحب الطبقات ليروي (٣ : ٥٣) أنه « كان له عند خازنه يوم قتل (٣٠٩٥٠٠٩٠٠٠) درهم و (١٥٠) ألف دينار فانتهبت وذهبت وترك ألف بعير بالربذة ، وترك صدقات كان تصدق بها ببراديس وخيبر ووادي القرى قيمة مائتي ألف دينار .»

وليس ما يروى في تقدير ثروة عبد الرحمن بن عوف بالقليل فقد ذكر ابن سعد[١] عنه أنه : « قدم المدينة فآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري ، فقال له سعد أخي أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالي فخذه ، وتحتي امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها لك . » فقال

---

(١) الطبقات ٣ : ٨٩

عبد الرحمن : « بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلوني على السوق ..» فاشتري وباع فربح فجاء بشيء من أقط وسمن ، ثم لبث ما شاء الله أن يلبث فجاء وعليه ردْع (لطخ وأثر طيب) من زعفران فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَهْيَم » فقال « يا رسول الله تزوجت امرأة » قال « فما أصدقتها ؟ » قال : « وزن نواة من ذهب . » قال : « أَولِمْ ولو بشاة » فقال عبد الرحمن : « فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً .» وحسبك هذا دليلاً على مهارتهم في الاتجار وخبرتهم بطرق الكسب أما تركته فكانت « ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومئة فرس ترعى بالبقيع وكان فيما ترك ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه وترك أربع نسوة ، فأُخرجت امرأة من ثُمنها بثمانين ألفاً[1] » وقد باع مرة أرضاً له بأربعين ألف دينار ، فتصدق بها كلها ، وتصدق مرة بسبعمائة جمل بأحمالها قدمت من الشام ، وأعان في سبيل الله بخمسمائة فرس عربية[2] » « وأوصى في السبيل بخمسين ألف دينار[3] » .

« وكان الزبير بن العوام كثير المتاجر والأموال قيل : كان

---

(١) ابن سعد ٩٦ والمَجْل أن يكون بين الجلد واللحم ماء من العمل

(٢) الذهبي (٣) ابن سعد ص ٩٦

له ألف مملوك يؤدون الخراج فربما تصدق بذلك في مجلسه ، وقد خلّف أملاكاً بيعت بنحو أربعين ألف ألف درهم [١]

« وأرسل سعد بن أبي وقاص إلى مروان بزكاة عين ماله خمسة آلاف درهم ، وترك يوم مات (٢٥٠٠٠٠) درهم [٢] » ومهما تسقط من هذه الأرقام مما تقدّر أنهم كسبوه من غنائم الحرب فسيبقى لك بعد ذلك مقادير وأموال طائلة

فهذا دون شك غنى واسع ، ودنيا عريضة ، وتوفيق عجيب أتيح لهؤلاء التجار ، وإن كلمة عبد الرحمن بن عوف « لو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً » لتشرح لك مدى التوفيق التجاري الذي أحرزوه بما أتقنوا من هذه المهنة ، وما تفننوا في أساليبها وطرقها

وأظن هـذا القدر كافياً في الدلالة على مبلغ اهتمام قريش بالتجارة حين جعلوها ديدنهم ومعاشهم وهِجّيراهم في مجـالسهم وأسمارهم ، الكبير منهم والصغير والرجل والمرأة سواء ، كلٌّ يساهم في العير بما يستطيع ، وله من الربح على قدر ماله كانوا يذهبون راحلين إلى اليمن أو إلى الشام أو إلى العراق ، كل

(١) الذهبي (٢) الطبقات ص ٩٦

أسرة ترسل من أفرادها من استطاع ، ولا يكادون يعرفون في العرب بعمل غير التجارة *

---

* [أضاف الزمن على تاريخ قريش هذا ثوبًا من التقديس لمكان النبوة منهم ، فكان كثير من علماء المسلمين ومتكلميهم يسبغون على قريش ألوانًا من الإجلال والتعظيم لما تكنه قلوبهم لنفر النبي صلى الله عليه وسلم ، وصرنا نسمع كثيراً من مثل قول الشاعر :

فأصبحوا قد أعاد الله نعمتهم إذ هم قريش وإذ ما مثلهم بشر

ومثل قول أبي تمام

تلكمْ قريش لم تكن آباؤها تهفو ولا أحلامها تنقسم

حتى إذا بعث النبي محمد فيهم غدت شحناؤهم تضرم

عزبت عقولهمُ وما من معشر إلا وهم منهم ألب وأحزم

ومن الخير للقارئ أن يطلع على هذه النظرة ليكون إلمامه محيطاً شاملاً ، وليرى فيما سندرجه له امتداداً لنظرة عرب الجاهلية إلى قريش النظرة الدينية التي أسهبنا في وصفها ، وإليك أقوالاً لرجال ثلاثة مختلفين ، تمثل في الجملة آراء الناس حتى القرن الرابع ، أما من بعدهم فتبع لهم في ذلك :

١ — قال العتبي : شهدت مجلس عمرو بن عتبة وفيه ناس من القرشيين فتشاجروا في مواريث وتجاحدوا ، فلما قاموا من عنده أقبل علينا فقال « إن لقريش درجًا تزلق عنها أقدام الرجال ، وأفعالاً تخضع لها رقاب الأموال ، وغايات تقصر عنها الجياد المنسوبة ، وألسنة تكل عنها الشفار المشحوذة ، ولو احتفلت الدنيا ما تزينت إلا بهم ، ولو كانت لهم ضاقت بسعة أخلاقهم . (العقد الفريد ٢ : ٢٠٨)

٢ — قال الجاحظ : قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها ،

وكيف عقولها ودهاؤها ، وكيف رأيها وذكاؤها ، وكيف سياستها وتدبيرها ، وكيف إيجازها وتحبيرها ، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم ، وحدة أذهانها اذا كلّ الحديد ، وكيف صبرها عند اللقاء ، وثباتها في اللأواء ، وكيف وفاؤها اذا استحسن الغدر ، وكيف جودها إذا حب المال ، وكيف ذكرها لأحاديث غد ، وقلة صدودها عن جهة القصد ، وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه ، وكيف وصفها له ، ودعاؤها إليه ، وكيف سماحة أخلاقها وصونها لأعراقها ، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم ، وطريفهم بتليدهم ، وكيف أشبه علانيتهم سرهم ، وقولهم فعلهم ، وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بعد غوره ، وهل غفلته إلا في وزن صدق ظنه ، وهل ظنه إلا كيقين غيره

بل قد علم الناس كيف جمالها وقوامها ، وكيف نماؤها وبهاؤها ، وكيف سرْوُها ونجابتها ، وكيف بيانها وجهارتها ، وكيف تفكيرها وبداهتها

فالعرب كالبدن وقريش روحها ، وقريش روح وبنو هاشم سرها ولبّها ، وموضع غاية الدين والدنيا منها ، وهاشم ملح الأرض وزينة الدنيا ، وحي العالم ، والسنام الأضخم والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم وينبوع العلم ، وثهلان ذو الهضاب في الحلم ، والسيف الحسام في العزم ، مع الأناة والحزم ، والصفح بعد المقدرة . وهم الأنف المقدم والسنام الأكرم ، وكالماء الذي لا ينجسه شيء ، وكالشمس التي لا تخفى بكل مكان ، وكالذهب لا يعرف بالنقصان ، وكالنجم للحيران ، والبارد للظمآن ، ومنهم الثقلان والأطيبان والسبطان ، وأسد الله ، وذو الجناحين ، وذو قرنيها ، وسيد الوادي ، وساقي الحجيج ، وحليم البطحاء ، والبحر والحبر ، والأنصار أنصارهم ، والمهاجر من هاجر إليهم أو معهم ، والصديق من صدقهم

والفاروق من فرّق بين الحق والباطل ، والحواريّ حواريهم ، وذو الشهادتين لأنه شهد لهم ، ولا خير إلا لهم أو فيهم أو معهم أو يضاف إليهم وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسول رب العالمين ، وإمام الأولين والآخرين ، ونجيب المرسلين ، وخاتم النبيين ، الذي لم يتم لنبي نبوة إلا بعد التصديق به ، والبشارة بمجيئه ، الذي عم برسالته ما بين الخافقين ، وأظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون .» زهر الآداب ١ : ٩٤ .

وقال أيضاً : « وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه ، وصفيه من عباده ، والمؤتمن على وحيه من أهل بيت التجارة ، وهي معولهم وعليها معتمدهم ، وهي صناعة سلفهم وسيرة خلفهم ، ولقد بلغتك بسالتهم ووصفت لك جلادتهم ، ونعتت لك أحلامهم ، وتقدّر لك سخاؤهم وضيافتهم ، وبذلهم ومواساتهم .. » رسائل الجاحظ ، الرسالة السادسة في مدح التجار وذم عمل السلطان

٣ — قال الثعالبي بعدّد مناقب قريش أهل الله : « ومنها ثبات جودهم وجزالة عطاياهم ، واحتمالهم المؤن الغلاظ في أموالهم المكتسبة من التجارة ، ومعلوم أن البخل والنظر في الطفيف مقرون بالتجارة التي هي صناعتهم ، والتجار هم أصحاب التربيح والتكسب والتدنيق ، وكان في اتصال جودهم العالي على الأجواد ، من قوم لا كسب لهم إلا من التجارة عجب من العجب ، وأعجب من ذلك أنهم من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشدد في الدين ، فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال ، فلما زهدوا في المغصوب لم يبق مكسبة سوى التجارة ، فضربوا في البلاد إلى قيصر بالروم والنجاشي بالحبشة ، والمقوقس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء ، فكانوا مع طول ترك الغزو إذا غزوا كالأسود على براثنها ، مع الرأي الأصيل ، والبصيرة الناقدة » ثمار القلوب للثعالبي ص ٩

ب- ايلاف قريش

« لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ »

إيلاف قريش، [وإذا شئنا التعبير بلغة عصرنا قلنا المعاهدات التجارية] مستفيض الشهرة في كتب السير والتاريخ والأدب وقد أخبر به القرآن الكريم . وهو أبرز حادث في تاريخ العرب التجاري قبل الإسلام .

وفي تحديد معنى الإيلاف مذاهب ، منها

١- أنه الدأب ، فسره بذلك ابن سعد صاحب الطبقات ومنها

٢- أنه ربح مخصوص جعله هاشم لرؤساء القبائل فيحمل لهم متاعاً مع متاعه ويسوق إليهم إبلاً مع إبله ، ليكفيهم مؤونة الأسفار ويكفي قريشاً الأعداء [1] . ومنها :

---

(١) ثمار القلوب ص ٨٩

٣— أَنه العهد وشبه الإجازة والخفارة قاله صاحب القاموس.

ومن التفصيل الذي سنسوقه لك تعرف أُن المعاني الثـلاثة تجتمع في الإيلاف معاً

ذكر الثعالبي أن قريشاً «كانت لا تتاجر إلا مع من ورد عليها مكة في المواسم وبذي المجاز وسوق عـكاظ في الأشهر الحرم، لا تبرح دارها ولا تجاوز حرمهـا، للتحمس في دينهم والحب لحرمهم والإلف لبيتهم، ولقيامهم لجميع من دخل مـكة بما يصلحهم. وكانوا بوادٍ غير ذي زرع كما حكى الله عن إبراهيم حين قال:

«رَبِّ إِنّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ[١].» إبراهيم، الآية: ٣٧

فـكان أول من خرج إلى الشام ووفد إلى الملوك، وأبعد في السفر، ومرّ بالأعداء وأخذ منهم الإيلاف الذي ذكره الله، هاشم بن عبد مناف وكانت له رحلتان رحلة في الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو اليـكسوم مـن أَرض الحبشة، ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم

وأبى رواة الأَخبار إلا أن يجعلوا لهاتين الرحلتين بدءاً يـكون لهما كالسبب والعلة فرووا عن ابن عباس

---

(١) ثمار القلوب ص ٨٩

« أَن السبب في هاتين الرحلتين هو أَن قريشاً إِذا أصاب واحداً منهم مخمصة ، خرج هو وعياله إلى موضع ، وضربوا على أَنفسهم خباءً حتى يموتوا ؛ إلى أَن جاء هاشم بن عبد مناف وكان سيد قومه وكان له ابن يقال له أسد ، وكان له تِرْب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه ، فشكا إليه الضر والمجاعة فدخل أسد على أُمه يبكي ، فأرسلت إلى أولئك بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياماً . ثم أَتى ترب أسد مرة أخرى وشكا إليه الجوع فقام هاشم خطيباً في قريش فقال

« إنكم أجدبتم جدباً تقلون فيه وتذلون وأنتم أهل حرم الله وأشراف ولد آدم ، والناس لكم تبع » قالوا « نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف »

فجمع هاشم كل بني أب على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام للتجارات ، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم فجاء الإسلام وهم على ذلك ، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش وهذا معنى قول شاعرهم فيهم

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافي[1] »

---

(١) بلوغ الأرب ٣ : ٣٦٨ ، والكافي الغني .

وكان هاشم يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل ورؤساء العشائر لخصلتين : « إحداهما أن ذؤبان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الغارات وطلاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم ، والخصلة الأخرى أن أناساً من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً كبني طيئ وخثعم وقضاعة . وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له فكان الإيلاف صلاحاً للفريقين إذ كان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً فأخصبت قريش وأتاها خير الشام واليمن والحبشة وحسنت حالها وطاب عيشها »

وقول الله « أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » يعني الضيق الذي كان فيه أهل مكة قبل أن يأخذ هاشم لهم الإيلاف ، والخوف الذي كانوا عليه ممن يمرّون به من القبائل والأعداء وهم مغتربون ومعهم الأموال وهو قوله عز ذكره « تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ » يعني في تلك الأسفار ولم يرد ذلك وهم مقيمون في حرمهم وأمنهم . لأن الله يقول « وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً » مع قوله : « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً » وقوله « أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ »

وقد عم مطرود الخزاعي بني عبد مناف بذكر الإيلاف لأن جميعهم قد فعل ذلك فقال:

يا أيها الرجل المحوّل رحله هلا حللت بآل عبد مناف
المنعمين إذا النجوم تغيرت والظاعنين لرحلة الإيلاف (١)
سفرين سنهما له ولقومه سفرَ الشتاء وسفرة الأصياف

وفي اختصاص قريش بالإيلاف دون غيرهم من العرب قال الشاعر وهو يردّ على بني أسد ما يدعونه من قرابة قريش

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلفٌ وليس لكم إلاف
أولئك أومنوا خوفاً وجوعاً وقد جاعت بنو أسد وخافوا. اهـ»

وهناك قول بتفسير الإيلاف غير صحيح جاء في شرح ابن أبي الحديد وهو قوله «إن هاشماً جعل على رؤساء القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها مكة» والأمر على العكس فالمستفيد من الإيلاف مادةً هم رؤساء القبائل، ومكة لم يؤثر أن اعتدى على حرمتها أحد من العرب فبلغ منها.

وقد آن أن نذكر الإيلافات أو المعاهدات التجارية التي عقدها هاشم وإخوته المطلب وعبد شمس ونوفل مع العرب والروم والحبشة وفارس فأخرجوا بذلك تجارة قريش من طابعها المحلي

---

(١) لهذا البيت روايات، والتي هنا من سيرة ابن هشام

وأفقها المحصور إلى الآفاق الأجنبية فصارت لقريش العلائق الخارجية مع الدول المعروفة حينئذ وأثرت هذه العلاقات في حالاتها الاجتماعية أثراً بعيداً نحن متعرضون له بعد قليل

ومتى عرفنا ما أسدى أولاد عبد مناف لقريش ولعرب من أياد تبينّا مدى الصدق في قولة ابن عباس

« والله لقد علمت قريش أن أول من أخذ الإيلاف وأجاز لهم العير لهاشم ، والله ما شدت قريش رحْلاً ولا حبلاً بسفر ولا أناخت بعيراً لحضر إلا بهاشم »

ونحن فيما سنعرض عليك من حديث ، عيال على القالي الذي انفرد دون غيره من أصحاب الأمهات بتفصيل تلك الأحلاف[1] ولا بد من تنبيهك إلى أن العرب كثيراً ما تسمي عامل الشام قيصر وهو المراد في حديث القالي ، ولعل عامل أنقرة هو المراد أيضاً من قيصر أنقرة فيما روى ابن سعد في طبقاته إذ قال

« كان اسم هاشم عمراً وكان صاحب إيلاف قريش وإيلاف قريش دأب قريش وكان أول من سن الرحلتين لقريش ، ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلى النجاشي فيكرمه ويحبوه ، ورحلته في الصيف إلى الشام إلى غزة وربما بلغ

(١) جمع حِلف

(أنقرة) فيــدخل على قيصر فيـكرمــه ويحبوه [1] . »

ولا ينبغي أن نستغرب ما نقرأ في رواية القــالي من اهتمام قيصر بهاشم فإن الروم كانوا يهتمون بمن ينزل أرضهم من العرب الغرباء وليس من المعقول أن يـكون أمرهم همــلاً فالغالب أن هناك موظفين وعيوناً من العرب أو ممن يعرفون العربية يوافون العامل بأخبــار الطرّاء والتجار الأجانب قال أبو علي القــالي « الأمالي ٣ : ١٩٩ » :

« كانت قريش تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو مـكة ، إنمــا تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونهــا بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فـكانوا كذلك حتى

ا — ركب هاشم بن عبد منــاف إلى الشام فنزل بقيصر ، فـكان يذبح كل يوم شاة ويصنع جفنة ثريد ويجمع من حوله فيأكلون وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم ، فذكر ذلك لقيصر فقيل له « هاهنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويفرغ عليه اللحم » وإنما كانت العجم تصب المرق في الصحاف ثم تأتدم بالخبز فدعا به قيصر ، فلما رآه وكلمه أعجب به ، فـكان يبعث إليه في كل يوم فيدخل عليه ويحادثه

(١) ١ : ٤٣

فلما رأى نفسه تمكن عنده قال له « أيها الملك ! إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت أن تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يُستَطرَف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو أرخص عليكم . » فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مر بحيّ من أحياء العرب أخذ من أشرافهم إيلافاً — والإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حِلْف ، وإنما هو أمان الطريق — على أن قريشاً تحمل إليهم بضائع فيكفونهم حُملانها ويؤدون إليهم رؤوس أموالهم وربحهم ، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة ، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم يجوّزهم ويوفّيهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب حتى أوردهم الشام وأحلهم قراها ومات في ذلك السفر بغزة

ب — وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن فأخذ من ملوكهم عهداً لمن تجر إليهم من قريش ، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم . وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف وكان يسمى الفَيْض وهلك بردْمان من اليمن

ج — وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة ، فأخذ

إيلافاً كفعل هاشم والمطلب وهلك عبد شمس بمكة فقبره بالحجون .

د — وخرج نوفل بن عبد مناف وكان أصغر ولد أبيه فأخذ عهداً من كسرى لتجار قريش وإيلافاً ممن مرّ به من العرب • ثم قدم مكة ورجع إلى العراق فمات بسلمان

واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية وكثرت أموالها • فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منةً في الجاهلية والاسلام . اه »

يمتاز هذا الخبر مما تقدمه بالدقة فقد عرفنا أن صاحب القاموس فسر الإيلاف بالعهد وما يتبادر إلى الذهن من ذلك حقوق متقابلة وحلف دائم فقصر الإيلاف هنا على أمان الطريق فقط • وخرجنا من رواية القالي بأربع معاهدات تجارية ، إلا أن الفكر ليستشرف لمعرفة نصوص هذه المعاهدات ويتوقع تفصيلاً أكثر أما الكتاب الذي أشار القالي إلى أن قيصر كتبه لهاشم فإنا لم نجد له ذكراً بعد موت هاشم ، فيما بين أيدينا من المصادر • وهو — إن صح وقوعه — من الخطر بمكان ، بل هو مما يجب أن يعض عليه بنو هاشم بالنواجذ ففيه لهم فخر كبير وهم الحريصون على قيد كل صغيرة وكبيرة مما يدخل في باب المفاخرة فمن العجيب سكوت الأخباريين عن ذكره في المناسبات التي كثيراً ما تعرض

يزيد ابن سعد في طبقاته ، فيذكر لنا شيئاً مما في عهد قيصر ، ويذكر أيضاً كتاباً آخر أرسله قيصر إلى النجاشي يوصيه بهم ولم يشر إلى شيء من مضمون هذا الكتاب قال (طبقات ١ : ٤٥) « كان هاشم رجلاً شريفاً وهو الذي أخذ الحلف لقريش من قيصر لأن تختلف آمنة وأما من على الطريق (يعني قبائل العرب) فألفهم على أن تحمل قريش بضائعهم ولا كراء على أهل الطريق فكتب له قيصر كتاباً وكتب إلى النجاشي أن يدخل قريشاً أرضه . »

وفي شرح نهج البلاغة (٣ : ٤٥٨) أن هاشماً سأل قيصر أن يأذن لقريش في القدوم عليه بالمتاجر وأن يكتب لهم كتب الأمان فيما بينهم وبينه ففعل . والغموض الذي في الرواية المتقدمة يكتنف هذه أيضاً فليس فيها صيغة هذا الأمان ولا شروطه .

ومهما يكن من شيء فإلى هؤلاء الإخوة الأربعة ، يرجع الفضل كله في تثمير تجارة قريش وبنائها على أسس قوية حتى اتسعت فصارت شبه دولية بعد أن كانت موضعية لا تعدو الأسواق القريبة من مكة فهم في الحقيقة أبطال قريش ورجالاتها في الاقتصاد وهم دعائمها التجارية التي قامت تلك الثروة العريضة بمساعيهم وكفاءتهم ، وليس بقليل أن نفتح أربع ممالك أسواقها

لقوافل قريش وتجاراتها وما أنا إلى الغلو إذا زعمت أن فضل هذه الأحلاف امتد حتى زمن الإسلام وأن المسلمين الأولين ما اختيرت لهم الحبشة مُهاجَراً إلا لاعتيادهم الرحلة إليها متاجرين وإلا لمعرفتهم بها وبأهلها لكثرة ارتيادهم إياها وحمدهم مقامهم فيها وحسن ما يلقون من معاملة طيبة ·

في الخبر بعـد ، إشارة إلى كرم هاشم وكثرة إنفاقه على إخوانه وأن أَفعاله نمّت على أَصله وسيادته وشرفه ، كما فيه تصريح بأسلوب الروم وأسلوب العرب في أكل اللحم والمرق وكيف عجب الروم من الثريد لأَنه طراز لم يألفوه

* * *

ذكروا أن اللام في قوله تعالى أول السورة : « لإِيلافِ قريشٍ » للتعجب فالمعنى اعجبوا لإيلاف قريش ، وآخرون علقوها ومجرورها بالفعل فقالوا إن المعنى فليعبدوا ربّ هـذا البيت لإيلافهم فجعلوا الفـاء في الفعل زائدة لتحسين اللفظ وتقوية المعنى كما في قوله تعالى « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » وجعـلوا « إيلاف » الثانية توكيداً للأُولى

وقد امتنّ الله عليهم بإيمان خوفهم من الغارات والحروب والقتال

وغير ذلك من الأمور التي يخافها كل عربي غيرهم حتى إن الرجل منهم ليصاب في حيّ من أحياء العرب فإذا قال حرمي (أي من أهل الحرم) أطلقوه وكفوا عن ماله إكراماً له

وقد أمَّن الله أهل مكة من خوف آخر هو جيش أبرهة أصحاب الفيل حين ردهم الله عن مكة والبيت بعد أن اعتصم أهلها بالشعاف والهضاب وأمنَّ عليهم حين أنقذهم من جوع السنين التي أصابهم قحطها من قبل فذكر ابن عباس وعكرمة [١] أن الله أمرهم في هذه السورة بالإقامة بمكة لعبادة رب هذا البيت إذ كفاهم مؤونة رحلتيهم بعد أن كانوا لا يكادون يرتاحون في صيف ولا شتاء

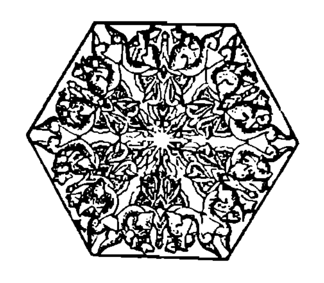
لخص صاحب القاموس ما تقدم حين عرض لتفسير الإيلاف فقال

« والإيلاف في التنزيل (العهد) وشبه الإجازة بالخفارة وأول من أخذها هاشم من ملك الشام ، وتأويله أنهم كانوا سكان الحرم ، آمنين في امتيارهم وتنقلاتهم شتاءً وصيفاً والناس يُتَخَطَّفون من حولهم ، فإذا عرض لهم عارض قالوا : « نحن أهل حرم الله » فلا يتعرض لهم أحد وكان هاشم يؤالف إلى الشام ،

---

(١) راجع أقوال المفسرين في ذلك ·

وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بحبالِ (عهود) هؤلاء الإخوة ، فلا يتعرض لهم وكان كل أَخ منهم أَخذ حبلاً من ملك ناحية سفره أماناً له »



ج- حلف الفضول

ما نظر القرشيون إلى حلف ولا عهد، نظرهم إلى حلف الفضول فهو يظفر منهم برعاية مقدسة وتبجيل وشرف قلما كان بعضه لأي حلف آخر

هو حلف تجاري بمقدماته ونتائجه، حفظ سمعة قريش وصان ازدهار أسواق مكة، وأسدل عليها ستاراً من الإنصاف والأمن وحماية الضعيف بعد أَن كاد الأمن فيها يتعرض للخطر وكادت حوادث الاعتداء عَلَى حقوق الضعفاء تزداد حتى أوشكت أَن تزعزع ثقة الأعراب وتجار النواحي بأَسواق مكة

ولم تنحصر ثمرته فيما سبق الإسلام بل استمرت فيه وازدادت به تأييداً وقوة ومنعة، أُثنى عليه صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم واعتز به، ولما هتف الهاتف به بعد نحو ثمانين سنة من عقده استجاب الناس له كأَن عهدهم به أمس، فكان جديداً لم تخلق جِدته تلك السنون الثمانون التي تمخضت عن أَعظم الحوادث

الكبار ظهور الشريعة الإسلامية ، وفتوح العرب وانقراض فارس وانكماش الروم أهاب الداعي بأصحابه (وقد مات أكثرهم) فهب أبناؤهم متحفزين لنصرته حتى خافت القوة الحاكمة وأذعن والي المدينة ، ورُد الحق إلى صاحبه . ولقد بلغ من شرفه واقتعاده تلك المكانة من نفوس الناس أن استشرف خليفة عظيم كعبد الملك بن مروان ليعده الناس ممن دخل فيه ، فلما لم يظفر بذلك ندّت منه حسرة غير خفية .

* * *

كان يهبط مكة من همل الأعراب وسُذَّاجهم ، وضعفاء المتكسبين وأرباب السلع ، أخلاط كثيرة ، وهم لا ناصر لهم يحميهم ولا منعة فيهم ، يؤمون أسواق مكة موقنين بأَن أَمن الحرم يسعهم جميعاً فلم يكونوا يتوقعون أن أحداً تحدثه نفسه بتكدير صفائه لكن الواقع انكشف عن أنه لم تكن مكة لتخلو من أناس بطرين ، يستهينون بالضعيف ولا يَعِفُّون عن هضمه وسلبه وكان يحدث حينئذ ما يحدث دائماً في كل زمان ، من استغلال السذاجة في هؤلاء الغرباء تارة بغبنهم في الثمن وتارة بمطلهم بالديون وآونة بغشهم وأخرى بالاستهتار بهم . وكانت تنتشر هذه الحوادث حتى تصل إلى أَسماع أُشراف مكة

فينكرونها في أنفسهم إلا أنها — في الظاهر — تعددت حتى لم يعد يصح السكوت عليها ، وحتى خشي على البلد أن يفشو له ذكر سيء فسعى الأشراف بعضهم إلى بعض وعقدوا الحلف وأكدوه ونصبوا أنفسهم لحمايته

أما السبب المباشر لعقد هذه الحلف فما ذكروا [1] من أن رجلاً من زبيد من أهل اليمن باع سلعة من العاصي بن وائل السهمي (وهو قرشي) فظلمه بالثمن فذكر ظلامته في شعر له وهو

يا آل فهر لمظلوم بضاعته   ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته   يا للرجال وبين الحِجْر والحَجَر
إن الحرام لمن تمت مكارمه   ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فتداعت لذلك قريش واجتمعت إليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسد بن عبد العزى فدخلوا دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه وتعاقدوا بالله : ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه . فلا يجدون بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته . اه

شهد هذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فتى فلما

---

(١) سيرة ابن هشام ١ : ١٢٥

أكرمه الله بالرسالة حمد أثره وكان به جدلاً مغتبطاً حتى رووا عنه قوله

« لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حِلْفاً ما أحب أنَ لي به حمر النَّعَم ؛ ولو أُدْعى به في الإسلام لأجبت . »

وكان هذا الحلف منْصرف قريش من حروب الفجار لعشرين سنة من عام الفيل فتكون سن رسول الله حينئذ عشرين سنة (١)

وذكروا في سبب تسميته حلف الفضول ، أنه أُشبه حلفاً وقع لثلاثة من جُرهم كل واحد منهم يقال له الفضل وأقرب من هذا المذهب إلى الواقع ما ذكره صاحب القاموس من أن سبب تسميته بذلك لأنهم تحالفوا أن لا يتركوا عند أحد فضلاً يظلمه أحداً إلا أخذوه له منه .

وهذا هو الصحيح لوضوحه وقربه ولأن ثمرة الحلف كله هي رد الفضول لأهلها

ومن يتدبر الأسباب التي تكلفها الرواة فجعلوها كمقدمات لعقده ويمحصها يجد أن الداعي الأول له حرص قريش على سمعة بلدهم التجارية أن تثلم بين العرب فتتزعزع ثقتهم بقريش وبلدهم وليس يظفر من كل تلك الأسباب المذكورة بالقبول إلا ما تقدم

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ١ : ٨٢

فإن الحوادث وحالة مكة وأمور قريش يومذاك تؤيده كل التأييد . ومن البعيد أن يعقد مثل هذا الحلف من أجل ظلامة الزبيدي هذا ، من غير أن تتكرر الحوادث المشابهة لها حتى تفاقم الأمر وألف رجال كثيرون إتيان المظالم

عظمت قريش أمر حلف الفضول واهتمت به كل الاهتمام ولم ينقطع أمره بالإسلام بل ظل مستمراً أقوى ما كان قط وحسبك قول النبي صلى الله عليه وسلم « ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت » ويحلو لي هنا أن أبين للقارئ امتداد هذا الحلف التجاري في حياة المسلمين وتمسكهم به فابن هشام يروي : أن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان كان والياً على المدينة ، ولاّه عليها عمه معاوية . وكان بين الوليد وبين الحسين بن علي منازعة في مال كان بينهما بذي المروة وكان الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه يومئذ فقال الحسين : « أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذنّ سيفي ، ثم لأقومَنَّ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأدعوَنّ بحلف الفضول . . » وكان عبد الله بن الزبير حاضراً مجلسهما هذا فغضب للحسين وقال يتهدد الوليد « وأنا أحلف بالله ، لئن دعا به لآخذَنَّ سيفي ثم لأقومنّ معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً »

وبلغ هذا الخبر المسوّر بن مخرمة بن نوفل فقال مثل ما قال ابن الزبير ، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله التيمي فقال مثل ذلك

فلما بلغ كل هذا الوليد بن عتبة خاف مغبتها وأنصف الحسين من حقه [١]

فأنت ترى كيف كان القوم سراعاً إلى تنفيذ هذا الحلف وكيف تهيؤوا لنصرته وللاستجابة لمن دعا به وهو أثر غير قليل وأي معاهدة تمضي فتبقى لها مثل هذه القوة بعد أكثر من سبعين سنة من عقدها !

بل لقد تحمس لها الصحابة أشد التحمس وكان اندفاعهم لصيانتها أقوى مما تقدم ، لقد تحفزوا للقيام بوجه خليفة ذي سلطان قاهر وكادت تكون فتنة لولا أن أذعن معاوية كما أذعن واليه عتبة ، ومن الخير أن أنقل لك صورة هذا الاندفاع لتتعرف مدى بلوغها من قلوب القوم جاء في شرح نهج البلاغة (٣ : ٤٦٤) ما يأتي

« كان بين الحسين ومعاوية كلام في أرض للحسين ، فقال له الحسين : اختر مني واحدة من ثلاث خصال إما أن تشتري

---

(١) انظر سيرة بن هشام ١ : ١٢٦

مني حقي وإمـا أَن ترده عليّ ، أَو تجعل بيني وبينك ابن عمر وابن الزبير حكماً ، وإلا فالرابعة وهي الصَّيْلَمَ (١) . قال معاوية : وما هي ؟ قال أهتف بحلف الفضول ... ثم قام فخرج وهو مغضب ، فمر بعبد الله بن الزبير فأَخبره فقال عبد الله : والله لئن هتفت به وأَنا مضطجع لأُقعدَنَّ ، أو قاعد لأَقومنّ ، أو قائم لأُمشينّ ، أَو ماش لأَسعينّ ، ثم لتنفذنّ روحي مع روحك أَو لينصفنك

فبلغت معاوية فقال لا حاجة لنا بالصَّيْلَمَ . ثم أَرسل إليه « أن ابعث فانتقد مالك فقد ابتعنا منك »

ومما لا شك فيه أَن موقف غير ابن الزبير لو استفحل الأمر سيكون مثل موقفه ومعاوية أَدهى من أَن يؤلِّب عليـه من لم ينفض يده بعد من تألفهم ، ومن لا تزال السيوف التي حاربوه بها على عواتقهم ، لمَّا ينقضِ على إغمادها كبير زمن وما هي بحاجة لتشهر إلى كبير أمر

وانظر هـذه الحسرة الخفية من يعسوب الأُمويين عبد الملك ابن مروان ، على أن أمية لم تدخل الحلف ، وتأمَّل كيف أَراد بصورة غير مباشرة أحدَ سراة بني نوفل ، على أَن يتملقه فيشهد

---

(١) الداهية والأمر العظيم

له بدخول أمية ونوفل فيها وكيف لم يستطع هذا إلا أن يجهر له بالحق لقرب العهد بأصحاب الفضول ولأن الذين يعرفونها ويعرفون عاقديها لم يموتوا بعد قال ابن هشام :

« كان محمد بن جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف من أعلم قريش ، فدخل على عبد الملك بن مروان حين قتل ابن الزبير ، واجتمع الناس على عبد الملك ، فلما دخل عليه قال له : « يا أبا سعيد ألم نكن نحن وأنتم (يعني بني عبد شمس ابن عبد مناف وبني نوفل بن عبد مناف) في حلف الفضول ؟ » قال محمد : « أنت أعلم ! » قال عبد الملك « لتخبرنّي يا أبا سعيد بالحق من ذلك » فقال « لا والله ، لقد خرجنا نحن وأنتم منه . » قال « صدقت . »

* * *

كانت قريش إذن ذات مشاكل تجارية فقامت لها هذه الحلف مقام المحاكم التجارية والقوة التنفيذية معاً فكان سلطانها مهيباً في النفوس ، وكانت خير وازع لمن تحدثه نفسه بظلم وإن تمتع بالسلطان ، وكانت أحسن ضامن لحقوق الضعفاء ممن عدموا المنعة والنصير .

د – حرب الفجار

أفردت هذا البحث وإن كان حقه أن يذكر في أحداث سوق عكاظ ، لخطره وبعد أثره ولأن هذا الفجار كان في حقيقته نزاعاً على النفوذ التجاري والأدبي ، بين قريش وأحلافها وبين هوازن القبيلة المعروفة بعددها وبطشها

وقعت هذه الحرب وكان بود قريش ألا تقع ، لميلها إلى السلم الضروري لتجارتها وكانت تجنح إلى السلم في كثير من أمورها وخاصة مع قبيلة هوازن التي لها القوة والمنعة حول عكاظ فإن قريشاً ترهب جانبها وتجتنب ما يعكر الصفو بينها وبين هوازن حرصاً على سلامة الموسم وعلى تجاراتها فيه يدلنا على ذلك أن عبد الله بن جدعان كان طرد مئة ناقة لكلاب بن ربيعة فأرسل كلاب إلى قريش « إن سفيهكم أغار علي وطرد لي مئة ناقة ، فليس لكم أن تشهدوا عكاظ ولي عليكم ترة » وكانت عكاظ في وسط أرض قيس بن عيلان . قال ابن جدعان « وإن قريشاً ائتمرت بقتلي ، لئلا أجني عليهم

الجرائر فيطلبون بسببي وهم تجار لا يستغنون عن بلد »[1]

وهذا صريح في إشفاق قريش من كل ما يعكر أمن تجارتها وقد أذعنت للتهديد حتى كادت تسلم أحد أفرادها ، وهو شيء لا تسمح به العرب أبداً حتى تفنى عن آخرها وبهذا عرفوا ، وما كانت قريش لتخرج على ذلك لولا الضرورة الملحة ولولا أنها تهدد موردها الوحيد وهو التجارة

أيام الفجار أربعة . وإنما نريد هنا الكلام على الفجار الآخر أي الرابع لأنه هو الذي أدى إلى الحروب ، وهو الذي كان سببه التزاحم على الكسب والتجارة أما بقية الأيام فسنمر بها عند الكلام على عكاظ

وقد سميت بالفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم وهي الشهور التي تعظمها العرب وتحرم فيها القتل والقتال فيما بينها . فلما خرج المتحاربون فيها علَى شريعة العرب كانوا فاجرين بذلك وأيامها خمسة تفرقت على أربع سنين وها نحن أولاء نأتي عليها بالتفصيل الممكن معتمدين فيه على الأغاني وبلوغ الأرب وعلى العقد الفريد خاصة

---

(١) الإكليل ٨ ١٨٤

سنها :

من الصعب تعيين سنة هذه الحروب لما ورد فيها من تضارب الروايات ، فقد أجمعت المصادر على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حضرها بنفسه ثم افترقت فرقتين فابن هشام ومن تابعه يجعلون سن الرسول لما حضرها أربع عشرة سنة ومنهم صاحب العقد الفريد الذي يروي في ذلك حديثاً هذا نصه « كنت أَنبل على أُعمامي يوم الفجار وأَنا ابن أربع عشرة سنة » وابن إسحق ومن تابعه — ومنهم صاحب القاموس والأصفهاني وابن سعد — جعل سنه حينئذٍ عشرين سنة . وهناك غموض آخر اشترك فيه الفريقان معاً وهو أن أيام الفجار الآخر تفرقت على أربع سنين ففي أيتهن كان عمره أربع عشرة أو عشرين ؟ وأنا لم أَهتد بعد إلى الحق الذي لا حق غيره في هذه الروايات ونبله صلى الله عليه وسلم على أَعمامه فسر بوجهين أما صاحب العقد الفريد فقال أَنبل بمعنى أُناولهم النبل وهو خلاف ما ذهب إليه ابن هشام في سيرته من أَن معناه أَنه كان يرد عنهم نبل عدوهم إلا أن تعدية الفعل بـ (على) ترجح التفسير الأول فقد جاء في القاموس : نبل عليه لقط له النبل . وروى الحديث (في مادة فجر) — وكذلك رواه ابن سعد — على

هذه الصيغة « كنت أَنبل على عمومتي يومِ الفجار ، ورميت فيه بأسهم ، وما أُحب أَني لم أَكن فعلت »

فإن يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حضر الأَيام جميعها وكانت سنه أَول ما هاجت خمس عشرة سنة — على إحدى روايتي ابن هشام — أمكن التوفيق بين الروايات على وجه التقريب فتكون الحرب قد وضعت أَوزارها وقد أَشرفت سنه على العشرين . فكان يلتقط السهام في أَولها ويرمي بنفسه في آخرها . فعلى الرواية الأُولى تكون الحرب قد وقعت قبل البعثة بخمسة وعشرين عاما وتوافق سنة (٥٨٥) للميلاد المسيحي

سبب الحرب

من عادة النعمان بن المنذر ملك الحيرة أَنه يرسل كل عام إلى سوق عكاظ لطيمة (وهي الجمال تحمل المسك والطيب) بجوار رجل شريف من أَشراف العرب ، يحميها له حتى تصل إلى السوق فتباع فيها ويشترى له بثمنها أَدَم من أَدم الطائف

ولا يقوم عادة بعبء حمايتها إلا رجل منيع ، لقومه عدد وعزة . وكان الذي يجيرها في الغالب سيد مضر [١]

فلما جهز النعمان اللطيمة لهذا العام (٥٨٥ م) قال « من

---

(١) الأغاني ١٩ ٧٥

يجيرها ؟ » وكان بحضرته أناس من أَشراف القبائل ، فانبرى له البرّاض بن قيس الضمري وكان فتاكاً يضرب بفتكه المثل فقال : « أَنا أَجيرها على بني كنانة » فقال النعمان « ما أُريد إِلا رجلاً يجيرها على أهل نجد وتهامة » فقام عروة الرحّال أَحد أَشراف هوازن وكبرائهم فقال

« أَكلب خليع يجيرها لك ؟ أَبيت اللعن ، أَنا أجيرها لك على أَهل الشيح والقيصوم » يريد عامة العرب فحقدها عليه البرّاض وقال « أَعلى بني كنانة تجيرها يا عروة ؟ » قال « نعم وعلى الناس كلهم » فحمي البراض إِذ عدها استهانة به واستخفافاً بقومه ، وأَضمرها في نفسه غدرة شنعاء

دفع النعمان اللطيمة إلى عروة فخرج بها فتبعه البرّاض وعروة يرى مكانه ولا يخشى منه شيئاً لأَنه منيع بين قومه من غطفان ، حتى إِذا بلغوا (فدك) نزل عروة في أَرض يقال لها « أُوارة » فشرب الخمر وغنّته قينة ثم قام فنام

اغتنم الفرصة البرّاض ، وانسل إِليه في خبائه ، فلما رآه عروة ناشده واعتذر إِليه وقال « كانت مني زلة » فلم يفد الاعتذار شيئاً ولم يخفف مما يضطرم في صدر البراض من الحقد ، فانقضّ عَلى عروة فقتله وخرج يرتجز ويقول

قد كانت الفعلة مني ضلَّة
هلاَّ على غيري جعلت الزلَّة
فسوف أعلو بالحسام القُلَّة

ثم أُنشد

وداهية يُهال الناس منها شددت لها بني بكر ضلوعي
هدمت بها بيوت بني كلاب وأُرضعت الموالي بالضروع
جمعت له يديّ بنصل سيف نخرّ يميد كالجذع الصريع [(١)]

واستاق اللطيمة إلى خيبر ، وبعث رسولاً مستعجلاً إلى حرب ابن أمية يخبره أنه قتل عروة فليحذر قيساً [(٢)] ، فتبعه رجلان من غطفان يريدان قتله ، فكان هو أول من لقيهما فعرف ما قصدا إليه فنوى التعجيل بهما ، فقال لهما : « من الرجلان ؟ » قالا « من غطفان وغني » قال البراض « ما شأن غطفان وغني بهذه البلدة ؟ » قالا : « ومن أنت ؟ » قال «من أهل خيبر» قالا : « ألك علم بالبراض ؟ » قال : « دخل علينا طريداً خليعا

(١) أرضعت الموالي بالضروع : ألحقت الموالي بمنزلتهم من اللؤم ورضاع الضروع وأظهرت فسالتهم ، وهذا كما يقال لئيم راضع أي يرضع اللؤم من ثدي أمه . والقلة من كل شيء : أعلاه .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام لزيدان ١ ٢٤١

فلم يؤوه أحد بخيبر ولا أدخله بيتاً .» قالا : « فأين يكون ؟ » قال « فهل لكما به طاقة إن دللتكما عليه ؟ » قالا « نعم » قال « فانزلا » فنزلا فعقلا راحلتيهما . قال البرّاض « فأيكما أجرأ عليه وأمضى مقدماً وأحد سيفاً ؟ » قال الغطفاني : « أنا » قال : « فانطلق أدلك عليه ويحفظ صاحبك راحلتيكما .» ففعل .

وانطلق البراض يمشي بين يدي الغطفاني حتى انتهى إلى خربة في جانب خيبر ، خارجة عن البيوت فقال البرّاض « هو في هذه الخربة وإليها يأوي فأنظرني حتى أنظر أَثَمَّ هو أم لا .» فوقف له الرجل ودخل البراض ثم خرج إليه وقال : « هو نائم في البيت الأقصى خلف هذا الجدار عن يمينك إذا دخلت . فهل عندك سيف فيه صرامة ؟ » قال « نعم » قال : « أرني سيفك أَنظر إليه أَصارم هو ؟ » فأعطاه إياه ، فهزه البرّاض ثم ضربه به فقتله . ووضع السيف خلف الباب

وأقبل على الغنوي فقال « ما وراءك ؟ » قال البرّاض « لم أَر أَجبن من صاحبك ، تركته قائماً في الباب الذي فيه الرجل — والرجل نائم — لا يتقدم إليه ولا يتأخر عنه .» قال الغنوي : « يا لهفاه ! لو كان أحد ينظر راحلتينا .» قال البرّاض « هما عليّ إن ذهبتا .» فانطلق الغنوي والبرّاض خلفه حتى إذا

جاوز الغنوي باب الخربة أخذ البرّاض السيف من خلف الباب ثم ضربه به حتى قتله وأخذ سلاحيهما وراحلتيهما ثم انطلق .

يوم نخلة

بلغ قريشاً خبر البرّاض وقتله عروة وفزعوا أن تعلم بذلك هوازن فتدهمهم و كانوا في عكاظ في الشهر الحرام فخلصوا نجياً (واتفق رأيهم أن يخاطبوا عامر بن مالك سيد قيس بذلك فأتوه وأخبروه فأجاز مالك بين الناس وأعلم قومه ما قيل له وأوشكوا ان يصطلحوا) لكن فريقاً منهم خافوا أن يكون قومهم بمكة في ضيق فانسلّوا من عكاظ وهوازن لا تشعر بهم وتوجهوا نحو مكة رجاء أن ينصروا إخوانهم إن كان حزَبهم أمر

وكان من عادة العرب إذا وفدت على عكاظ أن تدفع أسلحتها إلى عبد الله بن جدعان ، وكان هذا سيداً حكيماً مثرياً من المال ، فتبقى عنده أسلحة الناس حتى يفرغوا من أسواقهم وحجهم فيردها عليهم إذا ظعنوا . فلما كان من أمر البراض ما كان قال حرب بن أمية لابن جدعان : « احتبس قِبلك سلاح هوازن . » فقال عبد الله : « أبالغدر تأمرني يا حرب ؟ فوالله لو أعلم أنه لا يبقى فيها سيف إلا ضربت به ولا رمح إلا طعنت به ما أمسكت منها

شيئاً ولكن لكم مئة درع ومئة رمح ومئة سيف تستعينون بها » ثم صاح ابن جدعان في الناس : « من كان له قِبَلي سلاح فليأت وليأخذه » فأَخذ الناس أَسلحتهم

وبعث ابن جدعان وحرب بن أمية وهشام والوليد ابنا المغيرة إلى أبي براء سيد قيس « إنه قد كان بعد خروجنا حرب وقد خفنا تفاقم الأمر فلا تنكروا خروجنا » وساروا راجعين إلى مكة (أغاني ١٩ : ٧٦) ، فلما كان آخر النهار بلغ أَبا البراء قتل البراض عروة فقال « خدعني حرب وابن جدعان » وركب فيمن حضر عكاظ من هوازن في إثر القوم فأدركوهم في نخلة قبيل الحرم ، فناوشوهم شيئاً من القتال يسيراً حتى جاء الليل ودخلت قريش الحرم فأَمسكت هوازن عنهم ونادوهم يا معشر قريش ! إنا نعاهد الله أَن لا نبطل دم عروة الرحال أَبداً أو نقتل به عظيماً منكم ، وميعادنا وإياكم هذه الليالي من العام المقبل .» ونادى رجل من بني عامر

لقد وعدنا قريشاً وهي كارهة   بأن تجيءُ إلى ضرب رعابيل [١]

فقال حرب بن أمية لأَبي سفيان ابنه : قل لهم : « إن موعدكم قابل في هذا اليوم »

---

(١) ثوب رعابيل : ممزق بال .

وتعرف هذه الوقعـة بيوم نخلة وقد تعطلت السوق فلم تقم تلك السنة . فقال خداش بن زهير يذكر قريشاً بهـا ويعيرهم ، وكانت العرب تسمي قريشاً (سَخينة) لأكلها السخينة وهي طعام رقيق يتخذ من دقيق

يا شدة ما شددنا غير كاذبة ... على سخينة لولا الليل والحرم
إذ يتقينا هشام بالوليـد ولو ... أَنا ثقفنا هشاماً شالت الجذم
لما رأوا خيلنا تزجي أَوائلها ... آساد غيل حمى أشبالَهَا الأُجم
ولّوا سلالاً وعُظْمُ الخيل لاحقة ... كما تخب إلى أَعطانها النعم (١)
بين الأراك وبين المرج تبطحهم ... زرق الأُسنة في أطرافها السهم
فإن سمعتم بجيش سالك شرفاً ... وبطن مرّ فأخفوا الجرس وا كتتموا

وهذا غاية في التعيير وفي وصف شدة الحرب حتى صار الأخ يفتدي نفسه بأخيه

يوم شمظة

شَمْظة موضع في عـكاظ نزلته كنانة بعد عام من يوم نخلة حسبما اتعدوا هم وهوازن فاحتشدت كنانة قريشها ، وعبد منافها

---

(١) عُظْم الخيل : معظمها . تخب : تسرع . والأعطان : مبارك الإبل حول الماء ، أو هي كالأوطان للناس .

والأَحابيش ومن لحق بهم ، وسلَّح يومئذ عبد الله بن جدعان مئة كميّ بأداة كاملة سوى من سلّح من قومه وعلى إحدى مجنبتي كنانة عبد الله بن جدعان ، وعلى الثانية كريز بن ربيعة ، وأمر الجميع إلى حرب بن أمية الذي كان في القلب أمـا هوازن وأَحلافها فأمرها إلى مسعود بن معتب الثقفي واعتزل فريق من الحيَّيْن فلم يشهدوا الحرب

ثم تناهض الناس وزحف بعضهم إلى بعض ، فكانت الدائرة أَول النهار لكنانة على هوازن ، حتى إذا كان آخر النهار تداعت هوازن وصابرت ، فانقشعت كنانة واستحرَّ القتل فيهم ، فقتل منهم تحت رايتهم مئة رجل ، ولم يقتل من قريش يومئذ أحد يذكر ؛ وذلك قول خداش بن زهير

فأبلغ إن عرضت بنا هشاماً ... وعبد لله أبلغَ والوليدا
أولئك إن يكن في الناس خير ... فإن لديهمُ حسباً وجودا
هم خير المعاشر من قريش ... وأوراهم إذا قدحت زنودا
بأنا يوم (شمظة) قد أقمنا ... عمود الدين إن له عمودا
فجاؤوا عارضاً برداً وجئنا ... كما أضرمت في الغاب الوقودا
فعانقنا الكماة وعانقونا ... عراك النمر واجهت الأسودا
ونادوا يا لعمرو لا تفروا ... فقلنا لا فرار ولا صدودا

فولّوا نضرب الهامات منهم بما انتهكوا المحارم والحدودا[1]
فلم أر مثلهم هزموا وقلوا ولا كذيادنا عَنقًا مذودا

* * *

يوم العبلاء

عاد الأحياء المذكورون من هؤلاء وأولئك فالتقوا من قابل في اليوم الثالث من أيام عكاظ بالعَبْلاء إلى جنب عكاظ فاقتتلوا على التعبئة التي تقدمت

فكان هذا اليوم أيضاً لهوازن على قريش وكنانة فأُصيبت قريش وقتل أَحد صناديدها العوام بن خويلد ، والد الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتله مرة بن معتب الثقفي ، فقال في ذلك رجل من ثقيف يفتخر بقتله لما له من الخطر

منا الذي ترك العوّام محندلاً تنتابه الطير لحماً بين أحجار

وفي هذا يقول شاعر هذه الحروب من هوازن خداش بن زهير :

أَلم يبلغكمُ أنا جدعنا لدى العبلاء خندف بالقياد
ضربناهم ببطن عكاظ حتى تولّوا طالعين من النجاد

---

(١) انظر خزانة الأدب ، وابن سلام ص ٥٣ . أبلغ بحذف نون التأكيد الخفيفة وإبقاء فتحة البناء على آخر فعل الأمر والذياد الدفاع والعَنَق الجماعة ، والإسراع في السير .

ويقول

ألم يبلغك ما لقيت قريش وحي بني كنانة إذ أبيروا
دهمناهم بأرعن مكفهر فظل لنا بعقوتهم زئير (١)

* * *

يوم شرب

ثم التقوا على رأس الحول في اليوم الثالث من عكاظ أيضاً بشَرْب ، وشرب من عكاظ . ولم يكن بين الفريقين يوم أعظم منه ، صدقوا فيه الحملة ، وصبروا حفاظاً وحمية ، وقد أبلت فيه قريش بلاء حسناً وكان الذي أحماهم أن لهوازن عليهم يومين ذهبوا بفخرهما فحافظت قريش وكنانة وصابرت بنو مخزوم وبنو بكر ، وقيّد ثلاثة من شجعان قريش وأشرافها أنفسهم وقالوا « لا يبرح منا رجل مكانه حتى يموت أو نظفر » وهم أبو سفيان وحرب ابنا أمية ، وأبو سفيان بن حرب والد معاوية وكان على الفريقين رؤساؤهم السابقون ، واستمر القتال بهذه الشدة حتى انهزمت هوازن وقيس كلها رغم عددها وعدتها ، إلا بني نصر فإنهم صبروا مع ثقيف ، وذلك لأن عكاظ بلدهم ، لهم فيه نخل وأموال إلا أنهم لم يغنوا شيئاً ثم انهزموا أيضاً وقتلت

---

(١) أبيروا أهلكوا . العَقْوة ما حول الدار ، المحلة

هوازن يومئذ قتلاً ذريعاً وذهبت بفخر هذا اليوم كله كنانة وقريش ، فارتفعت أصوات شعرائهم تخلد هذا النصر المؤزّر ، وما لها لا تفعل ، وقد لقيت خزياً كبيراً من شعراء هوازن ، وما شأن شاعر تفقده أمته يوم الحاجة ، وأي غناء لشاعر لا قوم له ، فقال أمية بن أسكر الكناني

ألا سائل هوازن يوم لاقوا   فوارس من كنانة معلمينا
لدى شَرْب وقد جاشوا وجشنا   فأوعب في النفير بنو أبينا (١)

وقال

قومي اللذو بعكاظٍ طيّروا شرراً   من روس قومك ضرباً بالمصاقيل (٢)

وقال جذل الطعّان

جاءت هوازن أرسالاً وإخوتها   بنو سليم فهابوا الموت وانصرفوا
فاستقبلوا بضراب فض جمعهمُ   مثل الحريق فماعاجوا ولا عصفوا

وقال عبد الله بن الزِبَعري شاعر قريش (والمشركين فيما بعد)

ألا لله قوم و   لدت أخت بني سهم
هشام وأبو عبد   مناف مدره الخصم

---

(١) وعب جمع

(٢) اللذو : لغة في الذين . والمصاقيل : السيوف .

وذو الرمحين أشباك   من القوة والحزم
فهذان يذودان   وذا من كثب يرمي[1]

(١) وتتمة هذه الأبيات :

أسود تزدهي الأقرا   ن منّاعون للهضم
وهم يوم عكاظ منعوا   الناس من الهزم
وهم من ولدوا أشبوا   بسر الحسب الضخم
فإن أحلف وبيت الله   لا أحلف على إثم
لما من إخوة بين   قصور الشام والردْم
بأزكى من بني ريطة   أو أوزن في الحلم

أبو عبد مناف الفاكه بن المغيرة . وريطة هذه التي عناها هي أم بني المغيرة وهي بنت سعيد بن سعد بن سهم ، ولدت من المغيرة هشاماً وأبا ربيعة والفاكه . وذو الرمحين هو أبو ربيعة بن المغيرة لقب به اقتاله في هذه الحرب برمحين . وأشباك : حسبك . والمِدْره : زعيم القوم وخطيبهم والمتكلم عنهم . تزدهي الأقران : تستخف بهم . وأشبى فلان : إذا ولد له ولد كيّس . والرَدْم مكان بمكة يضاف إلى بني جُمَح وقرية بالبحرين .

هذا وقد اختلف في قائل هذه الأبيات ، فقيل : ابن الزبعري . وقيل : عمر ابن أبي ربيعة حفيد ذي الرمحين ، وقد كشف الأصفهاني عن حقيقتها بخبره الطريف المشهور قال قال أبو نهشل : جئت أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام الوارد ذكره في الأبيات ، قصدته أطلب منه مغرماً فقال : يا خال ! هذه أربعة آلاف درهم وأنشد هذه الأبيات الأربعة (الأولى) وقل سمعت حساناً ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : « أعوذ بالله أن أكذب على الله ورسوله ، ولكن إن شئت أن أقول : سمعت عائشة تنشدها فعلت . » فقال : « لا ، إلا =

يوم الحريرة

وهو آخر أيامهم ثم التقوا على رأس الحول بالحُرَيرة وهي حرّة إلى جنب عكاظ مما يلي مهب جنوبها ، وعلى كل قوم رؤساؤهم السابقون فاقتتلوا قتالاً شديداً كان شؤماً على قريش وأحلافها قتل فيه من كنانة ثمانية نفر وقتل أبو سفيان بن أمية أخو حرب جد معاوية. وكان يوماً لهوازن نخره ونصره . فلعلع صوت شاعر هوازن بهذه الصاعقة المجلجلة :

إني من النفر المحمرّ أعينهم أهل السوام وأهل الصخر واللوب[1]
الطاعنين نحور الخيل مقبلة من كل سمراء لم تغلب ، ومغلوب
وقد بلوتم فأبلاكم بلاؤهم يوم الحُرَيرة ضرباً غير مكذوب

= أن تقول : سمعت حساناً ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله جالس . » فأبى عليّ وأبيت عليه ، فأقمنا لذلك لا نتكلم عدة ليال ، فأرسل إليّ فقال : قل أبياتاً تمدح بها هشاماً — يعني جده ابن المغيرة — وبني أمية . » فقلت : « سمّهم لي. » فسماهم وقال : « اجعلها في عكاظ واجعلها لأبيك . » فقلت : « ألا لله ... الأبيات . » ثم جئت فقلت : « هذه قالها أبي . » فقال : « لا ، ولكن قل : قالها ابن الزبعري. » قال : فهي إلى الآن منسوبة في كتب الناس إلى ابن الزبعري . وقيل هن لعمر بن أبي ربيعة والله أعلم .

(١) اللوب : جمع لابة وهي الحرّة .

لاقتهمُ منهمُ آســاد ملحمة ليسوا بدارعة عوج العراقيب
فالآن إن تقبلوا نأخذ نحوركم وإن تباهوا فإني غير مغلوب

وقال الحارث بن كلدة الثقفي

تركت الفارس البذّاخ منهم تمج عروقــه علَقــاً عبيطا
دعست بنانه بالرمح حتى سمعت لمتنه فيــه أطيطا
لقد أرديت قومك يابن صخر وقد جشمتهم أمراً شطيطا
وكم أَسلمت منكم من كمي جريحاً قد سمعت له غطيطا[١]

ثم كان الرجل منهم بعد ذلك يلقى الرجل، والرجلان يلقيان الرجلين فيقتل بعضهم بعضاً فلقي ابن محمية بن عبد الله الديلي زهير بن ربيعة أبا خراش فقال زهير: «إني حرام جئت معتمراً.» فقال له: « ما تُلقى طوال الدهر إلا قلت أنا معتمر » ثم قتله

انقضت هذه الأيام الخمسة في أربع سنين. ثم تداعى الفريقان إلى السلم على أَن يذروا الفضل في الدماء والأموال ويتعاهدوا على الصلح.

---

(١) البعير البذّاخ: الهدّار الخروج لشقشقته. والبذخ في الأصل الكبر والعلوّ. العلَق العبيط: الدم المتجمد. دعس: طعن. الأطيط: صوت. الغطيط للبعير: هديره، وللنائم: صوته.

عقدوا على ذلك المواثيق .وبقيت هذه الأَحداث للذكرى والفخر ، يتمجد كل شاعر قوم بما فعل قومه ، ويتغنى بما كان لهم من محامد وانظر إن شئت أَن ترى آثار ذكرها في مثل قول الشاعر

وإن قصياً أهل عز ونجدة   وأَهل فَعال لا يرام قديمها
همُ منعوا يومي عكاظ نساءنا   كما منع الشَّوْلَ الهجانَ قُرومها[1]

أو قول عاتكة بنت عبد المطلب تخلد نصر قومها في هذه المقطوعة الرائعة :

سائل بنا في قومنا   وليكف من شرّ سماعه
قيساً وما جمعوا لنا   في مجمع باق شناعه
فيه السنور والقنا   والكبش ملتمع قناعه
بعكاظ يعشي الناظريـ   ـن إذا همُ لمحوا شعاعه
فيه قتلنا مالكاً   قسراً وأَسلمه رعاعه
ومجدّلاً غادرنه   بالقاع تنهسه ضباعه

هكذا كانت تجارة العراق في عكاظ وما يفيده من يجيرها من أرباح مادية ومعنوية هو وقبيلته ، سبباً مغرياً في هذه الحروب

(١) الشوْل : النوق التي أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها ، الواحدة شائلة . والهجان : الإبل الكرام . والقروم : الفحول

وأي بدعٍ في هذا فإنا ما نزال إلى اليوم نرى أكثر الحروب في حقيقتها نطاحاً على النفوذ الاقتصادي وتكاد أحداث القرن العشرين كلها تكون حول التنافس التجاري إن لم يكن بصورة جلية فمن وراء ستار



الباب الثالث

أسواق العرب

ا في الجاهلية

ب في الإسلام

اسواق العرب

أنشأ العرب — ومركزهم التجاري ما قدمنا — أسواقاً لهم يتبايعون فيها

ولعل هذه الكلمة — كما ذكر ابن سيده — اشتقت من سوْق الناس بضائعهم إليها ، ولا يستدعي وجودها في اللغات السامية أن تكون كلمة السوق العربية مأخوذة منها ، فلعل الواقع هو العكس . وليس من لزوم في هذا الاستقصاء المتكلف مادامت هذه الأخوات من أم واحدة

فمن هذه الأسواق ما كان يقتصر على ما يجاوره من القرى وما ينزل بساحِه من القبائل كسوق هجر وحَجْر اليمامة والشِّحْر وغيرها ، ومنها ما كان عاماً تفد إليه الناس من أطراف الجزيرة كلها كعكاظ   ولكل مدينة بطبيعة الحال أسواق وإنما المقصود هنا الأسواق الموسمية منها ، التي لها أيام معينة تقوم فيها ويؤمها الناس   فإذا كان لإحدى هذه الأسواق موقع جغرافي ذو بال ، كأن تكون على ساحل البحر مثل سوق عدن وصنعاء وعمان ..

كان شأنها ممتازاً من بقية الأسواق التي في قلب الجزيرة كحجر أو كحضرموت ، لشيوع الاتجار فيها مع الجيران من هند وحبشة وفرس في الأولى واقتصار الثانية على القبائل المتاخمة لها.

فتتميز الأسواق التي على فُرَض البحر بوجود النزال الأجانب وتأثر أصحابها باختلاطهم بهؤلاء وما يستتبع ذلك من تغيير في العادات والرقي والصبغة فليس من المعقول أن تكون أحوال سوق صنعاء مثلاً مشابهة كل المشابهة الأحوال التي لسوق هجر

كان يلي أمر الناس والنظر في شؤونهم التجارية في بعض هذه الأسواق أمراء يعشرون الناس كأكيدر في دومة الجندل والمنذر بن ساوى في سوق حَجْر ، وهناك رؤساء يهبطون الأسواق لجمع الإتاوة وأشراف يتوافون بتلك السوق التي هي في الغالب تحت سيطرة أمير من الأمراء ليستوفوا نصيبهم من الربح ، الذي عينه لهم ذلك الأمير بل إن بعض الأسواق كانت تقع إلى سلطان دولة أجنبية كسوق المشقّر الذي تحكم كسرى بأهله وتجارته ، وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على الأسواق سوقاً فسوقاً

أما عروض التجارة التي كانت تُحمل إلى الأسواق فلا تتعدى التمر والزبيب والأدم والورس والغالية والبرود وبعض

ضـروب الحيوان كالمواشي والأنعـام والخيل حتى القرود أَحيانًا

وكانت هَجَر أشهر البلدان بتمرها وعُمَان يحمل إليهـا الورس ويعالج فيهـا وكانت لطائم النعمان تسير إلى عـكاظ ، ولطائم كسرى إلى المشقر ، تأتي كل سنة فتباع ويشترى بأثمانها الأدم والتمر . وكان يقوم بحمايتها عرب الحيرة ما دامت في مناطق نفوذهم ، فإذا فصلت نحو عـكاظ كان لا بد لها من حام منيع الجانب عزيز القبيلة ليجيزها على عامة القبائل . وقد استفاد العرب من هذه الحماية فوائد مادية جلَّى

حملت هذه الحركة التجارية كثيراً من أَلوان الترف إلى العرب وكان لا عهد لهم بمثلها ، فتغالى أشرافهم بالثياب والبرود والسلاح والطيب . بل إن الرواة ليذكرون أَن خمراً حملت من بصرى وغزة من بلاد الشام إلى سوق مجنة قرب مكة ، ويظهر أن العرب اعتادت استجادة الخمر والافتنان بشربها واستطابتها من معادنها المشهورة كالبلدتين المذكورتين وأذرعات وأَندرين وغيرها ، شاع ذلك في الرجال والنساء وسيمر بك عند الكلام على عـكاظ أَن امرأَة أَرسلها زوجها إلى عـكاظ بسمن ومعها راحلتان فشربت الخمر بثمن السمن فاستطابتها ثم باعت راحلتيهـا فشربت

بثمنها ثم رهنت ابن الرجل وشربت أيضاً (١) ونحن نعلم أن كثيراً من الشعراء والفتيان كانوا يتمادحون بالإنفاق على الخمر والتردد على أصحاب الحوانيت والجلوس إليهم واذكر إن شئت أبيات عنترة

ولقد شربت من المدامة بعدما ... ركد الهواجر بالمشوف المُعْلَم
بزجاجة صفراء ذات أسرة ... قرنت بأزهر في الشمال مفدم
فإذا شربت فإنني مستهلك ... مالي وعرضي وافر لم يكلم ... (٢)

---

(١) وأبعدمن هذا الخبر في الغرابة والطرافة ماروواه القالي في أماليه (١:١٥٠) قال : اشترى أعرابي خمراً بجزة صوف فغضبت عليه امرأته فأنشأ يقول :

غضبت عليّ لأن شربت بصوفٍ ... ولئن غضبتِ لأشربنْ بخروفِ
ولئن غضبتِ لأشربنّ بنعجة ... دهساء مالئة الإناء سَحوف
ولئن غضبت لأشربنّ بناقة ... كوماء نامية العظام صَفوف
ولئن غضبت لأشربنّ بسابح ... نهد أشمّ المنكبيْن منيف
ولئن غضبت لأشربنّ بواحدي! ... ولأجعلنّ الصبر منه حليفي

الدهساء : شقراء خفيفة الشقرة إلى سواد . والسحوف التي لها طبقتان من الشحم . والكوماء : الناقة العظيمة السنام ، وناوية العظام : سمينتها . والصفوف : التي تصف رجليها عند الحلب . والسابح : الفرس

(٢) الهواجر جمع هاجرة : وهي حر نصف النهار . والمشوف : الإناء المجلوّ . والمعلم : عليه علامة . والأزهر : الأبيض ، ويعني به الإبريق . المفدّم : ما عليه الفدام وهي المصفاة .

أَو قول الأَعشى : « وقد غدوت إِلى الحانوت يتبعني الخ »

والظاهر أن حب الخمرة تغلغل في نفوس عامة العرب وغمرت بحوانيتها أَسواقهم وعكفوا عليها حتى ما يستطيعون لها تركاً وإن الأَعشى الشاعر هذا ، أَراد أَن يقصد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فيسلم ، وأَشفق مشركو مكة من هذا السلاح أن ينضم للإِسلام فصدوه عن وجهه ذاك ، وكان أقوى عامل في رده ما أَخبروه من أَن الإِسلام يحرم الخمرة ولم يكن بالشاعر قدرة على تركها فصرفه ذلك عن قصده وقفل راجعا فأَدركته المنية ولم يكتب له الايمان وخير ما نستدل به على استفاضتها في أسواقهم وإِدمانهم لها أَن الأَخباريين يعدون في الجاهلية كلها أَشخاصاً لا يبلغون العشرة حرَّموا على أنفسهم الخمر [1] فتميزوا

(١) روى القالي في أماليه (١ ٢٠٤) :

« حرّم رجال الخمر في الجاهلية تكرماً وصيانة لأَنفسهم، منهم عامر بن الظرب ابن ... بن قيس بن عيلان وقال في ذلك

سآلة للفتى ما ليس في يده   ذهّابة بعقول القوم والمال
أقسمت بالله أسقيها وأشربها   حتى يفرّق ترب القبر أوصالي
مورثة القوم أضغانًا بلا إِحن   مزرية بالفتى ذي النجدة الحالي

وحرم قيس بن عاصم الخمر وقال في ذلك :

لعمرك إِن الخمر مادمت شاربًا   لسالبة مالي ومذهبة عقلي
وتاركتي من الضعاف قواهُ   ومورثتي حرب الصديق بلا نَبل

=

= وحرم صفوان بن أمية الكناني الخمر في الجاهلية وقال في ذلك :

رأيت الخمر صالحة وفيها مناقب تفسد الرجل الكريما
فلا والله أشربها حياتي ولا أشفي بها أبداً سقيما

وحرم عفيف بن معديكرب عم الأشعث بن قيس الخمر وقال :

وقائلة هلمّ إلى التصابي فقلت عففت عما تعلمينا
وودعت القداح وقد أراني بها في الدهر مشغوفاً رهينا
وحرمت الخمور عليّ حتى أكون بقعر ملحود دفينا

وقال أيضاً :

فلا والله لا ألفى وشَرْباً أنازعهم شراباً ما حييتُ
أبى لي ذاك آباء كرام وأخوالٌ بعزهمُ ربيت

وحرم سويد بن عدي الطائي ثم المعني الخمر وأدرك الاسلام فقال :

تركت الشعر واستبدلت منه إذا داعي منادي الصبح قاما
كتاب الله ليس له شريك وودعت المدامة والندامى
وحرمت الخمور وقد أراني بها سدكاً وإن كانت حراما » اه

التبل : الثأر . وقوله أقسمت بالله أسقيها : يريد لا أسقيها . وكذلك فلا والله اشربها : أي لا أشربها . والملحود : القبر

والسدِك : المولع بالشيء .

هذا وقد جاء في الأغاني [٨ : ٣٣٢ دار الكتب] ما يأتي :

« ما مات أحد من كبراء قريش في الجاهلية إلا ترك الخمر استحياء مما فيها من الدنس ؛ ولقد عابها ابن جدعان قبل موته فقال :

شربت الخمر حتى قال قومي ألست عن السفاه بمستفيق
وحتى ما أوسد في مبيت أنام به سوى الترب السحيق
وحتى أغلق الحانوت رهني وآنست الهوان من الصديق =

بهـذا الوصف من سائر العرب ولم يكن لتميزهم هذا من قيمة لولا فشوّها في قبائل العرب فشواً قوياً جعلها في حكم الضرورة التي لا مندوحة عنها

يغشى هـذه الأسواق عامة العرب لما تقدم من أن شغل أكثرهم التجارة ومن لم يتاجر قصدها للكسب والشراء حتى صار غشيان السوق والمشي فيهـا ، هما والاتجار ألفاظ مترادفة ، ففي البخاري

« استأذن أبو موسى على عمر فلم يؤذن له فرجع ، ففرغ عمر فقال : « ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس ؟ ائذنوا له » قيل « قد رجع » فدعاه فقال (أبو موسى) : « كنا نؤمر بذلك » فقال عمر « تأتيني على ذلك بالبينة » فانطلق (أبو موسى) إلى مجلس الأنصار فسألهم فشهد أبو سعيد الخدري فقال عمر « أخفي هذا عليَّ من أمر رسول الله صلى الله عليه

= وكان سبب تركه الخمر أن أمية بن أبي الصلت شرب معه فأصبحت عين أمية مخضرة يخاف عليها الذهاب ، فقال له : ما بال عينك ؟ فسكت . فلما ألحّ عليه قال له : أنت صاحبها أصبتها البارحة فقال : أو بلغ مني الشراب الحد الذي أبلغ معه من جليسي هذا ؟ لاجرم لأدينّها لك ديتين ؛ فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وقال : الخمر عليّ حرام أن أذوقها أبداً ، وترك من يومئذ . » اه

وهذا نص في أن كبراء قريش في الجاهلية كانوا يشربونها جميعاً .

وسلم ؟ أَلهاني الصفق في الأسواق .» يعني الخروج إلى التجارة[1]

وكان في جملة ما احتج به المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم قولهم «... فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك: سل ربك ... فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمس... الخ[2]» وحكى الله عنهم قولهم هذا فقال

« وَقَالُوا مَا لِهَذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ »

وقال في المرسلين « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ » فكنّى بالمشي في الأسواق عن التجارة، ووُصف صلى الله عليه وسلم بأنه ليس بفظّ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق[3]. ولأن العرب لا تحتشد لشيء احتشادها في هذه الأسواق، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصدها أول دعوته ويعرض نفسه على القبائل في هذه المواسم

---

(١) طبع ليدن : كتاب البيوع : ٨

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٩

(٣) البخاري كتاب البيوع (٢٢) . والسخاب : كثير اللغط والجلبة .

كان أعظم ما يحدو العرب في الجاهليـة على قصد تلك الأَسواق ما قدمت لك من قيام كثير منها في الأَشهر الحرم ولشيوع الأمن حرمةً للشهر ولأن مواسم بعض الأسواق كعكاظ ومجنة وذي المجاز تقع في أيام حجهم وهي أَعمر أسواق العرب بمختلف القبائل يأتونها من كل أَوب ومعهم خيرات بلادهم وتلك ميزة لا تتمتع بها بلدة غير مكة ولا قوم غير قريش ، وقد امتنّ الله عليهم بذلك فقال

« أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ٠ » القصص، الآية :٥٧

وَقال « أَوَ لَمْ يرَوْا أَنَّا جعَلْنَا حرَماً آمِناً وَيتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِن حَوْلِهِمْ » العنكبوت ، الآية :٦٧

وافقت هـذه المواسم زمن الحج (١) واختلط أَمرها بشعائره

(١) ما زال الحج الموسم الاكبر للتجارة في الاقطار العربية الكبرى ؛ في أيامه تنشط الحركة التجارية ويكثر البيع والشراء وتستنفد المخازن العربية بضائعها يستهلكها الحجاج الذين يقصدونها من القاصية أجناساً شتى ، فصينيون وأتراك وبخاريون وفرس وهنود وأفغان وقفقاسيون ومغاربة و ٠٠٠ وتعظم منهم الأرباح وتفيض على البلاد عامة سحائب خير وسعة من العام إلى العام ٠ تستوي في ذلك جميع البلدان العربية ، فمصر كالشام والعراق كالحجاز لوقوع الأولى على طريق الحاج المغربي ولأن الشام والعراق طريق الحاج المشرقي ٠ ولا تسأل =

(فمنى وعرَفة وعكاظ ومجنة وذو المجاز مواسم الحج) فإذا انفضوا من ذي المجاز تروّوا من الماء ونادى بعضهم بعضاً : « ترووا من الماء » لأنه لا ماء بعرفة يومئذ ولا بالمزدلفة ، ولهذا سمي اليوم الثامن من ذي الحجة بيوم التروية . وكانوا في الجاهلية لا يتبايعون في منى ولا في عرفة ، يخصون هذين المكانين بالحج الخالص ، لا يخلطونه ببيع ولا شراء ؛ فلما جاء الإسلام فكأنهم تأثّموا أن يتجروا في المواسم فأنزل الله تعالى قوله

= عن البحبوحة التي يرتع فيها أهل الحجاز في موسم الحج إذ تتقاطر عليه كل تلك الأمم ويربح أهله في هذه الأيام القلائل معاش سنتهم كلها .

بقي الأمر على هذا حتى عهد قريب ، أي قبل عشرين سنة، إذ انقطع بحلول المحنة الكبرى ببلاد العرب : فوزعت بين الفرنجة ، وانحجز الحجاج عن ورود هذه الأقطار لأن الحاج المغربي أو المشرقي يمر على دول كثيرة قبل أن يصل إلى الحجاز . فإن كان معه فضل من مال ، استنزفته تلك الدول فلا يصل إلى الحجاز إلا ببلغة لا تكاد تكفيه وحده ؛ فيضطر المسكين إلى أن يسلم أمره إلى الشركات الأجنبية التي نصبتها دولها تمتص دم الحجاج وتسلبهم أموالهم وتذيقهم الموت ألوانًا . فحرمت بذلك بلادنا من موارد وأرزاق عدا ما خسرت من المنافع الاجتماعية . فمات العراق كما مات الحجاز وماتت الشام منذ نضب هذا المعين . ثم عكف الاجنبي على ما بقي في البلاد من أثارة خير يتمششها ويتعرقها حتى جردت الأرض وصوّح النبت فما ثمة من قائم ولا حصيد :

أكلتم أرضنا فجردتموها   فهل من قائم أو من حصيد

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ » البقرة ، الآية ١٩٨ وزاد ابن عباس في قراءته « في مَوَاسِمِ الْحَجِّ » والفضل هو الرزق والكسب والاتجار ، وكذلك كان يتلوها أُبَيّ تلاوةً (١)

* * *

والغريب أن هذه الأَسواق ، كما يقصدها طالب الربح والشراء ، يقصدها طالب الأَمن والفداء ، فكم أوى إليها من خائف يطلب من يجيره فيجده ويلجأ إليه ويأمن ، وكم من رجل حمل معه فداء أسيره ففكه من آسره وكم من سادات

---

(١) انظر البخاري كتاب البيوع ٥ وأخبار مكة للأزرقي ص ١٣٠ وتفسير الخازن نقل في هذا التفسير عن أبي أمامة التيمي قال « كنت أكري في هذا الوجه ، وكان الناس يقولون لي « إنه ليس لك حج » فلقيت ابن عمر فقلت له « إني رجل أكري في هذا الوجه وإن أناساً يقولون لي ليس لك حج » قال ابن عمر « أليس تحرم وتلبي وتطوف بالبيت وتفيض من عرفات وترمي الجمار ؟ » فقلت « بلى » قال « فإن لك حجاً : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن مثل الذي سألتني عنه فسكت رسول الله حتى نزلت هذه الآية : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم الآية » فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأها عليه وقال « لك حج » اه

تحملوا ديات ودماء فكانوا سبب الصلح بين قبيلين كبيرين

وإذ أن أكثر هذه الأسواق حولية تقوم أياماً معلومات في كل عام ، كان من المعقول أن تكون ميداناً لغير البيع والشراء ؛ كان فيها تناشد أشعار ، وكان فيها تفاخر وتكاثر ، وتنافر ومقارعة ومعاظمة فيفوز في هذا أقوام ويخسر آخرون ، وتحتفل العرب لها الاحتفال اللائق بها وكان لهم حكام معلومون يفضون المشاكل بين القبائل ، ولهم محكمون يحتكم إليهم الناس في مفاخراتهم وأشعارهم ، كما لهم في هذه الأسواق خطباء

يغشى الناس الأسواق إذن لمآرب شتى ، وغايات متباينة ؛ فمن طالبٍ قاتل أبيه يريد ليعرفه حتى يتربص به السوء فيما بعد ، ومن ملتمسٍ حماية شريف من عدو ألد ، ومن باغ زوجاً ، أو مستطيل بعز ومنعة ، أو جالس ليأتيه أتباعه بإتاوة ، ومن عارض سَلَبَ قتيل ليبيعه فيظفر به أهل القتيل ، ومن فرسان يتقنعون ، وبغايا ضرب عليهن القباب ، وشبان يتعرضون للمتبرقعات من النساء إلى آخر ما هنالك مما سيمر بك مفصلاً وخاصة عند الكلام على عكاظ

ولا يقل شأناً عن النشاط التجاري في أسواقنا تلك ، أثر

هذا الاختلاط في اللغة والدين والعادات ، فإن قيام قريش عليها الأعوام الطويلة قبل البعثة ، مكنها من أن تتبوأ في اللغة المكان الأعلى ، لأن لغات القبائل عامة يمنيها وعمانيها وشاميها وعراقيها ونجديها وتهاميها تطرق مسامعها على الدوام فتختار منها ما يحسن ، وتنفي ما يقبح وقامت على هذا الاصطفاء زمناً كافياً حتى خلصت لها هذه اللغة الممتازة ، وتهيأت لينزل بها القرآن الكريم ، عَلَى أَفصح وجه وأبلغه وأتمه كمالاً وسلاسة وجمالاً

وكان الشعراء الذين ينظمون لينشدوا بعكاظ ، يتوخون اللغة المجمع على فصاحتها ، والتي صار لها من النفوذ والشيوع ما للغات العامة اليوم فكأن لهجة قريش هي اللهجة الرسمية بين لهجات الجزيرة كلها حتى اليمن والحيرة وغسان

أَما العادات فما أمرها بالذي يحتاج إلى شرح وتبيين ؛ فإن كل اختلاط بين فريقين لا بد أن ينتهي بأثر في كل منهما ، فاليمني يقبس شيئاً من أخلاق الحجازي ، والنجدي يحمل ألواناً من عادات العماني أَو الحيري وهلمّ جرّا

وكذلك قل في الدين ، بل إن أثر هذا الاختلاط في الدين أبلغ ، لقيام الجميع بمناسك واحدة يؤمهم فيها قريش أهل الحرم

فأعظم آثار الأسواق قبل البعثة هو هذا التوحيد الذي جرى

بين القبائل العربية من عامة الأقطار وأريد أن أنبه بصورة خاصة إلى التوحيد اللغوي ، الذي كان للشعراء والحكام فيه أبلغ الأثر ، في انتقاء الألفاظ والأساليب وشيوعها بواسطة الرواة في القبائل وإذا شئت أن أختصر ذلك كله بكلمة واحدة قلت إن نهضة الشعر مدينة للأسواق ، بل مدينة لعكاظ خاصة عرف لها هذا الأمر منذ الجاهلية حتى اليوم

فلما كان الإسلام ضعف الشعر ، وانصرف العرب إلى الفتوح ، واشتغلوا بالقرآن والسنة وفهم أحكام الشريعة ، فضؤل أمر عكاظ وخمل ذكرها ، وانقضى عصر الفتوح وليس لعكاظ عُشر شأنها الأول حتى إذا أُنشئ المربد استمر أمر عكاظ على التناقص ، وأخذ مربد البصرة يحل مكانها ويتم رسالتها في الأدب والشعر ؛ بل زاد عليها بما استجد الإسلام وحالة العرب الاجتماعية المتحضرة ، من صنوف في الأدب وألوان في الاجتماع

وأصبح المربد مرتاداً لعلوم الأدب والنحو واللغة والأخبار والنوادر و يأخذون عن أعرابه الذين لم تخالطهم لوثة العجمة ، ما يجعلون منه مادة علمهم وينبوع ثقافتهم

ولما رسخت قدم المسلمين في المدنية ، وتمت لهم المدن الكبرى والعواصم العظيمة المتناهية في الحضارة ؛ أفل نجم هذه الأسواق

إذ لم يعد لها من داع وكانت لم تزل قائمة في الإسلام وعاشت ما يزيد على مئتي سنة فعكاظ التي أنشئت قبل الهجرة بأكثر من سبعين عاماً أهملت سنة ١٢٩ للهجرة ، وآخر ما انقرض من الأسواق سوق حباشة ، تركت عام ١٩٧ للهجرة

وقد آن لنا بعد هذه المقدمة أن نعرض لك معلومات عن أشهر الأسواق في الجاهلية والإسلام ، متوسعين ما أمكننا التوسع ، في الكلام على عكاظ في الجاهلية وعلى المربد في الإسلام ، إذ هما أعظم سوقين قامتا للعرب في الأولى ترى أحوال الجاهلية من عامة نواحيها في بيعها وشرائها ودينها واجتماعها وسياستها وحربها وسلمها ، وفخرها وأدبها ولغتها وشعرها وعاداتها . وقد حرصت على أن أحافظ على عبارة كبار المؤلفين الذين استقيت هذه المعلومات من كتبهم كالأصفهاني والطبري وابن عبد ربه وابن سعد وابن هشام إلا ما رأيت أن الحاجة تضطرني فيه إلى شيء من التعديل يسير ، وفي الثانية ترى كذلك أحوال العرب في الإسلام بالتفصيل المتقدم واعلم أن حوادث المربد التي سأعرضها عليك يختلف زمن وقوعها بين سنة ست وثلاثين للهجرة وأواخر القرن الثاني الهجري

لسنا نجد اتفاقاً بين قدامى المؤلفين في عدد هذه الأسواق ولا

في تحديد أزمنتها ، فبينا نرى القلقشندي (في صبح الأعشى) يعدها ثمانية (١ : ٤١٠) نرى اليعقوبي في تاريخه ، والبغدادي في خزانته (٤ : ٣٦٠ السلفية) يعدانها عشرة ثم يختلفان عليها فيذكر كل منهما بعضاً ويترك بعضا ونراها عند المرزوقي تبلغ سبع عشرة سوقاً (الأزمنة والأمكنة) ثم يأتي الألوسي فيذكرمنها في بلوغ الأرب أربع عشرة .

أَما الهمداني فنحن معه في حيرة لأنه يقول في كتابه صفة جزيرة العرب (ص ١٧٩) « أَسواق العرب القديمة وقد ذكرناها ، عدن ، مكة ، الجَند نجران ذو المجاز ، عكاظ ، بدر ، مجنة ، منى ، حجر اليمامة ، هجر البحرين ، الروض ، روضة دعمي ، روضة الأجداد الخ ثم يسرد أعلاماً تبلغ الخمسين .

فطالعت الكتاب المطبوع كله فلم أَجد للأسواق التي قال إنه ذكرها — ذكراً أَبداً

ولما رجعت إلى ياقوت في كثير من هذه الأعلام لم أَجد لها ذكراً البتة . فأيقنت في نفسي أَن في هذه الطبعة تشويشاً فإن عدّه الأَسواق ينتهي في السطر الثاني عند قوله (هجر البحرين) ثم يستأنف كلاماً جديداً عن الرياض بادئاً بروضة دعمي ثم ينتقل خلاله إلى المياه ، وجميع هذه في الكتاب المطبوع تحت عنوان أَسواق العرب وكان على الناشر (المستشرق الأوروبي) أَن يتنبه إلى تغير البحث فيفرد

كل بحث تحت عنوان خاص ولا يحشرها جميعاً في جريدة الأسواق ·

وسنذكر لك في هذا الكتاب الأسواق المهمة التي ترحل إليها العرب حاذفين منها مالا خطر له وقد بلغنا بها العشرين سوقاً ·

نستطيع أن نقسم هذه الأسواق أقساماً ثلاثة

١ — أسواق خاضعة لنفوذ أجنبي تدار بنظم خاصة وتتضاءل فيها الصبغة العربية كما نرى في الحيرة وهجر البحرين وعمان وغيرها من المواطن التي ترين عليها السيطرة الفارسية · وكما نرى في بصرى وأذرعات وغزة وأيلة وغيرها مما يدار بالإدارة الرومانية · والذي ينظر في هذه الأسواق عمال عرب يعيّنهم ولاة الفرس وولاة الرومان وهؤلاء العمال الذين يتولون السوق هم الذين إليهم أعشار أهلها

٢ — أسواق أنشأها العرب أنفسهم بحكم الحاجة فصارت مع الزمن تمثلهم أصدق تمثيل في عاداتهم في البيع والشراء والخصام والدين والزواج والحقوق · ولا يشرف عليها إلا سراة أهلها · وهي مرآة العرب في الجاهلية وبها نستطيع أن نعرف كل ما كان عليه العرب تقريباً في معاملتهم وعلائقهم بعضهم ببعض · وهي في أماكن لا أثر للنفوذ الأجنبي عليها ونمثل لهذا القسم بعكاظ · ولا عاشر في هذا القسم والعرب يتبايعون فيه ببيوع خاصة بهم ·

٣— أسواق ذات صبغة مختلطة نظراً لموقعها الجغرافي وهي التي

تكون على البحر كعدن وصحار ودبى ·· وفي هذه يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس ويضؤل فيها الطابع القومي بمقدار ما يقوى شأنها التجاري

ومن الواجب أن ننبه هنا إلى أن أسواقاً كثيرة كانت ولم يذكرها المؤلفون لأنهم اقتصروا على الأسواق الموسمية التي تكون من العام إلى قابل والتي تقصد من بعيد ، إذ من البدهي أن كل بلدة لها سوق ولها متاع أو محصول تختص به ، ومن القريب جداً أن يكون لكل قبيلة سوق محلية تقوم في وقت معين ، فكثيراً ما نجد حول كل ماء سوقاً صغيرة يقيمها الضاربون حوله كما نجد مثل ذلك في المحطات الصغرى التي تكون بين البلد والبلد وكما نجد أيضاً في كل مكان يسميه العرب روضة

وإنما عُني العلماء بالأسواق الكبرى العامة ولم يأبهوا لتلك الأسواق الضئيلة بل إنهم أهملوا أسواقاً كبرى تكون في المدن لأنها لا يرحل إليها إلا القليل منهم من صاحب حاجة أوغرض معين · فنجدهم أغفلوا مثلاً ذكر دارين وهي فرضة بالبحرين بها سوق يحمل المسك من الهند إليها واشتهرت هذه شهرة فائقة بتجارة العطر حتى صار معنى الداري (نسبة إلى دارين) هو العطار نفسه وحتى جاء في الحديث : « مثل الجليس الصالح مثل الداري ،

إن لم يحذك (يُعْطِك) من عطره عاقك من ريحه » قالوا
« الداري العطار . » وقال الشاعر

فلما اجتمعنا في العلاليّ بيننا ذكي أتى من أهل دارين تاجره

وهناك أمتعة اشتهرت بتجويدها قرى مخصوصة كرُدَيْنة وهي قرية على شط البحر في المشرق تنسب إليها الرماح فيقال الردينيات للرماح المصنوعة هناك كما يقال للرماح المصنوعة في الخط بالبحرين: (الخطية)

فلا شك أن مثل هذه الأماكن المشهورة يقصدها تجار هذا الصنف أو الراغبون فيه ، وتقوم له شبه أسواق دائمة إلا أنها غير عامة وهي قاصرة على ضرب واحد فقط ، فلهذا لم يعبأ بها المؤلفون

ثم نجدهم أغفلوا مواضع مهمة تقوم فيها أسواق قد لا تقل شأناً عن التي أفردوها بالذكر كالطائف وكأسواق العراق وكالسوق التي يقيمها النبط في المدينة أحياناً. فإنا نعلم أن الطائف مدينة قديمة جاهلية وهي « بلد الدباغ يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة » ولأهلها زراعة وتجارة وغنى، وربما قاربوا قريشاً في شأنها التجاري أما العراق فالظاهر أن للعرب فيها أسواقاً يرحلون إليها كما يرحلون إلى التي في الشام وخاصة الحيرة فإن

شهرتها في تاريخ العرب وأدبهم تنم عن مكانتها التجارية. ولقريش رحلات إلى سوق الحيرة وفيها تعلموا الكتابة ومنها انتشرت في العرب. وصاحبها النعمان يجهز سنوياً لطائمه إلى عكاظ وإلى اليمن. حتى إنا لنجد في بعض النصوص ما يدل على أن ضرائب منظمة تستوفى في أسواق العراق مما يباع قال الشاعر

أَفي كل أَسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

قال صاحب المخصص[1] « المكس انتقاص الثمن في البياعة ومنه أخذت المماكسة لأَنه يستنقصه . » وقيل « المكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في أسواق الجاهلية . ويقال للعشار صاحب المكس . » اه

أهملوا كل هذا كما أَهملوا أسواقاً ثانوية تقام في نجران وبدر ومنى وأَمثالها كثير لما قدمنا من فقدان الصبغة العامة فيها

وهذه جرائد بأسماء الأسواق وترتيبها عند كل من المؤلفين الستة الذين أَشرت إليهم آنفاً وكلها تبدأ بسوق دومة الجندل في ربيع الأول مع ذكر مواقيتها إن كان لها مواقيت وذكر عاشرها الذي يجبي الضرائب فيها إن كان لها عاشر

---

(١) ١٢ : ١٥٣

١ – اليعقوبي

	السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١	دومة الجندل	ربيع الأول	غسان أَو كلب
٢	المشقر	جمادى الأولى	تَمِيْم : رهط المنذربن ساوى
٣	صحار	١ رجب	
٤	دبى		الجلَنْدى
٥	الشحر		مهرة
٦	عدن	١ رمضان	
٧	صنعاء	١٥ رمضان	الأَبناء
٨	حضرموت		كندة
٩	عكاظ		
١٠	ذو المجاز		

٢– صفة جزيرة العرب للهمداني

	السوق	الزمن	العاشر
١	عدن		
٢	مكة		
٣	الجَنَد		
٤	نجران		
٥	ذو المجاز		
٦	عكاظ		
٧	بدر		
٨	مجنة		
٩	مِنى		
١٠	حَجْر اليمامة		
١١	هجر البحرين		

٣- الأزمنة والأمكنة: للمرزوقي

	السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١	دومة الجندل	ربيع الأول	أكيدر (وأحيانًا) قنافة الكلابي
٢	المشقر	١ـ٣٠ جمادى الآخرة	بنو عبدالله بن زيد: رهط المنذر بن ساوى
٣	صحار	١ رجب	الجلندى
٤	دبى	٣٠ رجب	»
٥	الشحر	١٥ شعبان	
٦	عدن	١—١٠ رمضان	الابناء
٧	صنعاء	١٥—٣٠ »	
٨	حضرموت	١٥ ذي القعدة	
٩	عكاظ	١٥ »	
١٠	ذو المجاز	١—٨ ذي الحجه	
١١	مجنّة		
١٢	نطاة خيبر		
١٣	حجر		
١٤	بصرى	بعد الحج	
١٥	دير أيوب	بعد سوق بصرى بـ ٣—٤٠ ليلة	
١٦	أذرعات		
١٧	الأسقى		

٤ – صبح الأعشى للقلقشندي

	السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١	دومة الجندل	١ ربيع الأول	أكَيْدر أو رؤساء كلب
٢	هجر	ربيع الآخر	المنذر بن ساوى
٣	عمان		
٤	أدم وقرى الشحر		
٥	عدن		
٦	حضرموت		
٧	صنعاء		
٨	عكاظ		

٥ — خزانة الأدب : للبغدادي [نقلا عن صاحب قبائل العرب]

	السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١	دومة الجندل	١ـ١٥ ربيع الأول	
٢	المشقر	١ جمادى الآخرة	
٣	صحار	١٠ـ١٥ رجب	
٤	الشحر	١٥ شعبان	
٥	صنعاء	١٥ رمضان	
٦	حضرموت	١٥ من ذي القعدة	
٧	عكاظ	١٥ـ٣٠ «	
٨	ذو المجاز	١ ـ٨ من ذي الحجة	
٩	نطاة خيبر		
١٠	حَجْر	١٠ـ٣٠ المحرم	

٦- بلوغ الأرب للألوسي

	السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١	دومة الجندل	ربيع الأول	
٢	هجر	ربيع الثاني	
٣	عمان	جمادى الأولى	
٤	المشقر	جمادى الثانية	
٥	حُباشة	رجب	
٦	صحار	١٠—١٥ رجب	
٧	الشحر	شعبان	
٨	عدن	١—١٥ رمضان	
٩	صنعاء	١٥ـ٣٠ «	
١٠	عكاظ	١—٢٠ من ذي القعدة	
١١	حضرموت	ذو القعدة	
١٢	مجنة	٢٠—٣٠ من ذي القعدة	
١٣	ذو المجاز	١ من ذي الحجة	

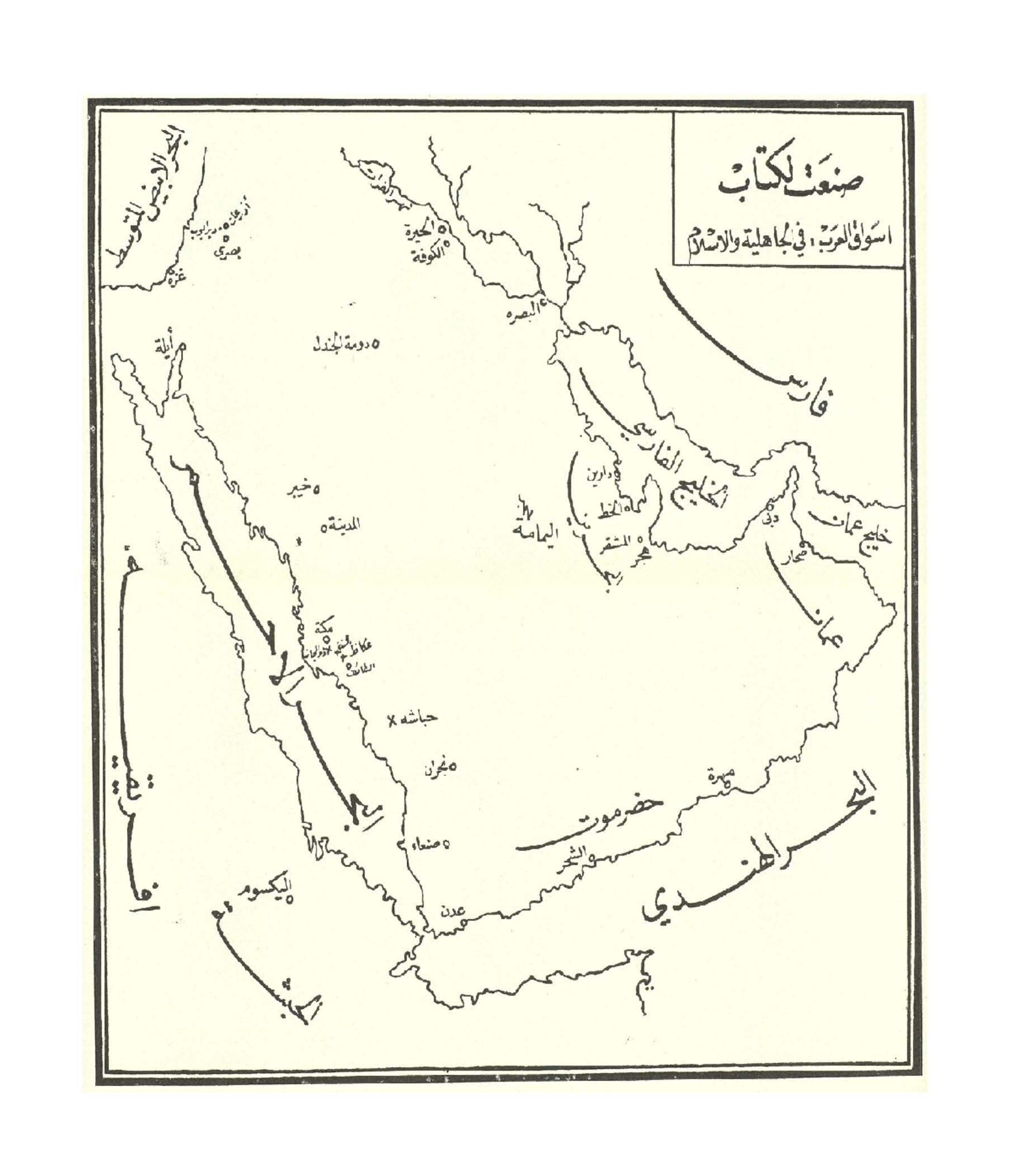
فهذه ست وعشرون سوقاً فإذا حذفنا منهـا خمسة انفرد بها الهمداني وهي بدر والجَنَد ومكة ومنى ونجران ، واثنين انفرد بها المرزوقي وهما أدم والأسقى ، وأضفنا إليها سوقاً مهمة أغفلها كلهم وهي سوق الحيرة وأضفنا كذلك السوق التي أنشئت في الإسلام وهي المربد ، بقي لنـا إحدى وعشرون سوقاً سنتعرض لها جميعاً بما تقتضيه مكانتهـا أما الأسواق الضئيلة الشأن فهي صورة مختصرة عما سنتحدث عنه ، وأما الخطيرة كمكة والمدينة فهي دائمية وليست بموسمية وفي ذكر الأسواق المتاخمة لها غنى عن التعرض لها

هذا والذي نلاحظه في اختلافهم في تاريخ قيام الأسواق أن العرب لم يكونوا يلتزمون كل سنة يوماً معينـاً لإقامة السوق ويوماً لتقويضها ، بل يتقدم هذا اليوم في بعض السنين ويتأخر في بعض وقد يُهرع أقوام إلى السوق قبيل ميعادهـا وقد يتخلف آخرون بعـد انقضائها إذا لم تنته أعمالهم وقد تختلف العادة سنة عن سنة ، فمن هنا كان هذا التفاوت اليسير

جدول عام لأسواق العرب عند المؤلفين الستة

الأسواق مرتبة على حروف الهجاء	(١) لليعقوبي ١: ٣١٣—٣١٤		(٢) صفة جزيرة العرب للهمداني		(٣) الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ٢: ١٦١—١٧٠		(٤) صبح الأعشى للقلقشندي ١: ٤١٠—٤١١		(٥) خزانة الأدب للبغدادي ٤: ٣٦٠—٣٦٢		(٦) بلوغ الأرب للآلوسي ١: ٢٦٤—٢٧٠	
	الترتيب	الزمن	الترتيب	الزمن	الترتيب	الزمن	الترتيب	الزمن	الترتيب	الزمن	الترتيب	الزمن
١ أدم							٤					
٢ أذرعات					١٦							
٣ الأمقى					١٧							
٤ بدر			٧									
٥ بُصرى					١٥							
٦ الجَنَد			٣									
٧ حُباشة											٥	رجب
٨ حَجْر اليمامة			١٢		١٣				١٠	١٠—٣٠ المحرم	١٥	١٠—٣٠ المحرم
٩ حضرموت	٨				٨	١٥ ذي القعدة	٦		٦	١٥ من ذي القعدة	١١	١٥ من ذي القعدة
١٠ دبا	٤	[ذكرت هنا: ردبا]			٤	٣٠ رجب						
١١ دومة الجندل	١	ربيع الأول			١	ربيع الأول	١	ربيع الأول	١	١٥ ربيع الأول	١	ربيع الأول
١٢ دير أيوب					١٤							
١٣ ذو المجاز	١٠		٥		١٠	١—٨ ذي الحجة			٨	١—٨ من ذي الحجة	١٣	١—٨ من ذي الحجة
١٤ الشحر	٥				٥	١٥ شعبان	٤		٤	١٥ شعبان	٧	١٥ شعبان
١٥ صُحار	٣	١ رجب			٣	١ رجب			٣	١٠—١٥ رجب	٦	١٠—١٥ رجب
١٦ صنعاء	٧	١٥ رمضان			٧	١٥—٣٠ رمضان	٧		٥	١٥ شعبان	٩	١٥—٣٠ رمضان
١٧ عدن	٦	١ رمضان	١		٦	١—١٠ رمضان	٥				٨	شعبان—رمضان
١٨ عُكاظ	٩		٦		٩	١٥ من ذي القعدة	٨		٧	١٥—٣٠ من ذي القعدة	١٠	١٠—٢٠ ذو القعدة أو ١—٣٠ شوال
١٩ عُمان							٣				٣	جمادى الأولى
٢٠ مجنة			٨		١١						١٢	٢٠—٣٠ ذو القعدة
٢١ المشقر	٢	جمادى الأولى			٢	١—٣٠ ج٢			٢	١ جمادى الآخرة	٤	١ جمادى الثانية
٢٢ مكة			٢									
٢٣ منى			٩									
٢٤ نجران			٤									
٢٥ نطاة خيبر					١٢				٩		١٤	بعد أيام الحج
٢٦ هجر			١١				٢	ربيع الآخر			٢	ربيع الآخر

ملاحظة: الترتيب عند الهمداني اتفاقي لا يحسب الزمن


صنعت لكتاب
أسواق العرب في الجاهلية والإسلام
البحر الأبيض المتوسط
أذرعات
بصرى
غزة
الحيرة
الكوفة
البصرة
دومة الجندل
أيلة
فارس
الخليج الفارسي
دارين
الخط
اليمامة
المشقر
هجر
خليج عمان
دبي
صحار
عمان
خيبر
المدينة
مكة
عكاظ
مجنة
ذو المجاز
الطائف
حباشه
نجران
صنعاء
عدن
حضرموت
مهرة
الشحر
البحر الهندي
اليكسوم

أسواق العرب

ا- في الجاهلية

سوق دومة الجندل

دُومة الجندل ويقال دوماء الجندل كلاهما بالضم [1] ، بلد يقع في نقطة متوسطة بين الشام والخليج الفارسي والمدينة ، على منتصف الخط الواصل بين العقبة والبصرة تقريباً بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة لعدم استقامة الطريق بينهما وهي في غائط من الأرض طوله خمسة فراسخ وفيها حصن « مارد » المشهور ، وإلى غربها عين تثج فتسقي ما به من النخل والزرع . وكانت خربة وروى ابن سعد نقلاً عن بعض أهل الحيرة في سبب بنائها : « أن أكيدر صاحبها وإخوته كانوا ينزلون دُومة الحيرة ، وكانوا يزورون أخوالهم من كلب فيتغربون عندهم ، فإنهم لمعهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق إلا بعض حيطانها وكانت مبنية بالجندل ، فأعادوا

---

(١) ونقل الفتح فيها صاحب النهاية، وفي الصحاح أن أصحاب اللغة يضمون وأصحاب الحديث يفتحون . هذا ودومة الجندل هي التي تعرف اليوم — على ما نقل لنا — بـ (الجوف) .

بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الحيرة[١] .»

وقال ياقوت « كان فيها قديماً حصن مارد ، وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل وقريب منها جبلا طيء وكانت بهذا الحصن بنو كنانة من كلب .»

وكان أكيدر يبعث بمن يتعرّض قوافل التجارة الذاهبة بين المدينة والشام ويظلم من يمر بهم من الضافطة (الذين يجلبون الميرة والطعام) ثم قوي شرهم حتى شاع أن في عزمهم الدنوّ من المدينة وكان ذلك في السنة الخامسة للهجرة ، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس واستخلف على المدينة وخرج في ألف من المسلمين يسير الليل ويكمن النهار ومعه دليل من بني عذرة حتى بلغوا دومة الجندل فتفرقوا وألقي الرعب في قلوبهم وأخذ من نعمهم وشائهم ورجع ولم يلق كيداً

والظاهر أن شرهم لم ينقطع عن تجار المدينة حتى اضطر الرسول إلى أن يرسل إليهم سرية عليها عبد الرحمن بن عوف وأوصاه حين دفع إليه اللواء بقوله « خذه[٢] يا بن عوف فاغزوا جميعاً في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تغدروا

---

(١) الطبقات ص ٦١ (٢) سيرة ابن هشام (٣ : ٤٤٣)

ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم »
وقال له « إن استجابوا لك فتزوج بنت ملكهم »

سار عبد الرحمن حتى بلغ دومة الجندل فدعا أَهلها إلى الإسلام فأسلم رئيسهم الإصبع بن عمرو الكلبي وأسلم معه ناس كثير من قومه وتزوج عبد الرحمن ابنته (تماضر) وبقي على الجزية هو ومن معه

إلا أن أكيدر صاحب دومة وعاملها لهرقل بقي على تعرضه للسابلة من تجار المدينة ولعل لمكانة سوق دومة الجندل وكثرة التجار بها وعدم تعريج أَحد من المدينة عليها دخلاً في هذا التعرّض الذي لا يبعد أَن يكون للمنافسة التجارية أَثر فيه غير قليل، وأَراد الرسول إقرار الأمن في تلك الربوع فدعا خالد بن الوليد وبعثه على رأس سرية إلى أكيدر هذا، فلما بلغ الركب ضاحية دومة الجندل وجدوا صاحبها في نفر من قومه يتصيّدون فأسروا أكيدر وقتلوا أَخاه ورجعوا إلى المدينة بأسيرهم، فحقن له رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه وصالحه على الجزية ثم خلّى سبيله ورجع إلى بلده وقد كتب له رسول الله هذا الكتاب:

« بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله لأكيدر دومة حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن

الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكنافها أن لنا الضاحية من الضَحْل والبَوْر والمعامي وأغفال الأرض والحلْقة والسلاح والحافر والحصن، ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور، ولا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم ولا يحظر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها، عليكم بذلك عهد الله والميثاق، ولكم به الصدق والوفاء، شهد الله ومن حضر من المسلمين[1] .»

وهذا الصلح تجاري بنتيجته لما ضمن من منافع للمسلمين، كما هو تجاري بسببه أيضاً إذ لولا تعرض أهل دومة لمن يجتاز بقربهم من التجار ما اضطر الرسول إلى إرسال سراياه لتأمين الطريق وتأديب أهل العيث والفساد

وبقي القوم على صلحهم حتى كانت سنة اثنتي عشرة للهجرة

---

(١) انظر الواقدي وشرح المواهب للزرقاني ٣: ٣٦١

الضاحية: البارز من أطراف الأرض. والضَحْل: الماء القليل. والبَوْر: الأرض التي لم يؤخذ خراجها. والمعامي وأغفال الأرض: ما لا أثر لهم فيها من عمارة أو نحوها. والحلقة: الدروع والسلاح. والحافر: الخيل والبراذين والحمير. والحصن: دومة الجندل. والضامنة: النخل الذي معهم في الحصن. والمعين: الظاهر من الماء الدائم. ولا تعدل سارحتكم: لا تنحى مواشيكم عن الرعي ولا تحشر إلى المصدّق (عامل الزكاة) والفاردة: ما لا تجب فيه الصدقة.

ففتحها خالد عنوة في خلافة الصديق وظفر العرب بأكيدر خارج دومة فأمر خالد بقتله (١) . وكان صاحب صلحهم أكيدر ذا شهرة في قبائل العرب توازي شهرة حصنه دومة الجندل وشهرة حصن المشقر . والعرب تنظر إلى أصحاب الحصون نظرة إعظام وإعجاب بقوّتهم ، ولما ذكر لبيد فعل بنات الدهر لم يعظ قومه إلا بأصحاب الحصون فكان أكيدر دومة هذا أحد من ضربهم مثلاً فقال :

وأَعصفن بالدوميّ من رأس حصنه وأنزلن بالأسباب رب المشقر

يعني بالدومي أكيدر ، وذكر دومة الجندل يشغل صفحات غير قليلة من تاريخ المسلمين لأنه فيها التقى الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري وكان منهما ما هو معروف

تنزل قبائل العرب في الجاهلية هذه السوق في أول يوم من ربيع الأول للبيع والشراء وكان بيعهم فيها بيع الحصاة (وقد تقدم في الكلام على بيوع الجاهلية) .

ويجاور هذه السوق من قبائل العرب قبيلتا كلب وجديلة طيئ . وكانت كلب أكثر العرب قناً فكانوا يفتحون في هذه السوق حوانيت من شَعَر يجعلون فيها عبيدهم وإماءهم وكانوا — على عادة بعض العرب — يكرهون فيها فتياتهم على البغاء

---

(١) تاريخ الطبري ١ : ٢٠٦٥

ويأخذون لأنفسهم كسب أولئك البغايا من إمائهم . فلما كان الإسلام وحرّم الله هذه العادة القبيحة بقوله تعالى :

« وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا . » ، تنزّه العرب عن هذه التجارة التي كانوا عليها في الجاهلية وتجاوز الله عما كان منهم قبل الإسلام

يشرف على هـذا الموسم أمراء من العرب وكان رؤساء السوق غالبـاً إما من كلب وإما من غسان ، أي الحيين غلب خضع له الآخر وكان مكس هذه السوق لمن يشرف عليها قال الألوسي

« كان أكيدر صاحب دومة الجندل يرعى الناس ويقوم بأمرهم أول يوم فتقوم سوقهم إلى نصف الشهر . وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشرهم ويتولى أمرهم يومئذ بعض رؤساء بني كلب فتقوم سوقهم إلى آخر الشهر

فكان إذن بين أكيدر وقبيلة كلب تنافس شـديد على الاستيلاء على هذه السوق ومكسها ، فأكيدر يتولى أمرها حيناً ويعشر من بها ، والكلبي حيناً يستأثر بالحكم فيها والاضطلاع بشؤونها أما الغريب حقّاً فهو ما ذكره المرزوقي من حلٍ لهذا الخلاف والتطاحن بين الملكين وهو إن صح — وليس ببعيد —

أَطلعنا على صورة طريفة من عقلية القوم وعاداتهم قال :

« وكان ملكها (يعني سوق دومة الجندل) بين أكيدر العبادي من السَكون ، وبين قنافة الكلبي . وكان غلبة الملكين بأَن يتحاجيا !! فأيهما غلب صاحبه بما يلقي عليه تركه والسوق يفعل بها ما يشاء ولم يبع فيها أحد من الشام ولا أهل العراق إلا بإذنه ، ولم يشتر فيها ولم يبع حتى يبيع الملك كل شيءٌ يريد بيعه مع ما كان إليه من مكسها »

فأنت ترى أَن الأمر ذو خطر وفوائد كثيرة يستحق هذا التطاحن عليه

يدور نشاط هذه السوق حتى منتصف ربيع الأول وتغص بمن يؤمها من أطراف الشام والعراق وسائر الجزيرة . وهي من الأسواق الكبرى للعرب حتى إنهم ليلقون في سيرهم إليها نصباً كبيراً لوعورة الطريق والتعرض للأُخطار وفقدان الأمن ، ولا يحملهم على ذلك كله إلا ما تغريهم به هذه السوق من ربح وفائدة قال المرزوقي :

« كانت قريش تخرج إليها قاصداً من مكة ، فإن أخذت على الحزن لم تتخفر بأحد من العرب حتى ترجع . . . وكانوا إذا

خرجوا من الحزن أَو على الحزن وردوا مياه كلب ، و كانت كلب حلفاء بني تميم فإذا سفلوا عن ذلك أخذوا في بني أسد حتى يخرجوا على طيّ فتعطيهم وتدلهم على ما أرادوا لأن طيئًا حلفاء بني أسد ، فإذا أخذوا طريق العراق تخفروا ببني عمور ؟ مرثد من بني قيس بن ثعلبة فتجيز لهم ذلك ربيعة كلها [1] .»

ثم تفتر حركتها وتأخذ بالاضمحلال حتى آخر الشهر ، إذ يفترق أَهلها وموعدهم إليها من قابل، شهر ربيع الأول.

(١) الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٦١

سوق المشقر

المشقر حصن بالبحرين لعبد القيس وهو قريب من هجر وأَهله أَزد يمانون كما سيأتي في الكلام على سوق عمان ، جاء في مراصد الاطلاع

« المشقر حصن بين نجران والبحرين ، يقال إنه من بناء طسم ، وهو على تل عال ، يقابله حصن بني سدوس ، ويقال إنه بناء سليمان ، وقيل هو حصن بالبحرين لعبد القيس ، يلي حصناً آخر لهم يقال له الصفا قبل مدينة هجر ، والمسجد الجامع بالمشقر ؛ وبينهما نهر يجري إلى جانب مدينة محمد بن الغمر يقال له العين .» فالظاهر من هذا الكلام أَن هذا الحصن وثيق البنيان ، ذو خطر ، حتى رفعوا نسبة بنائه إلى سليمان ، ومعظم العاديّات يردها بعض رواة الأَخبار من العرب إلى سليمان ، وحتى ضرب به المثل في المنعة والإحكام قال المخبّل

فلئن بنيت لي المشقر في صعب تقصّر دونه العصم[1]

---

(١) العُصْم جمع أعصم وهو من الوعول ما في ذراعيْه أو في أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر

لَتَنقِبَنْ عني المنية إ ن ّ الله ليس كعلمه علم

وشهرة الحصن مستفيضة على أَلسنة العرب ذكره كثيرون منهم فمن ذكره الأعشى القائل

فإن تمنعوا منا المشقر والصفا فإنا وجدنا الخط جماً نخيلها

وذكره أبو ذؤيب الهذلي في مرثيته لبنيه فقال :

حتى كأَني للحوادث مروة بصفا المشقر كل يوم تُقرَع

* * *

تقوم في المشقر سوق للعرب تبتدئ من أول جمادى الآخرة وتستمر إلى سلخه فتنفض ويغادرها الناس إلى جمادى من قابل ، وينزلها أَخلاط من جميع أَحياء العرب « وكانت أَرضها معجبة لا يراها أحد فيصبر عنها » فلها صفات هجر وخصبها إذ هي جزء منها ، وقد علل المرزوقي اختلاف قبائل الناس في هذه النواحي بقوله

« وكانت لا تقدمها لطيمة إلا تخلّف منهم بها ناس ، فمن هناك صار بهجر من كل حي من العرب ومن غيرهم (١) . »

وكان بيعهم في هذه السوق بالملامسة والإيماء والهمهمة خوف الحلف والكذب !! وقد مر بك تفسير هذه البيوع في محله .

(١) الأزمنه والأمكنه ٢ ١٦٣

كثر ذكر المشقر في كتب الأدب ، فكان امرؤ القيس الشاعر ينزله ، وفيه كانت وقعة من الوقائع المشهورة في أيام العرب إذ حاصر كسرى بني تميم فيه ، وأغلق عليهم بابه ، ثم قتل المقاتلة ، وسبى الذراري بعد أن امتنعوا فيه مدة وذكر صاحب الأغاني ما يستدل منه على أن كسرى كان له النفوذ على هذه السوق (شأنه في سوق هجر وعمان) يقيمها متى شاء ويعطلها متى شاء قال

«أمر كسرى بالطعام فادخر في المشقر ، وقد أصابت بني سعد سنة شديدة ، والطعام عنهم محبوس ، وكان المشير على كسرى بذلك هوذة ، وكان له عليهم تارات فقال لكسرى : أيها الملك « احبس الميرة عنهم ، فإذا فعلت ذلك بهم سنة أرسلت معي جنداً من أساورتك فأقيم لهم السوق فإنهم يأتونها ، فتصيبهم عند ذلك خيلك » ففعل كسرى وحبس عنهم الأسواق في سنة مجدبة ثم سرح إلى هوذة فأتاه ... الخ[1]

---

(١) ج ١٦ ص ٧٨ والأساورة جمع أسوار وهو : قائد الفرس والجيد الرمي بالسهام ، والثابت على ظهر الفرس ، والخبر كما في الأغاني ، ١٦ ٤٥ عن ابن الكلبي

بعث كسرى إلى عامله باليمن بعير وكان باذان على الجيش الذي بعثه كسرى إلى اليمن وكانت العير تحمل نبعاً فكانت تبذرق (تخفر) من المدائن =

= حتى تدفع إلى النعمان ويبذرقها النعمان بخفراء من بني ربيعة ومضر حتى يدفعها إلى هوذة بن علي الحنفي فيبذرقها حتى يخرجها من أرض بني حنيفة ثم تدفع إلى سعد وتجعل لهم جعالة فتسير فيها فيدفعونها إلى عمال باذان باليمن فلما بعث كسرى بهذه العير قال هوذة للأساورة انظروا الذي تجعلونه لبني تميم فأعطونيه فأنا أكفيكم أمرهم وأسير فيها معكم حتى تبلغوا مأمنكم ، فخرج هوذة والأساورة والعير معهم من هجر ، حتى إذا كانوا بنطاع بلغ بني سعد ما صنع هوذة فساروا إليهم وأخذوا ما كان معهم واقتسموه وقتلوا عامة الأساورة وسلبوهم وأسروا هوذة بن علي فاشترى هوذة نفسه بثلثمائة بعير ، فساروا معه إلى هجر فأخذوا منه فداءه ففي ذلك يقول شاعر بني سعد

ومنا رئيس القرم ليلة أدلجوا بهوذة مقرون اليدين إلى النحر
وردنا به نخل اليمامة عانياً عليه وثاق القد والحلق السمر

فعمد هوذة عند ذلك إلى الأساورة الذين أطلقهم بنو سعد وكانوا قد سلبوا فكساهم وحملهم ثم انطلق معهم إلى كسرى ، وكان هوذة رجلاً جميلاً شجاعاً لبيباً فدخل عليه فقص أمر بني تميم وما صنعوا فقال كسرى لهوذة رأيت هؤلاء الذين قتلوا أساورتي وأخذوا مالي أبينك وبينهم صلح ؟ ! قال هوذة « أيها الملك بيني وبينهم حساء الموت وهم قتلوا أبي . » فقال كسرى : « قد أدركت ثأرك ، فكيف لي بهم ؟ » قال هوذة : « إن أرضهم لا تطيقها أساورتك وهم يمتنعون بها ، ولكن احبس عنهم الميرة فإذا فعلت ذلك بهم سنة أرسلت معي جنداً من أساورتك فأقيم لهم السوق فإنهم يأتونها فتصيبهم عند ذلك خيلك =

من قبائل العرب تميم وعبد القيس وليس لها ما لغيرهــا من الأَمن والحرمة ، وجميع من يقصدها لا يستغني عن خفارة يسير في حمايتها وملوك هذه السوق الذين يعشرون الناس فيها أناس من بني عبد الله بن زيد رهط المنذر بن ساوى من بني تميم يسيرون هنا سيرة الملوك في دومة الجندل ، وهم خاضعون لملك فارس « يستعملهم عليها كما يستعمل بني نصر على الحيرة وبني المستكبر على عمان [(١)] » ومن يوافي هذه السوق من فارس خلق كثير :

ولا تُعرض تجارة ولا يقوم بيع حتى تنفق تجارة الملك بتمامها كما هو الشأن في سوق دومة الجندل ، ولا ريب أن ملوك هذه السوق ترضخ إلى حكومة فارس مما يحصلون عليه بالنصيب الأُوفى

= وأمر بالطعام فادخر بالمشقر ومدينة اليمامة وقد أصابت النــاس سنة شديدة ثم قال من دخلها من العرب فأميروه ما شاء فبلغ ذلك الناس . وكان أعظم من أتاها بنو سعد فنادي منادي الأُساورة « لا يدخلها عربي بسلاح » فأقيم بوابون على باب المشقر فإذا جاء الرجل ليدخل قالوا « ضع سلاحك وامتر واخرج من الباب الآخر » فيذهب إلى رأس الأساورة فيقتله

فيزعمون أن خيبري بن عبادة قال « يا بني تميم ما بعد السلب إلا القتل وأرى قوماً يدخلون ولا يخرجون . » فانصرف منهم من انصرف من بقيتهم وقتلوا بعضهم وتركوا بعضاً محتبسين عندهم اهـ

(١) الأزمنه والأمكنه ج ٢ ص ١٦٣

سوق هجر

يتناول اسم هجر أرض البحرين عامة ، وهي واليمن وعمان من أخصب بلاد العرب وأكثرها رخاء ، وذكر ياقوت في معجمه أَنها قاعدة البحرين موقع هذه البلدة في جنوب الخليج الفارسي ، وتكون على اتصال دائم ببلاد الهند وفارس ، يجلب إليها مختلف الأصناف ، ولأهلها أسباب أخر للمعاش غير التجارة ، كالغوص على اللوءلوء ، وهم لا يزالون على ذلك إلى اليوم كسائر سكان البحرين ، والنسبة إليها هجري على القياس وهاجري على غير قياس قال الشاعر

وربّت غارة أوضعت فيها　　كسحّ الهاجريّ جريم تمر [1]

وهجر مشهورة بكثرة وبائها حتى قال عمر بن الخطاب « عجبت لتاجر هجر وراكب البحر » يريد أَنهما سواء في

---

(١) جرم النخلة قطعها ، والجريم التمر اليابس ؛ وهجر أيضاً قرية من قرى المدينة تنسب إليها القلال الهجرية ، انظر اللسان والتاج وياقوت .

التعرض للخطر . وصارت ديار القرامطة فيما بعد ، وقد احتف بها قبائل كثيرة من مضر

وهي أكثر بلاد العرب تموراً وأطيبها ، وأروج تجاراتها التمر ، به عرفت وبها اشتهر حتى ضرب به المثل فقالوا « كمبضع تمر إلى هجر » كما قالوا : « كجالب الدر إلى البحر » قال أبو عبيد : « هذا من الأمثال المبتذلة ، ومن قديمها : وذلك أن هجر معدن التمر والمستبضع إليه مخطئ . » ونخلها كثير ملتف غاية في الجودة والطيب قال الشاعر يذكر إبلاً خرجت للميرة إلى هجر فرجعت بغير كفٍ ولا طعام

حُبِسن بين رملة وقُفّ وبين نخل هجر الملتف
ثُمّتَ أصدرن بغير كف [1]

وقد استفاض على ألسنة الناس ذكر تمرها والثناء على جودته وطيبه ، وملئت كتب الأدب بالإشارة إليه ، فهذا رسول جميل إلى بثينة يبلغها ما أرسل به فتتحفه بتمر من تمر هجر [2]

وذاك أعرابي حضر وليمة لعبد الملك بن مروان عجز الفصحاء عن وصف ما حوت من الأطايب والألوان فقيل له : « هل رأيت

---

(١) ياقوت ، والقُف ما ارتفع من الأرض وحجارة غاص بعضها ببعض لا تخالطها سهولة وهو جبل إلا أنه غير طويل . والكفّ : بقلة الحمقاء والنعمة .
(٢) الأغاني ٢ : ١٣٨

يا أعرابي طعاماً أطيب وأكثر من هذا ؟ » فقال «أما أكثر فلا وأما أطيب فنعم ..» وذكر طعاماً فيه تمر هجر[1]

(١) ذكر الخبر مفصلاً صاحب الأغاني ٧ : ٥٠ فقال

صنع عبد الملك بن مروان طعاماً فأكثر وأطاب ودعا إليه الناس فأكلوا فقال بعضهم ما أطيب هذا الطعام ، ما نرى أن أحداً رأى أكثر منه ولا أكل أطيب منه . فقال أعرابي من ناحية القوم : أما أكثر فلا وأما أطيب فقد والله أكلت أطيب منه وطفقوا يضحكون من قوله .

فأشار إليه عبد الملك فادني منه ، فقال ما أنت بمحق فيما تقول إلا أن تخبرني بما يبين به صدقك فقال نعم يا أمير المؤمنين

بينا أنا بهجر في ترب أحمر في أقصى حجر ، إذ توفي أبي وترك كلاً وعيالاً وكان له نخل ، فكانت فيه نخلة لم ينظر الناظرون إلى مثلها كأن ثمرها أخفاف الرباع ، لم ير تمر قط أغلظ ولا أصلب ولا أصغر نوى ولا أحلى حلاوة منها . وكانت تطرقها أتان وحشيه قد ألفتها تأوي الليل تحتها فكانت تثبت رجليها في أصلها وترفع يديها وتعطو بفيها فلا تترك إلا النبذ والمتفرق فأعظمني ذلك ووقع مني كل موقع فانطلقت بقوسي وأسهمي وأنا أظن أني أرجع من ساعتي فمكثت يوماً وليلة لا أراها حتى كان السحر فأقبلت فتهيأت لها فرشقتها فأصبتها وأجهزت عليها ثم عمدت إلى سرتها فاقتربتها ، ثم عمدت إلى حطب جزل فجمعته إلى رضف وعمدت إلى زندي فقدحت وأضرمت النار في ذلك الحطب وألقيت سرتها فيه وأدركني نوم السبات فلم يوقظني إلا حر الشمس في ظهري فانطلقت إليها فكشفتها وألقيت ما عليها من قذى أو سواد او رماد ثم قلبت مثل الملاءة البيضاء ، فألقيت عليها من رطب تلك النخلة المجزّعة والمنصفة =

وليس هذا التمر معروفاً عند الأدباء وحدهم ، بل إن ذكره لابَس مسألة نحوية مشهورة ، فما على الأرض نحوي إلا يعرف لهجر تمرها ، فقد أتى خلف الأحمر ويحيى اليزيدي أبا المهدي : أعرابياً فصيحاً حجة ، وكان به عارض فوجداه يصلي فلما التفت قال « ما خطبكما ؟ » قالا كيف تقول ليس الشرابُ إلا العسلُ ». فقال « فما يصنع سودان هجر ؛ مالهم شراب غير هذا التمر (١) ».

= فسمعت لها أطيطاً كتداعي عامر وغطفان ثم أقبلت أتناول الشحمة واللحمة فأضعها بين التمرتين وأهوي إلى فمي ، فيما أحلف أني ما أكلت طعاماً مثله قط . فقال له عبد الملك لقد أكلت طعاما طيباً الخ

(١) والقصة على التمام ذكرها ابو علي القالي في أماليه ٣ ٣٩ قال : حدثنا أبو حاتم قال سمعت الأصمعي يقول جاء عيسى بن عمر الثقفي ونحن عند أبي عمرو بن العلاء فقال يا أبا عمرو ، « ما شيءٌ بلغني عنك تجيزه ؟ » قال « وما هو ؟ » قال « بلغني عنك أنك تجيز : ليس الطيبُ إلا المسكُ بالرفع » فقال أبو عمرو « نمت يا أبا عمر وأدلج الناس ، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ، وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع ، » ثم قال أبو عمرو (قم يا يحيى يعني — اليزيدي — ، وأنت يا خلف — يعني الأحمر — فاذهبا إلى أبي المهدي فإنه لا يرفع ، واذهبا إلى المنتجع ولقّناه النصب فإنه لا ينصب »

قال فذهبا فأتيا أبا المهدي فإذا هو يصلي ، وكان به عارض وإذا هو يقول : « لقد أخسأناه عني » ثم قضى صلاته والتفت إلينا وقال : ما =

ولهجر شأن آخر في آداب اللغة العربية غير هذا المثل المضروب وتلك القاعدة النحوية ، إذ في دِهاسها[1] هلك المهلهل ، أول من هلهل الشعر وأرق نسجه ، مات عطشاً في حمارّة القيظ (الأغاني ٦ : ١٢٨) ومن الغريب أن سبب موته هو خمر هجر هذه وذلك أن عمرو بن مالك ومهلهلاً التقيا في خيلين من غير مزاحفة في بعض الغارات بين بكر وتغلب ، فانهزمت خيل مهلهل وأدركه عمرو بن مالك فأسره فانطلق به إلى قومه وهم في نواحي هجر ،

= خطبكما ؟ قلنا « جئناك نسألك عن شيءٍ » ، قال « هاتيا » ، فقلنا : « كيف تقول ليس الطيب إلا المسكُ ؟ » فقال : « أتأمراني بالكذب على كبرة سني ؟ فأين الجاديُّ ؟ وأين كذا ؟ وأين بَنّة الإبل الصادرة ؟ » فقال له خلف « ليس الشرابُ إلا العسلُ » فقال « فما يصنع سودان هجر ؟ ما لهم شراب غير هذا التمر » . قال اليزيدي فلما رأيت ذلك منه قلت له : ليس ملاكُ الأمر إلا طاعةُ الله والعملُ بها ، فقال « هذا كلام لا دخل فيه ، ليس ملاك الأمر إلا طاعةَ الله والعملَ بها » . فقال اليزيدي « ليس ملاكُ الأمر إلا طاعةُ الله والعملُ بها » فقال : « ليس هذا لحني ولا لحن قومي » . فكتبنا ما سمعناه منه ثم أتينا المنتجع فأتينا رجلا يعقل فقال له خلف « ليس الطيب إلا المسكَ » فلقنّاه النصب وجهدنا فيه فلم ينصب وأبى إلا الرفع

فأتينا أبا عمرو فأخبرناه وعنده عيسى بن عمر لم يبرح ، فأخرج عيسى بن عمر خاتمه من يده وقال : « ولك الخاتم بهذا والله فقت الناس » . اه .

(١) الدهاس المكان السهل ليس برمل ولا تراب .

فأحسن إساره ، ومر عليه تاجر يبيع الخمر ، قدم بها من هجر وكان صديقاً لمهلهل يشتري منه الخمر ، فأهدى إليه وهو أسير زق خمر ، فاجتمع إليه بنو مالك فنحروا عنده بكراً وشربوا عند مهلهل في بيته ـ وقد أفرد له عمرو بيتاً يكون فيه ـ فلما أخذ منهم الشراب تغنّى مهلهل فيما كان يقوله من الشعر وينوح به على كليب ، فسمع ذلك عمرو بن مالك وهاج تغنّيه كامن الغيظ في نفسه فقال إنه لريّان ، والله لا يشرب ماء حتى يرد ربيب (وربيب هذا جمل كان لعمرو بن مالك ، وكان يتناول الدِّهاس من أجواف هجر فيرعى فيها غباً بعد عشر في حمارّة القيظ) فأشفق إخوان عمرو من هذا القسم وخافوا أن يزيد الشر بين الحيّين إن هلك مهلهل ؛ فأسرعت ركبانهم وخرجت في طلب البعير ربيب ، وهم حراص على ألا يقتل مهلهل ، فلم يقدروا على البعير حتى مات مهلهل عطشاً ونحر عمرو يومئذ ناقة مسنة فأسرج جلدها على مهلهل وأخرج رأسه

وهكذا ذهب مهلهل من جراء نشوة من خمر هجر[1] ، وكم أفقدت الخمر الناس رؤوسهم وسادتهم ، وكم كانت نذير الشر

---

(١) في الجزء الأول من مسالك الأبصار فصل عن حانات هجر المشهورة ، فارجع إليه ثمة

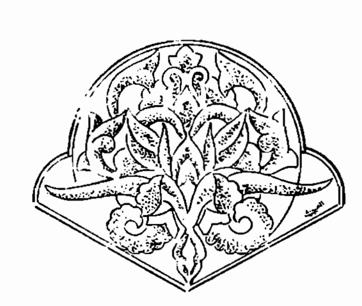
والشؤم منذ الزمن الأقدم ، فلنذكرنّ هجر وخمرها ، وهـذه الميتة الروائية كلما ذكرنا المهلهل وما رقق من شعر

تهبط العرب هذه السوق ولعلها كانت أكثر مكانة من دومة الجندل ، لأنها فرضة يجدون فيها من أصناف التجارات التي يأتيهم بها تجار الهند وفارس مالا يجدون في تلك ، ولأن بها من التمر ما طبّقت شهرته الآفاق ، وضرب في الجودة مثلا في البلاد ؛ وليس ذلك بقليل

وكان بها عـدا ذلك ضروب من البضائع ، فعلى مقربة منها « الخط » المشهورة برماحها وفي (رياض الصالحين ص ٤٤٩) أن سويد بن قيس قال « جلبت أنا ومخرمة العبدي بزًّا من هجر ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فساومنا سراويل . » فأنت ترى أنه يجلب منها بزّ يباع في المدينة وكان كسرى يرسل إلى سوق هجر من تجـاراته يرسل إليها لطائم فيها الطيب فيباع فيها ثم ترجع موقرة عروضاً وتمراً وحدث مرة أن أغارت بنو تميم على لطيمة لكسرى فيها مسك وعنبر وجوهر كثير فأرسل جيشاً أوقع بهم فأخذ الأموال وسبى الذراري بمدينة هجر

وسميت تلك الوقعة « يوم الصفقة [1] » . ولعل نفوذ كسرى في
هذه السوق كان غير ضئيل

تقصد العرب هذه السوق بعد انفضاضهم من سوق دومة
الجندل ، فإذا أهلّ ربيع الآخر انتقلوا إليها فقامت سوقها
وينظر في أمرها المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم ، يتولى
أمرها ويعشر الناس فيها ، وهو ملك البحرين عامة



(١) انظر الخبر مفصلاً في العقد الفريد ٣ : ٣٥٤

سوق عُمان

كورة عربية في جنوب الخليج الفارسي تمتد على ساحل بحر اليمن ، وتشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع ، وهي شديدة الحرارة حتى إن حرها يضرب به المثل

وبها فواكه جُرومية[1] (كالموز والرمان والتين ونحو ذلك) ولعل نخيلها متميز من غيره ، فقد ذكروا أن بالبصرة نخلة يقال لها (العُمانية) لا يزال عليها السنةَ كلها طلع جديد وكبائس مثمرة وأخرى مرطبة قيل إنها سميت بعمان بن نفثان بن سبأ أَخي عدن[2] وقيل من عمن يعمَن إذا أقام ، وقد اشتقوا منها فعلاً فقالوا أعمن وعمّن إذا أتى عمان ، قال العبدي

فإن تتْهموا أُنْجد خلافاً عليكمُ وإن تُعْمنوا مستحقبي الحر أعرق

وعمان كغيره من أعلام الأمكنة تصرف ولا تصرف ، وبكليهما ورد الشعر ، فمن أمثلتها غير مصروفة قول الشاعر

أحب عمان من حبي سليمى وما عهدي بحب قرى عمان

(١) مسالك الممالك للاصطخري . (٢) تاج العروس

عدها الهمداني في (صفة جزيرة العرب ص ٤٨) من مخاليف اليمن ، نزلها من الأزد على قبائل يحمد وحدان ومالك والحارث وعتيك وجُديد (ص ٢١١) ، واستشهد الهمداني على قوله بشواهد من الشعر

وأَزدُها البحران والسيف[1] كله ... وأرض عمان بعد أَرض المشقر[2]
وغسان الذين هم استتبوا ... قبائلهم بأَطراف البلاد[3]
وحيا منهم نزلوا عمانًا ... أراهم لم يهموا بارتداد

وغسان من الأزد كما هو معلوم ، واستشهد أَيضاً بهذا الشاهد وهو يريد الأزد طبعاً

فأقرت قرارها بعمان ... فعمان محل تلك الحماة[4]

وتضرب بها العرب المثل في بعدها لأنها في أقصى الجزيرة إلى الشرق والجنوب تفصلها عن اليمن صحراء الأحقاف وهي بعيدة عن الحجاز والعراق والشام

ذكر ياقوت أن الحسن بن عادية قال : لقيت عبد الله بن عمر فقال « من أي بلد أنت ؟ » قلت « من عمان » قال « أفلا أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » قلت « بلى » قال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) سِيف البحر ساحله (٢) ٢٠٦ (٣) ٢٠٧ (٤) ٢١٠

يقول « إني لأعلم أرضاً من أرض العرب يقال لها عمان على شاطئ البحر الحجة منها أفضل من حجتين من غيرها » ومن المفسرين من ذهب إلى أن المقصود بقوله تعالى « وَعَلَىٰ كُلِّ ضامِرٍ يَأْتينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميقٍ . » عمان

ولو عرف الشاعر أبعد منها لذكره محلّها في قوله يهجو قوماً :

لو يسمعون بأكلة أو شربة بعمان أصبح جمعهم بعمان

والظاهر أنهـا على بعدها لم تكن تخلو من أخلاط القبائل ومختلف الأمم ، شأن كل فرضة تجارية ، فلم تقتصر على الأزد الذين روينا لك فيهم ما ذكره الهمداني ، لأنهـا أقرب بلاد العرب من الهند وليس بينها وبين فارس إلا المضيق فكان فيها النزلاء الغرباء من هؤلاء ، عدا من يقصدها من العرب للتجارة فيقيم فيها ، وقد ظلت تحت نفوذ الفرس الفعلي ، وكان ملوك فارس هم الذين يعينون عليها الأمراء فاستعملوا بني المستكبر — على رواية المرزوقي — وقد تقدم أن لهم نفوذاً على هجر وعلى المشقّر كما سيأتي فتكون فارس قد بسطت سلطانها على سواحل الخليج الفارسي كله وعلى سواحل بحر اليمن حين أرسلوا الأحرار فطردوا الحبشة منها ، وبذلك يكون لهم نصف سواحل جزيرة العرب ، وما زالت الفرض والشواطئ عرضة للأطماع ينزلها كل

قوي ، فكيف إذا كانت خصبة فيها الغنى كعمان ، وقد جاء في الحديث : « من تعذّر عليه الرزق فعليه بعمان . » فتجاراتهم كثيرة ومعايشهم وافرة ، وفيها ذخائر متنوعة ومعادن جيدة وخصب ورخاء ، فجمعوا بذلك أسباب الثروة والغنى فلم يكن من الغريب طمع فارس فيهم

وقد استتبع مركز عمان هذا كثرة الأعاجم فيها واختلاط أهلها بهم ، حتى أدخل ذلك الضيم على لغتهم فلم يعرفوا في العرب بالفصاحة . ولما رأى أبو عمرو بن العلاء أعرابياً من عمان فصيحاً لم يكتم استغرابه من حسن وصفه لبلده وفصاحة منطقه ، حتى عرف أن الأعرابي بعيد عن مراكز الاختلاط تلك ، ذكر القالي (٣ : ١٦) عنه أنه قال

لقيت أعرابيـاً بمكة ، فقلت له « ممن أنت ؟ » قال : « أسدي » قلت « ومن أيهم ؟ » قال: « نهدي . » قلت من أي البلاد ؟ قال « من عُمان . » قلت « فأنّى لك هـذه الفصاحة ؟ قال : « إنا سكنا قطراً لا نسمع فيه ناجخة التيار . » قلت : « صف لي أرضك » قال : « سِيف أفيَح ، وفضاء صحصح ، وجبل صروح ، ورمل أصبح ، قلت : « فما مالك ؟ » قال « النخل . » قلت : « فأين أنت عن الإبل ؟ » قال : « إن النخل

حملها غذاء ، وسعفها ضياء ، وجذعها بناء ، وكربها صلاء ، وليفها رشاء ، وخوصها وعاء وقَرْوها إناء[١] » وذكر صاحب مراصد الاطلاع أن أهلها خوارج أَباضية

* * *

تقصد العرب هذه السوق إذا انتهت من سوق هجر ، فترحل إلى عمان وتقيم سوقها حتى آخر جمادى الأولى وهي لتوسطها بين فارس والهند والحبشة ، تجتمع فيها بضائع هذه الممالك الثلاث وكانت جمالها تحمل (الوَرْس) من اليمن إلى عمان حيث تعالج الأشياء التي يراد صبغها بالصفرة

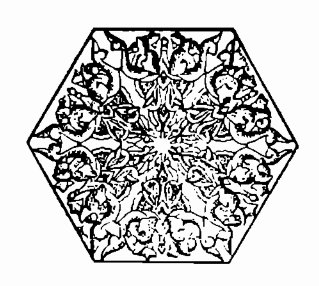
وذكر الألوسي أن بأرضها معادن جيدة وذخائر متنوعة وقد كان يستخرج بها عنبر مشهور ، احتفظت عمان بشهرتها به حتى أيام الرشيد فقد ذكر في الأغاني أنه « جاء العباس بن محمد إلى الرشيد يوماً ببرنيّة غالية فوضعها بين يديه ثم قال : « هذه يا أمير المؤمنين غالية صنعتها لك بيدي ، اختير عنبرها من بحر

---

(١) ناجخة التيار : صوت الموج ، والسيف الأفيح : الشاطئ الواسع ، والصحصح الصحراء ، والصروح : الصلب ، الأصبح الذي يعلو بياضه حمرة ، والرشاء الحبل والقَرو وعاء من جذع النخل ينبذ فيه

عمان ، ومسكها من مفاوز النبت ، وبانها من ثغر تهـامة ، فالفضائل كلها مجموعة فيها ... الخ [١] »

في هذه السوق يجري التبادل بين بضائع فارس والهند والحبشة واليمن والحجاز والشام ، يصب فيها كل تاجر قطر ، ما حمل من قطره ، ويرجع إلى بلده بمـا يأخذه من عروض ليست فيه ؛ ولهذا كان فيها جاليات من كل أمة وكل قبيلة



---

(١) ١٥ : ٣٩

سوق حباشة

تقوم هذه السوق بتهامة في ديار بارق نحو (قنونا) على ست ليال من مكة إلى جهة اليمن. فهي المتجر المتوسط المشترك بين الحجاز واليمن وأصل الحبْش الجمع والحُباشة الجماعة من الناس ليسوا من جنس واحد، ولعلها سميت بذلك لكثرة ما يجتمع بها من مختلف القبائل والأَجناس للتجارة. وليست من مواسم الحج. وكما سميت سوق تهامة القديمة بهذا الاسم سميت به سوق أخرى لبني قينقاع تقام في رجب أيضاً كما هي اسم للأزد أيضاً. والمشهورة منهما هي الأولى التي بتهامة

وقد تاجر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء في الحديث

« لما استوى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ أَشدّه وليس له كثير مال، استأجرته خديجة إلى سوق حباشة وهي سوق بتهامة واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش وكان من قول

الرسول وهو يحدث عن هذه التاجرة الكبيرة « ما رأيت من صاحبة أجير خيراً من خديجة ، ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا » اه

* * *

كان لهذه السوق ما لغيرها من المزايا يكون فيها فداء الأسرى ونشدان الثأر … عدا أمور التجارة . ولما قتل الشنفرى الشاعر ، حرامَ بن جابر قاتل أبيه ، أتى رجلٌ أسد بن جابر أخا المقتول فقال : « تركت الشنفرى بسوق حباشة » فرصد له قوم القتيل حتى أسروه وقتلوه

وليس لحباشة شأن الأسواق العربية الكبرى ، فإنها تأتي في الدرجة الثانية في الخطر ، وتكاد تكون لما حولها في الغالب ، على خلاف الأمر في بقية الأسواق التي هي من مواسم الحج

بقيت هذه السوق قائمة كل عام حتى سنة سبع وتسعين ومئة ، إذ تركت في زمن داود بن عيسى بن موسى العباسي . والسبب في خرابها : أن من عادة ولاة مكة أن يستعملوا عليها رجلاً يخرج معهم بجند فيقيمون بها ثلاثة أيام متوالية من أول رجب واستمر الأمر على هذا حتى قتلت الأزد والياً كان عليها من

قبيلة غنيّ ، بعثه داود بن عيسى بن موسى ، فأشار فقهاء مكة على داود بتخريبها فخربها وتركت منذ ذلك الوقت [١] »

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ص ١٣١

ذيل — لهذه السوق يد كبرى عَلى العلم ينعم بفضلها كل باحث شرقي وغربي ، لأنها كانت السبب المباشر في تزويدنا بأوسع معجم جغرافي تاريخي وهو (معجم البلدان) لياقوت رحمه الله فقد جاء في مقدمة هذا المعجم ما نصه :

« وكان أول البواعث لجمع هـذا الكتاب أني سئلت بمرو الشاهجان في سنة (٦١٥هـ) عن حباشة : اسم موضع جاء في الحديث النبوي وهو سوق من أسواق العرب في الجاهلية ، فقلت : أرى أنه حباشة بضم الحاء قياساً عَلى أصل هذه اللغة لأن الحباشـة الجماعة من الناس من قبائل شتى ، وحبشت له حباشة أي جمعت له شيئاً . فانبرى لي رجل من المحدّثين وقال : إنما هو حَباشة بالفتح ، وصمم على ذلك وكابر ، وجاهم بالعناد من غير حجة وناظر . فأردت قطع الاحتجاج بالنقل ، إذ لا معوّل في مثل هـذا عَلى اشتقاق ولا عقل ، فاستقصيت كشفه في كتب غرائب الأحاديث ودواوين اللغـات مع سعة الكتب التي كانت بمرو يومئـذ وكثرة وجودها في الوقوف وسهولة تداولها فلم أظفر به إلا بعد انقضاء ذلك الشغب والمراء ، ويأس مع وجود بحث وامتراء ، فكان موافقاً والحمد لله لما قلته ، ومكيلاً بالصاع الذي كلته . فألقي حينئذ في روعي افتقار العالم لكتاب في هذا الشأن مضبوط ، وبالإتقان وتصحيح الألفاظ محوط . ليكون في مثل هذه الظلمة هادياً ، وإلى ضوء الصواب داعياً ، وشرح صدري لنيل هذه المنقبة التي غفل عنها الأولون ولم يهتد الغابرون ... الخ ما قال »

* * *

سوق صحار

بلد من أَعمر بلاد العرب وأَغناها وأَطفحها بالمتاجر جاء في (مسالك الممالك) للإصطخري عند الكلام على عُمان : « وقصبتها صُحار، وهي على البحر وبها متاجر البحر وتصد المراكب . وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً ولا تكاد تعرف على شاطئ بحر فارس بجميع بلاد الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صحار وبها مدن كثيرة وبلغني أن حدود أَعمالها (٣٠٠) فرسخ وكان الغالب عليها الشراة . »

وياقوت وصفها لنا كما شاهدها وصفاً أسهب وأَدل على مكانتها التجارية الكبرى فقال :

« صحار قصبة عمان مما يلي الجبل (وتوأم قصبتها مما يلي الساحل) : مدينة طيبة الهواء والخيرات والفواكه ، مبنية بالآجر والساج ، كبيرة ليس في تلك النواحي مثلها وليس عَلَى بحر الصين (يريد فرض الجزيرة التي على بحر الهند) بلد أجل منه ،

عامر آهل ، حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه ، أجلّ من زبيد وصنعاء ؛ وأسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر . دورهم من الآجر والساج ، شاهقة نفيسة ولهم آبار عذبة وقناة حلوة وهم في سعة من كل شيء . وهو دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومعونة اليمن . والمصلّى وسط النخيل ومسجد صحار على نصف فرسخ . فتحها المسلمون أيام أَبي بكر سنة (١٢) صلحاً . »

وهذا الوصف وإن كان لعهد ياقوت فإنا نستطيع أن نفهم منه مدى الشأن التجاري الذي كانت تتمتع به صحار [1] في الجاهلية أيضاً . فقد كان بها تجارات واسعة تجلب إلى مختلف أَقطار الجزيرة العربية وجاء في الحديث أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم كُفن بثوبين صُحاريين .

* * *

تقيم العرب السوق العامة في صحار من عاشر رجب إلى الخامس عشر منه بعد انفضاض سوق حباشة والظاهر أنها تمتد إلى ما بعد الخامس عشر من رجب ، فإن من لم يشهد الأسواق التي كانت قبلها لشغله عنها أو لأنه لا أرب له فيما يباع بما قبلها

(١) في فهرس الأماكن لكتاب (صفة جزيرة العرب): «صحار في اليمن» و «صحار في البحرين» فهما صحاران إذن . إلا أن المشهورة هي صحار اليمن وهي التي نتكلم عليها هنا .

من الأسواق ، يوافيها فيجد فيها من البز المنشور وغيره من البياعات. وذكر المرزوقي [1] : « أنهم يقيمونها لعشرين يوماً من رجب. » ولا يناقض هذا ما قدمناه ، لأن افتتاح السوق وانفضاضها لم يكن بساعة محتمة لا تقدم عنها ولا تأخر ، بل إن من العرب من لا يكون حضر ما قبلها فيأتيها من أول رجب. ومنهم من يكون في حباشة أو غيرها فيوافيها متأخراً وتبقى البيوع قائمة حتى ينتهي أصحابها منها.

وليست صحار من الأسواق العامة ولا من المواسم مثل عكاظ حتى يحرصوا عليها ذلك الحرص ، وإنما هي سوق تجارية محضة لما حولها ولمن يقصدها ، على أنها كثيراً ما يأتيها التاجر البعيد.

وقيام هذه السوق في رجب يغني قاصدها عن الحماية فيقدمها الناس غالباً بلا خفارة ولا حذر إلا من المحلّين ، لأن رجب شهر حرام. فهي من هذه الجهة تمتاز من الأسواق التي تقوم في غير الشهر الحرام مثل سوق المشقر وغيرها

يعشر الناس في هذه السوق الجلندى . وذكر الأزرقي أن بيعهم فيها بإلقاء الحجارة على ما تقدم في فصل البيوع كما هو الأمر في سوق دومة الجندل

---

(١) الازمنة والامكنة ٢ : ١٦٣

سوق دبا

دبا [1] ، سوق ذكرها المرزوقي في جملة أسواق العرب . والظاهر أنها كانت قديماً ذات شأن إذ كانت قصبة عمان ثم اضمحل مركزها وزاحمتها صحار وصارت هي قصبة هذا القطر فمن ثمّ لم يكن لها من الشأن مثل ما لغيرها . وصفها صاحب مراصد الاطلاع بأنها سوق من أسواق العرب بعمان وأنها مدينة عظيمة مشهورة . قال ياقوت : « دبا سوق من أسواق العرب بعمان وهي مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأخبارها وأشعارها وكانت قديماً قصبة عمان ولعل هذه السوق المذكورة كانت عندها . فتحها المسلمون أيام أبي بكر عنوة سنة ١١ للهجرة . »

* * *

جعل المرزوقي تاريخ قيام هذه السوق بين سوقي صحار والشحر . ونستطيع أن نفهم شيئاً من خطرها التجاري إذا علمنا أنها من فرض العرب المشهورة ، وأنه يكون فيها من لا يكون في غيرها

---

(١) وترسم بالياء.

من تجار الهند والصين وأهل المشرق والمغرب، وتمتاز من غيرها بالبضائع الأجنبية التي يحملها التجار من بلادهم في البحر وتنفذ منها بتجارات العرب إلى الخارج

تقوم سوقها آخر يوم من رجب ويشترى بها بضائع جزيرة العرب وبضائع الأقاليم . ومن البدهي أن البيع فيها لن يكون بإلقاء الحجارة ولا بالإيماء ولا بغيرهما من البيوع الخاصة لمكان الأجانب منها ، بل هو بالمساومة لأن السوق سوق مختلطة غير خالصة الصبغة

ولا يباع فيها شيء حتى يبيع ملكها الجلندى كل ما عنده ثم يعشر الناس فيها كما يفعل غيره من الملوك في غيرها من الأسواق

سوق الشحر

يطلق اسم الشِحْر على الساحل الجنوبي لجزيرة العرب بين عدن وعمان ، والشحر مأخوذ من مشْحر الأرض وهو مسبْخ الأرض ومنابت الحموض ، وتشتمل على بلاد وأَودية وقرى ، والمراد بها هنا شحر مهرة وهي قصبتها ، وليس فيها زرع ونخيل وإنما أَموالهم الإبل ، « وبها نُجُب من الإبل تفضل في السير سائر النجب[1] » .

ونظراً لوقوعها في أَقصى جنوب الجزيرة على بحر الهند ضربوا بها المثل في البعد فيقولون

« لست بمعجز لنا ولو بلغت الشحر[2] » واختلاط أَهلها بالنازلة من الحبشة والهند وفارس وغيرهم من التجار مع ما في لسانهم من الفروق بينه وبين لغة الحجاز جعل أهلهـا غير فصحاء حتى قال الإصطخري « ألسنتهم مستعجمة جداً لا يـكاد يوقف عليها . » وأرضهم في الجملة مقفرة ، وعيش أهلها من الأنعام والتجارة والصيد . اشتهرت منذ القديم بعنبرها الذي لا نظير له ، فكل عنبر جيد

---

(١) مسالك الممالك للأصطخري (٢) صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٢١٣

إليها ينسب ، قال الثعالبي في ثمار القلوب : « عنبر الشحر يضرب به المثل قال الشاعر

ولو كنت عطراً كنت من عنبر الشحر »

واللبان الذي يحمل إلى الآفاق منها يجلب

* * *

تقوم هذه السوق في النصف من شعبان بعد انفضاض سوق « دبا » ويقصدها من كان ثمة من تجار البر والبحر ، والبضاعة الرائجة فيها البز والأدم والكندر والمر والصبر والدخن[1]

ولا يسير إليها قاصدها إلا بخفارة لبعدها وانقطاعها فلا غنى لتجار العرب عن خفارة يتخفرون بها ، وكان يقوم أحياناً بهذه الخفارة أهل مهرة أنفسهم

« ولم يكن بها عشور لأنها ليست بأرض مملكة » وفي هذه السوق بيوع كالتي تقدمت في سوق دومة الجندل من رمي الحصاة وإلقاء الحجارة

---

(١) الكُندر : ضرب من العلك نافع لقطع البلغم ، والمر دواء معروف نافع للسعال ولسع العقارب وديدان الأمعاء ، والدُخْن : حب أصفر من حب الجاورس ، أملس جداً بارد يابس حابس للطبع .

سوق عدن ابين

قيل إن هذه التسمية نسبة إلى بانيها أَبْيَن ، وعدَن بالمكان أَقام فمن هنا قول من قال إنها اشتقت من العدْن لأن أَبين رجل من حمير أقام فيها إلا أن صاحب تاج العروس قال « نقل شيخنا عن حواشي الكشاف للفاضل اليمني وهو أَعرف ببلاده : أبين اسم قصبة بينها وبين عدن ثمانية فراسخ ، أُضيفت إليها لأدنى ملابسة . »

وعدن مدينة ذات موقع جغرافي ممتاز ، على بحر الهند إلى جنوبي مضيق باب المندب نحو الشرق ، فيها مرسى للسفن الواردة إلى آسيا من البحر الأحمر ، وبها كانت تمر مراكب الهند ومصر والحجاز والحبشة منذ القديم للحط والإقلاع ، وهي في ذيل جبل ينتهي بسور إلى البحر « رديئة الهواء لا ماء بها ولا مرعى ، وشرب أهلها من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو يوم[1] » والماء ينقل إليها على ظهور الدواب

---

(١) ياقوت

وأَهم تجارات هذه السوق الطيب بأُنواعه ، ويجلب إليها الادم والبرود من معافر وتكثر فيها اللطائم ، وبها مغاوص اللؤلؤ ، بقيت على شأنها هذا حتى الإسلام فازدهت في عهده تجارتها حتى « أَصبحت فرضة اليمن ومقر كل فضل مستحسن » وإن الطيب الذي يستعمله سائر الناس كان يتخذ بها وصار لأهلها بصنعه مهارة فائقة قال المرزوقي « وكان طيب الخلق جميعا بها يعبأ ، ولم يكن يحسن صنعه أَحد من غير العرب ، حتى إن تجار البحر لترجع بالطيب المعمول (بعدن) تفخر به في السند والهند ، وترتحل به تجار البر إلى فارس والروم وإن الناس على ذلك (إلى اليوم) ما يحسن اليوم حمله إلا أَهل الإسلام بعدن[1] »

كان العرب إذا ارتحلوا من الشحر بعد انفضاض سوقها نزلوا عدن فأقاموا بها السوق مدة العشر الأَول من رمضان ، أَما تجار البحر فإنهم يستغنون عن شهودها بما شهدوا من الأسواق قبلها ، إلا من بقي من بيعه شيء لم ينفد بعد ، أو فاته حضورما قبلها ، فإنه يشهدها مع الناس فيستدرك بها ما فاته من اتجار . ثم ينفض الناس منها إلى رمضان من قابل .

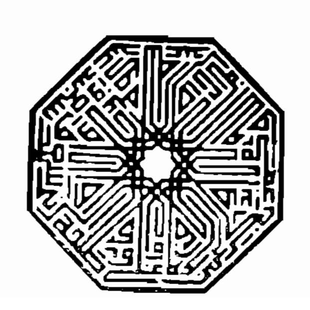
وقاصد هذه السوق في غنى عن خفارة الناس لقيام حكومة منظمة فيها فإنها من مخاليف اليمن ، لذلك لا يتخفر أُحد فيها ،

---

(١) الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٦٣

وتؤدى عشور هذه السوق إلى ملكها من حمير أو من خلف حمير على ملكها ولما صارت في حوزة الأبناء من فارس حين غلبوا على اليمن كما امتدّ نفوذ مملكتهم على سواحل العرب الشرقية والجنوبية كلها ، جعل الناس يؤدون العشور فيها إلى هؤلاء .

ولعل حال الأخذ والعطاء في هذه السوق أنشط وأوسع والتجارة فيها حرة أكثر ، لأن من قام على أمور عدن من حمير أو من الفرس لم يكونوا يتاجرون لأنفسهم فيها كما يفعل أكيدر في دومة أو الجلندى في صُحار فينحجز الناس عن عرض بضائعهم حتي يبيع الملك كل ما عنده من متاع ، فكانت التجارة تحظى في هذه السوق بشيء من الانطلاق لكف ملوكها عن مزاحمة الرعية على هذا المورد من الكسب



سوق صنعاء

صنعاء أطيب بلاد اليمن ، بل جنة جزيرة العرب كلها ، هي مضرب الأمثال في طيب الهواء واعتداله وحسن العيش قال ياقوت « صنعاء قصبة اليمن وأحسن بلادها تشبه بدمشق لكثرة فواكهها وتدفق مياهها ، وليس بجميع اليمن أكبر ولا أكثر مرافق وأهلاً من صنعاء وهي من الاعتدال في الهواء بحيث لا يتحول الإنسان من مكان طول عمره صيفاً ولا شتاء ، وتتقارب بها ساعات الشتاء والصيف وغاية ساعات النهار بها اثنتا عشرة ساعة وإحدى وخمسون دقيقة [1] . طيبة الهواء كثيرة الماء . قدم يزيد بن الصعق صنعاء ورأى أهلها وما فيها من العجائب ، فلما انصرف قيل له كيف رأيت صنعاء ؟ فقال

ومن ير صنعاء الجنودِ وأهلَها ... وجنودَ حِمير قاطنين ، وحميرا
يعلمْ بأن العيش قسم بينهم ... جلبوا الصفاء فأنهلوا ، ما كدّرا
ويرى مقامات عليها بهجة ... يأرَجْن هندياً ومسكاً أذفرا . »

---

(١) الإكليل ٨ ١٢

وليس من الغريب أن نسمع يمنياً كالهمداني يشيد بذكرها فيقول « هي إحدى جنان الأرض عند كافة الناس [١] » فقد حيرت بحسنها وكثرة أشجارها ومياهها ومروجها وأنهارها وطيب أوديتها غيره فدهش أول ما رآها وملكه الإعجاب [٢] « قال أحمد بن موسى وهو من الشعراء المتأخرين حين رفع إلى صنعاء وصار إلى نقيل السود (على مقربة منها)

إذا طلعنا (نقيل السود) لاح لنا   من أفق صنعاء مصطاف ومرتبع
يا حبذا أنت يا صنعاء من بلد   وحبذا واديك الظهر والضلع [٣] »

بقيت صنعاء [٤] دار سلطنة وإمارة حتى يومنا هذا . وقد كان بها مقر ملوك اليمن قديماً وفيها قصر غمدان وهو بناء شاهق على

---

(١) الإكليل ٨ ١٢

(٢) ومن الطريف أن يذكر ياقوت أيضاً أن صنعاء اسم لقرية على باب دمشق دون المزة مقابل مسجد خاتون ، خربت وهي اليوم مزرعة وبساتين وفي هذا دلالة على أن العرب مولعون بذكر ديارهم وأوطانهم أينما حلوا ، هم على الوفاء لعهدها تحت كل سماء ، وإطلاقهم صنعاء على هذه القرية الخربة لعهد ياقوت ، كإطلاقهم على بلاد الأندلس وجناتها أسماء حمص ودمشق ... الخ

(٣) تاج العروس

(٤) نعتها الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب) نعتاً جليلاً حوى =

تل عظيم اتخذه أقيال اليمن وليس في اليمن جميعه بناء أرفع منه .

« ويكون سوق صنعاء في واديها ، قيل هو وادي عليب ، وقيل هو أصل جبل نعيم مما يلي قبليّه وقيل غدير الحقل [1] »

= معارف قيمة جداً عن هذه البلدة العظيمة وانظر علَى سبيل المثال ما ذكره عن ضروب فواكهها فإنها في هذا فاقت دمشق نفسها قال ص ١٩٦ :

« جميع الثمار بها من العنب المُلاحي والدوالي والأشهب والدُر بج والنواسي والزيادي والأطراف والعيون والقوارير والجُرشي والنشاني والتابكي والرازقي والضروع ويؤتى إليها من خيوان بالرومي ، ومن الجوف بالوادي . وبها الرمان الحلو والحامض والمزوج والمليس والسفرجل ، وليس يلحق به سفرجل البلاد لأن فيه شيئًا من الحموضة والقبض ، والإجّاص والمشمش والتفاح الحلو والتفاح الحامض والمزمج . والخوخ الحميري والخوخ الفارسي والخوخ الهندي والجوز الفرك واللوز الفرك ، والحلو منه والمر والكمثرى وقد وُفِد إلى صنعاء قِدمة . وبها الورد والباقلاء الأخضر ولا يتركونه يبلغ ؛ وجميع أصناف البقول وجميع الحبوب ... » وكثير جداً أن يكون ببلدة واحدة أربعة عشر صنفًا من العنب وحده . وقد أفاض الهمداني بعد هذا بتفصيل مستفيض عن طعامها وألوانه وعن خبزها بما هو غاية في الطرافة والخطر فليرجع إليه ثمة ولو أن كل قطر عربي حظي بباحث كالهمداني لما كنا اليوم في معارفنا عن بلادنا في ظمأ وغلة لا نجد لها أدنى ري

(١) تاج العروس

كان العرب إذا ارتحلوا من الشحر وعدن أَقاموا سوق صنعاء فاستمرّت من نصف شهر رمضان حتى آخره يأتونها « بالقطن والزعفران والأَصباغ وأَشباهها مما ينفق بها ويشترون فيها ما يريدون من البز والحرير [1] » وكان أروج تجاراتها الغالية والأُدم والبرود وكان هذان الصنفان الأُخيران يجلبان إليها أَيضاً من مُعافر إحدى قرى اليمن فتباع فيها وتصدر إلى الأَقطار وكذلك يجلب منها من الخرز شيء كثير

كان يعهم فيها الجس جس اليد [2] ، وكان يعشر الناس فيها الأَبناء [3] بعد أن كان يعشرهم أمراؤهم من حمير

---

(١) ، (٢) الأَزمنة والأَمكنة ٢ ١٦٤ (٣) اليعقوبي

سوق حضرموت

حضرموت إقليم واسع يشتمل على بلاد وقرى ومياه وجبال وأَودية باليمن ، يكون إلى جنوبه الشحر ، وإلى شرقه عمان وإلى غربه صنعاء قريب من البحر وفيه رمال واسعة كثيرة تعرف بالأحقاف ، وهذا الصقع كثير الجبال والأودية وهو في جملته قاحل ، والبلد نفسها صغيرة ضئيلة الشأن ، راسل أَهلها رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلوا في طاعته صلحاً ، وقدم عليه الأَشعث بن قيس في بضعة عشر راكباً مسلماً في وفد فأكرمه الرسول[١]

وأغلب قوت أَهلها التمر ، لأن بها نخلاً كثيراً ، وقد كشفت

---

(١) ياقوت ، وقد اهتم بعض القدامى من المؤلفين بما حظيت به من كثرة الأولياء ، ورأوا في تسجيل ذلك عوضاً مما فاتها من خصب وسعة فقال القزويني في عجائب المخلوقات : « نقل شيخنا عن تفسير أبي الحسن البكري في قوله تعالى (وإن منكم إلا واردها) يستثنى من ذلك أهل حضرموت لأنهم أهل ضنك وشدة ، وهي تنبت الاولياء كما تنبت البقل وأهلها أهل رياضة

الحفريات الآن في هذا القطر عن مدن خربة عليها كتابات بالخط المسند ، مما يدل أن لسكانه في القديم شأناً يذكر

يتخذ بها نعال جيدة ذات شهرة وتنسب إليها فيقال نعل حضرمية وهي الملسّنة من النعال

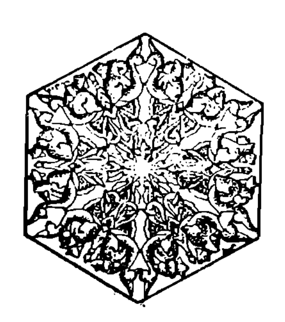
* * *

تقوم السوق في رابية بحضرموت فتعرف أيضاً بسوق الرابية ، من منتصف ذي القعدة حتى آخره ، وربما قامت هي وعكاظ في يوم واحد ، فكان بعض الناس يأخذ إلى عكاظ وبعضهم يتوجه إلى رابية حضرموت ، وهذه السوق خاصة بمن حولها ، ولكن كثيراً ما يأتيها الناس من بعيد ، ولقريش قوافل إلى هذه السوق ترسلها في تجاراتها ، وكثير من العرب يجوزها إلى غيرها ولا يحضرها ، ونظراً لانقطاعها عما حولها لم يستغن قاصدها عن دليل وخفير قال المرزوقي

« أما الرابية فلم يكن يصل إليها أحد إلا بخفارة ، لأنها لم تكن أرض مملكة ، وكان من عزّ فيها بزّ صاحبه ، فكانت قريش تتخفر ببني آكل المرار من كندة ، وسائر الناس (يتخفرون) بآل مسروق بن وائل الحضرمي ، فكانت مكرمة لأهل البيتين ،

وفضل أَحدهما على الآخر كفضل قريش على سائر الناس [1] »

فيستفيد هذان الحيان من الخفارة والدلالة معاً ربحاً مادياً إذ كان كسبهم من أولئك التجار الذين يمشون بين أيديهم بسلاحهم يحرسون بضائعهم ويحمون حياتهم ويدلونهم على الطريق



(١) الأزمنة والأمكنة ٢ ١٦٥

سوق عكاظ

عكاظ [1] هي المعرض العربي العام أيام الجاهلية ، معرض بكل ما لهذه الكلمة من مفهوم لدينا نحن أبناء هذا العصر فهي مجمع أدبي لغوي رسمي ، له محكّمون تضرب عليهم القباب ، فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم ، فما استجادوه فهو الجيّد ، وما بهرجوه فهو الزائف . وحول هذه القباب الرواة والشعراء من عامة الأقطار العربية ، فما ينطق الحكم بحكمه حتى يتناقل أولئك الرواة القصيدة الفائزة فتسير في أغوار الجزيرة وأنجادها ، وتلهج بها الألسن في البوادي والحواضر يحمل إلى هذه السوق التهامي والحجازي والنجدي والعراقي واليمامي واليمني والعماني ، كلٌّ ألفاظَ حيّه ولغة قطره ، فما تزال عكاظ بهذه اللهجات نخلاً واصطفاءً حتى يتبقّى الأنسب الأرشق ويطرح المجفوّ الثقيل

---

(١) ورد في (عكاظ) الصرف وعدمه . وقد جرينا على منعه لأنا رأينا المنع هو الأكثر فيها والأشهر

وهي السوق التجارية الكبرى لعامة أَهل الجزيرة ، يحمل إليها من كل بلد تجارته وصناعته كما يحمل إليها أدبه ، فإليها يجلب الخمر من هجر والعراق وغزة وبصرى والسمن من البوادي ، ويرد إليها من اليمن البرود الموشّاة والأُدم ، وفيها الغالية وأنواع الطيب وأدوات السلاح

ويباع فيها الحرير والوكاء والحذاء والمسيّر والعدني ، يحملها إليها التجار من معادنها ، وفيها من زيوت الشام وزبيبها وسلاحها ما اعتادت قريش أن تحمله في قفولها إلى مكة . ويعرض فيها كثير من الرقيق الذي ينشأ عن الغزو وسبي الذراري فيباع فيها بيع المتاع التجاري

ويبيع فيها كل غاز سلَبه وكثيراً ما يكون هذا البيع سبباً في قتل صاحبه إذا أبصر السلاح أَحد من ذوي المقتول فعرفه ، فإنه يضمرها في نفسه وينتظر أن يظفر بالرجل ليثأر منه .

وقد كانت تجارة فارس يصل منها أَشياء إلى عكاظ : فإن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق عكاظ كل عام لطيمة (وهي في الأَصل العير المحملة مسكاً) في جوار رجل شريف من أشراف العرب يجيرها له ويحميها من كل معتدٍ حتى تصل سالمة إلى عكاظ فتباع هناك ويشترى له بثمنها ما يحتاج

إليه من أدم (جلود) الطائف وسائر المتاع في عكاظ : من حرير وعصب ومسير ، بل إن عكاظ نفسها مشهورة بما يعرض فيها من جلود حتى قالوا : « أديم عكاظي » نسبة إليها

وهي معرض لكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعية : فهاهنا قس يخطب الناس ، يذكر الخالق ويعظهم بمن كان قبلهم ويأمرهم بفعل الخير وهناك خالد بن أرطاة الكلبي تتبعه قبيلته وقد جاء لينافر جرير بن عبد الله البجلي ومع هذا حيّه أيضاً ، وقد ساق كل منهما مالاً عظيماً ينافر عليه ، وعرضا الحكومة على رجالات قريش فأبوا أن يحكموا خوف الفتنة بين الحيّين ، فالرجلان في عكاظ ينتظران الأقرع بن حابس ليقوم بهذه الحكومة وقد ساقا الرُهُن فوضعوها عند عتبة بن ربيعة دون جميع من شهد على ذلك المشهد ، وثمة كاهن وعراف وعائف وقائف وقرد ، وغنم ، وصحيفة وكاتب

وهناك أناس من غواة الشهرة هذا يمد رجله وينشد شعراً ويقول : « من كان أعز العرب فليقطع رجلي » وآخر يأتي عكاظ ببناته ترويجاً لزواجهن ، وأناس قدموها ليختاروا من يتزوجون إليه ... قال المرزوقي

« كان في عكاظ أشياء ليست في أسواق العرب كان

الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيّد ، والحلة الحسنة ، والمركوب الفاره ، فيقف بها وينادي عليه : « ليأخذه أَعز العرب » يريد بذلك معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته . »

وهي ايضاً ندوة سياسية عامة ، تقضى فيها أُمور كثيرة بين القبائل فمن كانت له إتاوة على قبيلة نزل عكاظ فجاؤوه بها [١] ، ومن أَراد تخليد نصر لحيّه فعلَ فعل عمرو بن كلثوم فرحل إلى عكاظ وخلده فيها شعراً ، ومن أَراد إجارة أَحد هتف بذلك في عكاظ حتى يسمع عامة الناس ، ومن أَراد إعلان حرب على قوم أَعلنه في عكاظ ؛ حتى جمعية الأُمم وما تقوم به من مجهود (رسمي) في سبيل السلم الخاص ، كان لها صورة مصغرة تشبهها بحسب الظاهر [لا في الحقيقة ، لأَن عكاظ لم تكن ترائي فتستغل الدعاية الشريفة لتسيغ للقوي أكل الضعيف] ، فقد روى الأَصفهاني أنه « اجتمع ناس من العرب بعكاظ منهم قرة بن هبيرة القُشيري والمخبّل وهو في جوار قرة ، في سنين تتابعت على الناس ، فتواعدوا وتواقفوا أَلا يتغاوروا حتى يخصب الناس ! »

---

(١) الاغاني ١٥ : ٣٧

وكانت هذه السوق تقوم من العرب يومئذ مقام الجريدة الرسمية في أيامنا هذه وقد تقدم آنفاً شيء من ذلك في أمر الجوار وأخبار الحروب فمن أتى عملاً شائناً تأباه مروءة العربي شهروا أمره بعكاظ ونصبوا له راية غدر فعرفوه فلعنوه واجتنبوه ، ومن أراد أن يستلحق امرأً بنسبه استلحقه وأعلن ذلك للناس في عكاظ ، ومن أراد التبرؤ من قريب لسبب ما ، تبرأ منه علناً ، فإذا أتى بعد ذلك جريمة أو خيانة كان المتبرئ — في عرف العرب يومئذ — في حلٍ مما أتى قريبه ذكروا « أن قيس ابن الحدادية من شعراء الجاهلية ، كان شجاعاً فاتكاً صعلوكاً خليعاً ، وقد جرّ على قومه خزاعة عنتاً وإرهاقاً كبيراً ، فخلعته خزاعة بسوق عكاظ وأشهدت على نفسها بخلعها إياه فلا تحتمل جريرة له ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه[1] . »

وإذا أطلق لقب على أحد في عكاظ عرف صاحبه به ، وجرى له مجرى اسمه واسم أبيه قاتل أبو ربيعة بن المغيرة من قريش يوم شرب (وهو من أيام عكاظ) برمحين فسمي ذا الرمحين وبه يعرف ، وثبت في هذه الحروب من قريش أولاد أمية بن عبد شمس الستة وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو

(١) الأغاني ١٢ : ٢٠

وأبو عمرو فسموا (العنابس) والعنبس الأسد [١] . وأمثال ذلك

وخير ما يعطينا صورة واضحة عن عكاظ أن نعرض لأهم الأحداث التي جرت فيها ، فنتمثل بواسطتها أحوال العرب في هذه السوق الكبرى ، في بيعهم وشرائهم وتخاصمهم وتفاخرهم وحروبهم وسلمهم ، فإن في ذلك تفصيل ما أجملت [٢]

وأشد ما يثير الاستغراب ، هذا الشبه الكبير بين عكاظ ومعارض هذا العصر ، بل إن عكاظ لأوسع مدًى فيما يعرض فإنه لا يقتصر على مواد التجارة والصناعة بل يتعداهما إلى الأدب والشعر والحرب والسلم والعادات فإذا أنا أفضت في وصف عكاظ وما فيها ، فإن ذلك إفاضة في وصف سائر أسواق العرب

---

(١) القاموس مادة (عنبس)

(٢) هذه الأخبار مبثوثة في بطون الأسفار وقد لقيت في جمعها وتبويبها من العناء نصيباً غير يسير ، فإنه ليس لدينا تفصيل جلي عن عكاظ مجموع في موطن واحد ، وأوسع فصل عنها هو ماذكره الألوسي رحمه الله في بلوغ الأرب ويكاد يقتصر هذا الفصل على ذكر حروب عكاظ ونتف تتعلق بالمفاخرة وهو شيء لا ينقع غلة ولا يكاد يرسم الخطوط الأولى للصورة . ونحن نعلم أن الكلمة والكلمتين والثلاث ، والسطر والسطرين مما يكون عرضاً في خبر من الأخبار ، قد يكون له من البلاء الحسن في الكشف عن الحقائق والدلالة على العادات ، ما لا يكون للفصل المطول تقرؤه في موضوع واحد .

أَيضاً ، فليس فيهن سوق تساميها وما جرى في عكاظ جرى قريب منه في بقية الأسواق مع مراعاة صغر هذه واقتصارها أَحيانًا على أهل ناحية واحدة ، فليكن تاريخ عكاظ إذن تاريخًا لكل أَسواق العرب ، وتاريخًا لكثير من عاداتهم الاجتماعية أيضاً .

* * *

عكاظ نخل في واد بين مكة والطائف على مرحلتين من مكة ومرحلة من الطائف ، وموقعها جنوب مكة إلى الشرق هذا زبدة ما يستخلص من تعاريفهم المتضاربة في عكاظ[1] . نقوم

---

(١) من حسن الحظ أن ذهب فتحرّى موضعها بنفسه باحث عربي فوصفه لنا وهو السيد خير الدين الزركلي الشاعر في كتابه (ما رأيت وما سمعت) ص ٧٩ قال : « على مرحلتين من مكة للذاهب إلى الطائف في طريق السيل ، يميل قاصد عكاظ نحو اليمين ، فيسير نحو نصف الساعة فإذا هو أمام نهر في باحة واسعة الجوانب يسمونها (القانس — بالكاف المعقودة) وهي موضع سوق عكاظ ... وهذه الباحة هي مجتمع الطرق إلى اليمن والعراق ومكة ، وهي مرتفعة تشرف على جبال اليمن والواقف فيها يرى على مقربة منه موضعين مرتفعين أحدهما يسمى الدمة (بكسر ففتح) والآخر البهيتة (بصيغة التصغير) وعكاظ هو الفاصل بين الدمة والوادي الموصل إلى الطريق التي يمر بها سالكو درب السيل وسمعت كثيراً من أهل الطائف يقولون : إن عكاظًا كان في مكان يعرف اليوم باسم (القهاوي) في وادي لية من الطائف غير أن الشيوع يؤيد ما قلناه آنفا من أنه هو (القانس) نفسه وعليه أكثر العارفين من أهل هذه الديار »

السوق في مكان منه يعرف بالأُثَيْداء فيه مياه ونخل وهو مستوٍ لا علَمَ فيه ولا جبل إلا ما كان من الأنصاب التي كانت لأَهل الجاهلية ، وبها من دماء البدن كالأرحاء العظام (١) كانوا يطوفون حول صخور فيها ، وربما كان ذلك شعيرة من شعائرهم فقد ذكروا أنهم كانوا يحجون إليها وبالأُثَيْداء كانت أَيام الفجار

أما اشتقاق عكاظ ولم سميت بهذا الاسم ، فقد ذهب اللغويون فيه مذاهب ، وقلبوا الكلمة على معانيها المختلفة فالقهر والحبس وردّ الفخر والتجادل والتحاجّ كل هذه معان للعَكْظ ، وكلها صالحة لأن يعلل بها التسمية فيقول قوم سميت عكاظ لأَن العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضاً في المفاخرة أَي يقهره ويعركه ، وقال آخرون إنها من تعكّظ القوم إذا تحبسوا لينظروا في أمورهم ، وذهب غيرهم إلى أنها من التعاكظ بمعنى التفاخر

تقوم هذه السوق في ذي القعدة ، وللعلماء بعدُ خلاف في تعيين أيامها من هذا الشهر ، فالمرزوقي يجعلها تبدأ من نصفه حتى

---

(١) معجم ما استعجم للبكري ٦٦٠ ومراصد الاطلاع وياقوت

آخره ، وآخرون يجعلون وقتها في شوال[1] إلا أن الأكثرين على أنها تبدأ من أول ذي القعدة وتستمر حتى العشرين منه ، إذ تبدأ سوق مجنة فيرتحل إليها الناس وهي أقرب من مكة ، فإذا أهلّ ذو الحجة انقشع الناس من مجنة إلى ذي المجاز قرب عرفة وبقوا فيها حتى يوم التروية فيبدأ الحج

ويمكن جمع الأقوال المتقدمة بأن عكاظ قد تحفل بالناس في شوال ويتم تقاطرهم إليها في ذي القعدة : الزمن الرسمي للسوق . وحين تذهب جماعاتهم إلى مجنة في العشرين من ذي القعدة يتخلف كثير ممن لم يكن أنهى بيعه وشراءه فلا يتم خلوّ السوق تماماً إلا في غرة ذي الحجة عند اقتراب الحج[2]

والسوق لقيس بن عيلان وثقيف وهي بمعكد هوازن ، وأرضها لنصر ، حتى لقد منعت هوازن قريشاً مرة من حضور عكاظ ، فقد روى الهمداني أنه لما طرد عبد الله بن جدعان القرشي مئة ناقة لكلاب بن ربيعة من هوازن ، أرسل هذا إلى قريش « إن سفيهكم أغار علي فطردنا مئة ناقة ، فليس لكم أن

(١) ذكره صاحب مراصد الاطلاع وياقوت في إحدى روايتيه

(٢) هناك من نقل أن لعكاظ غير تلك السوق السنوية التي تجتمع بها القبائل ، لها أيضاً سوق أسبوعية تقوم كل يوم أحد للبيع والشراء . انظر (مدنية العرب في الجاهلية والإسلام) لرشدي ص ٥٩

تشهدوا عكاظ ، ولي عليكم ترة ، وكان عكاظ في وسط أرض قيس عيلان [1] » ونوت قريش قتل ابن جدعان لعدم استغنائهم عن حضور السوق

ينزل السوق « قريش وهوازن وغطفان وخزاعة والأحابيش وعضل والمصطلق وطوائف من أفناء العرب [2] » يؤمونها من العراق والبحرين واليمامة وعمان والشحر واليمن وسائر أطراف الجزيرة فهي عامة حتى أنه ليس فيها مكّاس ولا عشّار لأنها لم تكن في ملك أحد من الأمراء . وقربها من مكة ومشاعر الحج ألبسها حرمة تتقصف دونها مطامع الكبراء ، ولعل من أهم ميزاتها صفتها العامة هذه ، أما الفصل بين الناس فيها فزعم المرزوقي « أن أمر الموسم وقضاء عكاظ كان في بني تميم يكون ذلك في أفخاذهم الموسم على حدة ، وعكاظ على حدة ، وكان من اجتمع له ذلك منهم عامر بن الظرب العدواني وسعد بن زيد مناة من تميم ، وقد فخر المخبّل بذلك في شعره فقال

ليالي سعد في عكاظ يسوقها   له كل شرق من عكاظ ومغرب

ثم وليه (فلان وفلان) حتى جاء الإسلام فكان يقضي

---

(١) الإكليل ج ٨ ص ١٨٤

(٢) الأزرقي ١٣١

بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم ، وكان أبوه قاضيها في الجاهلية ، فمات فصار ذلك ميراثاً لهم ، وكان آخر من قضى منهم ووصل إلى الإسلام الأقرع بن حابس . »

وكان الناس ينزلونها منحازين على مداعيهم وراياتهم في المنازل ، تضبط أمور كل قبيلة أشرافها وقادتها ويختلط بعض الناس في بعض إذا هبطوا بطن السوق للبيع والشراء

تقيم العرب هؤلاء الأيام في عكاظ يتهيؤون للحج ويتبايعون ويتناشدون ويتفاخرون ويتقارعون ويتنافرون ويتعاظمون[1] ولم يكن مجمع للعرب أحفل من عكاظ ، فكانوا يضربون بكثرة أهلها المثل ، وبقيت لها هذه الشهرة بعد الإسلام ، فقد جاء في الأمالي أن عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب لما سئل عن قتله علياً قال « ضربته ضربة لو كانت بأهل عكاظ لقتلتهم[2] ».

---

(١) المفاخرة أن يتحاكم اثنان في أ هما آباؤه أكثر مفاخر والمنافرة أن يتحاكما في أيها أعز نفراً من صاحبه والمعاظمة أن يتحاكما في أيها أعظم مصيبة والمقارعة شبيهة بالمنافرة هذا وقد يكتفي المتنافران بالحكم مجرداً وقد يجعلان بينهما جعلاً للذي حكم له بالغلبة إبلاً أو جارية أو مالاً

(٢) ج ٢ ص ٢٥٦

وكما كان يقوم بأمر الحكومة عامة فيها بنو تميم كانت الحكومة في الشعر للنابغة الذبياني

لا عاشر لهذه السوق ، وأما بيعهم فيها فهو السرار وجس اليد [١]

وإليك الآن مثلاً مما كان يجري في عكاظ سياسة ومنافرة وفداء أسرى ، وأدباً وحرباً ومتاجرة

(١) انظر فصل بيوع الجاهلية

١ — منافرة

اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل بموسم عكاظ ، وقدم أمية بن الأسكر الكناني وتبعته ابنة له من أجمل أهل زمانها ، فخطبها يزيد وعامر فقالت أم كلاب امرأة أمية « من هذان الرجلان ؟ » فقال : « هذا يزيد بن عبد المدان ، وهذا عامر بن الطفيل » فقالت « أعرف بني الديان ، ولا أَعرف عامراً . » فقال « هل سمعت بملاعب الأسنة ؟ » فقالت : « نعم » قال « فهذا ابن أَخيه » وأقبل يزيد يفاخر خصمه فقال :

— « يا أمية إن ابن الديان صاحب الكتيبة ورئيس مذحج ومكلّم العقاب ، ومن كان يصوّب أَصابعه فتنتطف دماً ويدلك راحتيه فتخرجان ذهباً . »

فقال أميـة — « بخٍ بخٍ ! مرعى ولا كالسعدان[(١)] (فأرسلها مثلاً) :

(١) في مجمع الأمثال للميداني « السَعْدان أخثر العشب لبناً ، وإذا خثر ابن الراعية كان أفضل ما يكون وأطيب وأدسم . ومنابت السعدان : السهول . وهو من أنجع المراعي في المال ، ولا يحسن على نبت كما يحسن عليه » ثم ذكر روايتين في أول من أرسل هذا المثل الأولى أنه الخنساء الشاعرة ، والثانية ـ رواها عن المفضل ـ أن قائله امرأة من طيء كان تزوجها امرؤ القيس وارجع إلى القصة هناك

فقال يزيد : — يا عامر ! هل تعلم شاعراً من قومي سار بمدحة إلى رجل من قومك ؟

قال اللهم لا

قال فهل تعلم أن شعراء قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي ؟

قول اللهم نعم

قال فهل لكم نجم يمان أو برد يمان أو سيف يمان أو ركن يمان

قال لا

قال فهل ملكناكم ولم تملكونا ؟

قال نعم

فنهض يزيد وأنشأ يقول مخاطباً أبا البنت :

أميَّ يابن الأَسكر بن مُدلج لا تجعلنْ هوازناً كمذحج
إنك إن تلهج بأمر تلجج ما النبع في مغرسه كالعوسج
ولا الصريح المحض كالممزج

فزوج أمية يزيد بن عبد المدان ابنته . ثم لج التهاجي بين الرجلين



٢ — في سبيل بغيّ

وافي معاوية بن عمرو بن الشريد ، عكاظ في موسم من مواسم العرب ، فبينا هو يمشي بسوق عكاظ إذ لقي أسماء المُرّية ، وكانت جميلة ، وزعم أنها كانت بغياً فدعاها إلى نفسه فامتنعت عليه وقالت « أَما علمت أني عند سيد العرب هاشم بن حرملة ؟ »

فأحفظته فقال « أما والله لأُقارعنّه عنك » قالت « شأنَك وشأنه »

فرجعت إلى هاشم فأخبرته بما قال معاوية وما قلت له فقال هاشم

« لعمري لا نريم أَبياتنا حتى ننظر ما يكون من جهده »

ثم مضى عام وأصاب قوم هاشم غِرة من معاوية فقتل في خبر طويل ، وكان بين الحيّين يوم حوزة الأول ويوم حوزة الثاني ويوم ذات الأَثل ويوم ملحان وهي من أيام العرب المشهورة الطافحة أدبًا وشعراً ورجزاً ولها الفضل في إتحاف اللغة العربية بأكثر قصائد الخنساء لأنها أخت معاوية هذا وأَخيه صخر ، فلهذه الأيام قالت الخنساء أبلغ الرثاء في الشعر العربي

٣ — خطة غدر

لقي زُرْعة بن عمرو بن خويلد النابغة بعكاظ ، فأشار عليه أن يشير على قومه بقتال بني أسد وترك حلفهم ، فأبى النابغة الغدر ، فبلغه أن زرعة يتوعده فقال من قصيدة

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها — يهدي إليّ غرائب الأشعار
فحلفت يا زرع بن عمرو إنني — رجل يشق على العدو ضراري
أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني — تحت العجاج فما شققت غباري
أَنا اقتسمنا خُطتينا بيننا — فحملت برّة واحتملت فجار [١]
فلتأتينْك قصائد وليدفعنْ — جيشاً إليك قوادم الأكوار [٢]
رهط ابن كوز محقبي أدراعهم — فيهم ورهط ربيعة بن حذار .و..
وبنو جذيمة حي صدق سادة — غلبوا على خبت إلى تعشار
متكنفي جنبي عكاظ كليهما — يدعو بها ولدانهم عَرْعارِ [٣] .. الخ

وهكذا لم يخنع للتهديد قاضي الشعراء في عكاظ ، بل التزم الوفاء وشهر هذا الذي يريد أن يحمله على الغدر تشهيراً يدرك عارَه كل من في عكاظ

---

(١) برة اسم معرّف للبر . وفجارِ : اسم للفجور
(٢) الكور : رحل الناقة والقادمة مقدمته .
(٣) عرعار لعبة لصبيان الأعراب ، كانوا يتداعون بها ليجتمعوا للعب يعني أنهم آمنون وصبيانهم يلعبون في عكاظ .

٤ — معاظمة في المصائب

أَيام حوزة والأثل وملحان ، ذهبت بوالد الخنساء عمرو بن الشريد وبأَخويها صخر ومعاوية ، فطفقت الخنساء تبكي قتلاها ولا تزداد على الأيام إلا إعظاماً لمصيبتها فقرّحت أجفان الناس بما بكت على هؤلاء وخاصة أَخاها صخرا

انحدرت هذه الشاعرة العظيمة إلى عكاظ تسجل فيها رسميا أنها أعظم العرب مصيبة ، فليس أحد أصيب بما أصيبت ، فكانت تنزل كل عام على هودج سوّمته لتلفت إليها الأنظار ، وجرت على هذه العادة أَعواماً ٠

ثم كانت وقعة بدر ، التي انتصف فيها الإسلام من مناوئيه وقتل فيها من أَعدائه صناديد قريش عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ٠ « فأقبلت هند بنت عتبة ترثيهم ٠ وبلغها تسويم الخنساء هودجها في الموسم ومعاظمتها العرب بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأَخويها صخر ومعاوية ، وأَنها جعلت تشهد الموسم وتبكيهم وقد سوّمت هودجها براية وأنها تقول « أنا أَعظم العرب مصيبة » وأن العرب قد عرفت لها بعض ذلك ، فلما أصيبت هند بما أصيبت به وبلغها ذلك قالت : « أَنا أَعظم من

الخنساء مصيبة .» وأمرت بهودج فسوّم براية وشهدت الموسم بعكاظ وجعلت تندب قتلاها بقولها :

من حسّ لي الأخوين كالـ غصنين أو من راهما
قرمان[1] لا يتظالمـا ن ولا يرام حماهما
ويلي على أبويّ والـ قبر الذي واراهما
لا مثل كهلي في الكهو ل ولا فتى كفتاهما ... الخ

وقالت : « اقرنوا جملي بجمل الخنساء » ففعلوا، فلما أن دنت منها قالت لها الخنساء « من أنت يا أخيّة ؟ » قالت : « أنا هند بنت عتبة ، أعظم العرب مصيبة ، وقد بلغني أنك تعاظمين العرب بمصيبتك فبمَ تعاظمينهم ؟ »

فقالت الخنساء : « بعمرو بن الشريد وصخر ومعاوية ابني عمرو ، وبم تعاظمينهم أنت ؟ »

قالت « بأبي عتبة بن ربيعة وعمي شيبة بن ربيعة وأخي الوليد بن عتبة »

قالت الخنساء « أو سواءٌ هم عندك ؟! » ثم أنشدت تقول :

أبكّي أبي عمراً بعين غزيرة قليل إذا نام الخلي هجودها
وصنويّ، لا أنسى معاوية الذي له من سراة الحرتين وفودها

---

(١) القِرْم : الفحل ، السيد .

وصخراً، ومنذا مثل صخر إذا غدا ... بساهمة الآطال قُبًّا يقودها[1]

فذلكِ يا هند الرزية فاعلمي ... ونيران حرب حين شب وقودها

فقالت هند تجيبها :

أبكّي عميد الأَبطحين كليهما ... وحاميهما من كل باغ يريدها

أَبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي ... وشيبة والحامي الذمار وليدها

أُولئك آل المجد من آل غالب ... وفي العز منها حين ينمى عديدها

وأَمر هند والخنساء هذا في عكاظ ، من أَغرب ما يؤثر في باب التنافس واعتناء الناس بمصائبهم واهتمامهم بالتنويه بها وتخليدها في آدابهم ومحافلهم العامة . ولعل هذا المنظر ، منظر تينك السيدتين بلباسهما الأسود وجمليهما المسوَّمين ، أطرف منظر شهدته عكاظ .

٥ — الفجار الأول

جلس بدر بن معشر الغفاري في مجلس له بعكاظ — وكان بدر رجلاً حدثًا منيعًا مستطيلاً بمنعته على من ورد عكاظ — فجعل يقول ورجل على رأسه قائم

نحن بنو مدركة بن خندف ... من يطعنوا في عينه لا يطرف

(١) الساهمة : الضامرة . والآطال جمع إطل وهو الخاصرة . والقُبّ جمع أَقبّ وهو : الدقيق الخصر الضامر البطن .

ومن يكونوا قومه يغطرف كأنهم لجة بحر مسدف (١)

وهو باسط رجله يقول : « أنا أَعز العرب ، فمن زعم أَنه أَعز مني فليضرب هذه بالسيف فهو أعز مني . » فوثب رجل من بني نصر بن معاوية فضربه على ركبته فأندرها ثم قال له « خذها إليك أيها المخندف » وأَنشد وهو ماسك سيفه

نحن بنو دهمان ذي التغطرف بحر لبحر زاخر لم ينزف

نبني على الأَحياء بالمعرّف

فتحاور الحيان عند ذلك وثارا حتى كادت تكون فتنة ودماء . ثم تراجعوا ورأوا أَن الخطب يسير

وهذا الذي هاج أَول أيام الفجار بين كنانة وهوازن .

٦ — ظفر بثأر

« أقبل شأس بن زهير العبسي من عند النعمان بن المنذر ، وكان قد حباه بحباء جزيل ، وكان فيما حباه قطيفة حمراء ذات هدب ، وطيلسان وطيب ، فورد منعجاً (وهو ماء لغني) فأناخ راحلته إلى جانب الردهة ، وعليها خباء لرياح بن الأُسل الغنوي ، وجعل يغتسل ، فناداه الغنوي « استتر » فلم يحفل بما قال ،

(١) الغَطْرفة : الخيلاء والعبث . والمُسْدِف : المظلم .

فقال « استتر ويحك ، البيوت بين يديك ، فلم يحفل ، وامرأة رياح تنظر إليه وهو مثل الثور الأبيض ، فانتزعه رياح بسهم فقتله ونحر ناقته فأكلها وضم متاعه وغيّب أثره

فقُد شأس بن زهير ، ومكث قومه كذلك ما شاء الله حتى رأوا امرأة رياح هذه باعت بعكاظ قطيفة حمراء أو بعض ما كان من حباء الملك ، فعرفوها وعلموا أَن رياحاً صاحب ثأرهم . فغزت بنو عبس غنياً قبل أن يطلبوا قوداً أو دية ، وهرب رياح منهم ، وكان لعكاظ الفضل في معرفة القاتل إذ عملت في ذلك عمل رجال التحري اليوم

بقي قوم شأس ووالده زهير خاصة يكثرون القتل في غني ولا يشتفون ، وضرب الزمان ضرباته فالتقى خالد بن جعفر بن كلاب ، هو ووالد شأس القتيل العبسي في عكاظ في الشهر الحرام ، فقال خالد لزهير . « لقد طال شرنا منك يا زهير أما آن لك أن تشتفي وتكف ؟ » قال زهير « أما والله ما دامت لي قوة أدرك بها ثأراً فلا انصرام له . » وأغلظ له زهير وحقره . وكان ذلك الكلام بينهما أمام رجال من قريش كانوا في عكاظ ، فلما حقره زهير وسبه قال خالد

« اللهم أمكن يدي هذه ، الشقراء القصيرة من عنق زهير ابن جذيمة ثم أعنّي عليه . »

فقال زهير « اللهم أمكن يدي هذه البيضاء الطويلة من عنق خالد ثم خلِّ بيننا . »

فقالت قريش « هلكت والله يا زهير » فقال : « إنكم ـ والله ـ الذين لا علم لكم . »

وكانت هوازن تؤتي زهير بن جذيمة الإتاوة كل سنة بعكاظ وهو يسومها الخسف وفي أنفسها منه غيظ وحقد

ومضى الرجلان وتفرق الجمع عن عكاظ وبقي خالد وقومه يتربصون بزهير حتى وجدوا منه غرة فقتلوه

٧ — سيف يثأر لصاحبه

قُتل الحارث بن ظالم ـ وكان أحد الجبارين الفتاكين الذين أَضرموا الجزيرة فتناً ودماء ـ ، قتله ابن الخُسّ التغلبي ، ثأراً بأبيه الذي كان كاهن يزيد بن عمرو الغساني أمره بقتله الملك في خبر طويل

فأخذ ابن الخُس سيف الحارث بن ظالم ، فأتى به عكاظ في الأَشهر الحرم ، فجعل يعرضه على البيع ويقول « هذا سيف

الحارث بن ظالم . » فاشتراه قيس بن زهير بن جذيمة ، فأراه إياه فعلاه به حتى قتله ثم أنشد قيس يرثي الحارث

وماقصرت من حاضنٍ دون سترها   أبر وأوفى منك حارِ بن ظالم
أعز وأحمى عند جار وذمة   وأضرب في كاب من النقع قاتم (١)

٨ — شريف غير مقنَّع

كانت الفرسان إذا كانت أيام عكاظ في الشهر الحرام وأَمن بعضهم بعضا تقنّعوا كيلا يعرفوا ، وكذلك كان حال الشرفاء ، فإنه لا يوافي عكاظ شريف إلا على وجهه برقع ، مخافة أن يؤسر يوماً فيكبر فداؤه وكان طريف بن تميم العنبري من مشهوري شجعان العرب وفرسانهم ، لا يتقنع كما كانوا يتقنعون .

فوافى عكاظ يوماً وقد قتل رجلاً من بني شيبان وتطوع منهم رجل للأخذ بثأره من طريف فقال لقومه « أَروني طريفاً » . فأروه إياه ؛ فجعل كلما مر به تأمله ونظر إليه فأمعن النظر ففطن طريف فقال « مالك تنظر إلي ? » فقال : « أتوسمك لأعرفك ، فلله علي إن لقيتك يوماً أن أقتلك » .

فقال طريف في ذلك

أو كلما وردت عكاظ قبيلة   بعثوا إليّ عريفهم يتوسمُ

---

(١) حار في البيت الاول : مرخّم حارث . وكبا الغبار : علا

فتوسموني إنني أنا ذلكم شاكي سلاحي في الحوادث مُعْلَمُ
تحتي الأغر، وفوق جلدي نثرة زغف ترد السيف وهو مثلم (١)
حولي أسيد والهجيم ومازن وإذا حللت فحول بيتي خضّم
ولكل بكريّ لديّ عداوة وأبو ربيعة شانئ ومحلّم

فمضى لذلك ما شاء الله ثم ظفر الرجل بطريف في يوم من أيام العرب فقتله ثأراً لقتيله

٩ — تأديب سفيه

كان عبد الله بن جعدة سيداً مطاعاً ، وكانت له إتاوة بعكاظ يؤتى بها يأتيه بها هذا الحي من الأزد وغيرهم ، فجاء سُمَير ابن سلمة القشيري وعبد الله جالس على ثياب قد جمعت له من إتاوته فأنزله عنها وجلس مكانه ، فجاء رياح بن عمرو بن ربيعة بن عقيل ـ وهو الخليع ، سمي بذلك لتخلعه عن طاعة الملوك لا يعطيهم الطاعة ـ فقال للقشيري « مالك ولشيخنا تنزله عن إتاوته ونحن ها هنا حوله ؟ »

فقال القشيري « كذبت ، ما هي له » ثم مد القشيري

---

(١) النثرة : الدرع الواسعة والزغف : الدرع اللينة أو الرقيقة الحسنة السلاسل . والشانئ الكاره

رجله فقال « هذه رجلي فاضربها إن كنت عزيزاً . » قال « لا لعمري ، لا أضرب رجلك » فقال له القشيري « فامدد لي رجلك حتى تعلم أأضربها أم لا . » فقال « ولا أمد لك رجلي ، ولكن أفعل ما لا تنكره العشيرة ، وما هو أعزّ بي ، وأذلّ لك ؟ » ثم أهوى إلى رجل القشيري فسحبه على قفاه ونحّاه وأقعد عبد الله بن جعدة مكانه

١٠ — إتاوة

كان لزهير بن جذيمة العبسي إتاوة على هوازن وكان إذا كانت أيام عكاظ أتاها زهير ويأتيها الناس من كل وجه ، فتأتيه هوازن بالإتاوة التي كانت له في أعناقهم ؛ فيأتونه بالسمن والأقط والغنم ثم إذا تفرق الناس عن عكاظ نزل زهير بالنفرات

أتت زهيراً يوماً عجوز من هوازن ، بسمن في نِحْيٍ واعتذرت إليه ، وشكت السنين التي تتابعن على الناس ، فذاقه زهير فلم يرض طعمه ، فدعسها (طعنها) بقوس في يده عطل في صدرها فاستلقت على قفاها فانكشفت وبدت عورتها ؛ فغضبت من ذلك هوازن واضطغنتها عليه ؛ مع ما كان في صدرها من الغيظ والحسد . فتذامرت عامر بن صعصعة يومئذ ، وتألّى خالد بن جعفر

(من سراة هوازن) وقال : « والله لأجعلنّ ذراعي في عنقه حتى ُيقتل أَو أُقتل » وجعلوه من شأنهم في حروب وأيام حتى ظفروا به فقتلوه.

١١— إغاثة

أَغار قيس بن عاصم المنقري على بني مرّة بن عوف بن ذبيان ، فأسر أَحد رجلين من هوازن ؛ جاورا في بني مرة ففدى كل قوم أَسيرهم من قيس بن عاصم ، وتركوا الهوازني فاستغاث أَخوه بوجوه بني مرة فلم يغيثوه

ركب الهوازني إلى موسم عكاظ فأتى منازل مذحج ليلاً فنادى يذكر أسيره ومن استغاث بهم فردّوه

دعوت سنانًا وابن عوف وحارثًا وعاليت دعوى بالحصين وهاشم
حليفهم الأدنى وجار بيوتهم بترك أَسير عند قيس بن عاصم
فصمّوا وأَحداث الزمان كثيرة ومن كان عما سرهم غير نائم
فياليت شعري من لإطلاق غُمّةٍ ومنذا الذي يحظى به في المواسم

فسمع صوتًا من الوادي ينادي بهذه الأَبيات

ألا أَيهذا الذي لم ُيجب عليك بحي يجلّي الكرب
عليك بذا الحيّ من مذْحج فإنهمُ للرضى والغضب

فناد يزيد بن عبد المدان وقيساً وعمرو بن معديكرب
يفكوا أخاك بأموالهم وأَقْلِلْ بمثلهمُ في العرب
أولاك الرؤوس فلا تَعْدُهم ومن يجعل الرأس مثل الذنب؟

فاتبع الصوت فلم يرَ أحداً فغدا على المكشوح قيس بن عبد يغوث المرادي فقصَّ عليه قصته وأمر الأبيات التي سمعها ثم قال له: «بدأت بك لتفك أخي.» فقال المكشوح: «والله إن قيس بن عاصم لرجل ما قارضته معروفاً قط ولا هو لي بجار، ولكن اشترِ أخاك منه وعليّ الثمن، ولا يمنعك غلاؤه» ثم أتى عمرو بن معديكرب فقال له مثل ذلك وسأله «هل بدأت بأحد قبلي؟» قال «نعم، بقيس المكشوح.» قال «عليك بمن بدأت به.» فتركه وأتى يزيد بن عبد المدان فقال «يا أبا النضر إن من قصتي كذا وكذا» فقال له «مرحباً بك وأهلا، ابعث إلى قيس بن عاصم فإن هو وهب لي أخاك شكرته، وإلا أغرت عليه حتى يتقيني بأخيك، فإن نلتها وإلا دفعت إليك كل أسير من بني تميم بنجران فاشتريت به أخاك.» فقال أخو الأسير «هذا الرضى» فأرسل يزيد إلى قيس بن عاصم بهذه الأبيات:

ياقيس أرسل أسيراً من بني جشم إني بكل الذي تأتي به جازي

لا تأمنِ الدهر أن تشجى بغُصّته فاختر لنفسك إحمادي وإعزازي
فافكك أخا منقر عنه وقل حسناً فيما سئلت وعقّبه بإنجاز

فبلّغه الرسول ذلك وقال « إن يزيد بن عبد المدان يقرأ عليك السلام ويقول لك : « إن المعروف قروض ومع اليوم غد ، فأطلق لي هذا الجشمي فقد استعان بأشراف بني جشم ، فلم يصب حاجته فاستجار بي ولو أرسلت إليّ في جميع أسارى مضر بنجران لقضيت حقك . » فقال قيس بن عاصم لمن حضره من تميم « هذا رسول يزيد بن عبد المدان سيّد مذحج وابن سيدها ومن لا يزال له فيكم يد ، وهذه فرصة لكم فما ترون ؟ » قالوا : « نرى أن نُغليه عليه ونحكم فيه شططاً فإنه لن يخذله أبداً ولو أتى ثمنه على ماله كله . » فقال قيس

« بئسما رأيتم ، ألا تخافون سجال الحروب ، ودول الأيام ، ومجازاة القروض ؟ » فأبوا عليه فقال « بيعونيه . » فاشتطوا بالثمن فتركه بأيديهم واعتذر إلى يزيد قائلاً « إن الأسير بيد رجل من سعد وقد اشتطوا في ثمنه » فأرسل يزيد إلى السعدي وقال له « احتكم » فقال : « مئة ناقة ورعاؤها معها . » فقال يزيد : « إنك لقصير الهمة ، قريب الغنى ، جاهل بأخطار بني الحارث ، أما والله لقد غبنتك يا أخا بني سعد ، ولقد

كنت أَخاف أن يأتي ثمنه على جلّ أَموالنا ، ولكنكم يا بني تميم قوم قصار الهمم . » وأعطاه ما احتكم . وفكّ الأُسير الذي بقي هو وأخوه مجاورين لمن فكه حتى ماتا بنجران

١٢ — حروب الفجار

اختلاط أَحياء العرب بعضها ببعض ، وجمع عكاظ للأعداء المتنافرين في صعيد واحد ، وتحريمها قتال بعضهم بعضاً في أيامها التي هي في الأَشهر الحرم ، لم يمنع الشغب بين الناس ولا الخصومة والنضال بالكلام أو الشعر وكثيراً ما كان يهان أُحد أفراد قبيلة بكلمة يثلبه بها خصمه من القبيلة المعادية فينادي يا لَ فلان ، وينادي الآخر يا لَ فلان ، ويهيج الشر بين القبيلتين وكم جرّ من حروب على الحيّ سفهاوءه ، وما أَكثر ما أَلقى أَراذل قوم كلمات غير مبالين ، فجرت من أجلها الدماء حتى أشرف الحيّان على الفناء والهلكة وهذا ما وقع في أكثر أيام الفجار وهي حروب كانت في عكاظ بين قريش وكنانة من جهة ، وهوازن من الجهة الثانية وقد تعددت الوقائع فيها مرة بعد مرة ولذلك يقول دريد بن الصمة :

تغيبت عن يومَي عكاظ كليهما وإن يك يوم ثالث أتغيب

وإن يك يوم رابع لا أكن به　　وإن يك يوم خامس أَتجنب

تعرف كتب الأدب والتاريخ من أحداث الفجار أَربعة فأما الرابع الذي هو أهمها وأكبرها فقد تقدم الكلام عليه في فصل مخصوص أول الكتاب

ونتكلم هنا عن أَيام الفجار الثلاثة الأولى وهي جميعاً لم تنته بحرب وإن كادت تشرف عليها ، لأن أسبابها تافهة ولأَن عقلاء الفريقين حالوا دون الشر ، وبذلك نلمّ بأحوال سوق عكاظ إلماماً شافياً .

الفجار الأَول :— تقدم آنفاً وهو حادث بدر بن معشر الغفاري (ص ٢٦٠)

الفجار الثاني :— كان بين قريش وهوازن[١] وكان الذي هاجه أن فتية من قريش جلسوا في سوق عكاظ إلى امرأة وضيئة من بني عامر بن صعصعة ، وقيل بل أَطاف بها شباب من بني كنانة لا من قريش ، وعليها برقع وهي في درع فضل ؛ فأعجبهم ما رأوا من هيئتها فسأَلوها أن تسفر عن وجهها فأبت عليهم . فأتى أحدهم من خلفها فشد ذيلها بشوكة إلى ظهرها وهي لا تدري. فلما قامت تقلص الدرع من خلفها فضحكوا وقالوا منعتنا النظر

---

(١) العقد الفريد

إلى وجهها فقد رأينا خلفها · فنادت المرأة « يا آل عامر ! » فتحاور الناس وكان بينهم قتال ودماء يسيرة فحملها حرب بن أمية وأصلح بينهم

الفجار الثالث :— « وهو بين كنانة وهوازن ، وكنانة هم حلفاء قريش · وكان الذي هاجه أن رجلاً من بني كنانة كان عليه دين لرجل من بني نصر بن معاوية · وكان الكناني فقيراً ، فرآه دائنه النصري بسوق عكاظ ، ومع النصري قرد وافى به السوق · فوقف في السوق ونادى « من يبيعني مثل هذا القرد بما لي على فلان الكناني ؟ » وجعل يعيد النداء حتى أكثر ، تعييراً للكناني ولقومه · فمر به رجل من بني كنانة فسمعه فحمي وضرب القرد بسيفه فقتله فهتف النصري يا آل هوازن ! وهتف الكناني : يا آل كنانة ! فتهايج الناس حتى كاد يكون بينهم قتال ثم رأوا أن الخطب أيسر مما تكلفوا له فتراجعوا ولم يفقم الشر بينهم · »

١٣ — واعظ

احتشد الناس في ناحية من عكاظ يتوسطهم شيخ وقور ، على وجهه سمات اليقين والخير ، وهو على جمل أورق ، قد

أَرهف النـاس إليه آذانهم مصغين ، وأَعينهم إلى وجهه ، وقد شدهتهم الحيرة من أَلفاظ تجري على لسانه من خبر السماء وما بعد الممات ، وعظات لا عهد لهم بمثلها في أَحيائهم النائيـة وأَوطانهم الشاحبة ، وإِذا هو يخطبهم ويقول :

« أَيها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ونهـار ساج ، وسماء ذات أَبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة ، وأنهار مجراة إن في السماء لخبرا وإن في الأَرض لعبرا ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ ! أَرضوا فأقاموا أَم تركوا فناموا ؟

يقسم قُس بالله قسماً لا إثم فيه إن لله ديناً هو أَرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أَنتم عليـه ، إنكم لتأتون من الأمر منكراً

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائرْ
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تمضي الأكابرَ والأَصاغر
أَيقنت أَني لا محـا لة حيث صار القوم صائر »

سمع الناس هـذا ثم أَخذت أَبصارهم أُولئك الذين يطوفون

حول الصخور في السوق ، فانصرفوا حيرى ، في أنفسهم شيءٌ وكان بين المنصرفين غلام حدث ، هو صاحب الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وسلم بقي بذكر هذا المشهد حتى بعد أربعين سنة وقد طبقت الجزيرة دعوة الإسلام فأغارت وأنجدت ، وقدمت على صاحبها وفود الأقطار بالطاعة والإجابة ، وكان منهم وفد من إيادٍ قوم قيس ، وفدوا على رسول الله فسمع منهم وقال لهم : « ما فعل قس بن ساعدة ؟ » قالوا : « مات يا رسول الله . » قال :

« كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ، ما أجدني أحفظه »

فقال رجل من القوم « أنا أحفظه يارسول الله » فتلاه عليه فلما انتهى قال النبي صلى الله عليه وسلم

« يرحم الله قساً ، إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده »[1]

---

(١) قال الجاحظ في كتاب البيان والتبين : « لقس ولقومه فضيلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله صلي الله عليه وسلم روى كلامه وموقفه عَلى جمله بعكاظ وموعظته وعجب من حسن كلامه وأظهر تصويبه . وهذا شرف تعجز عنه الأماني وتنقطع دونه الآمال . »

١٤ — تنافس شعراء

كان نابغة بني ذبيان تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ ، يجتمع إليه فيها الشعراء . فدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى قد أنشده شعره وحكم له ، ثم أنشدته الخنساء قولها

قذىً بعينك أم بالعين عوّار

حتى انتهت إلى قولها

وإن صخراً لتأتمّ الهداة به   كأنه علم في رأسه نار
وإن صخراً لكافينا وسيدنا   وإن صخراً إذا نشتو لنحّار

فقال النابغة لولا أن أبا بصير (كنية الأعشى) أنشدني قبلك لقلت إنك أشعر الناس ، أنت والله أشعر من كل ذات مثانة » قالت « والله ومن كل ذي خصيتين »

فقال حسان « أنا والله أشعر منك ومنها . » قال : « حيث تقول ماذا ؟ » قال حيث أقول

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى   وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرّق   فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقال النابغة « إنك لشاعر لولا أن قلت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ! [1] »

---

(١) وفي رواية ثانية « إنك قلت (الجفنات) ولو قلت الجفان =

١٥ - تزويج بنات

كان الأعشى يوافي سوق عكاظ في كل سنة . وكان المحلَّق الكلابي مئناثًا مملقاً ، فقالت له امرأته « يا أبا كلاب ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر ؟ فما رأيت أحداً اقتطعه إلى نفسه إلا وأكسبه خيراً »

قال « ويحك ما عندي إلا ناقتي وعليها الحمل »

قالت : « الله يخلفها عليك » قال « فهل له بد من الشراب والمسوح ؟ »

قالت « إن عندي ذخيرة لي ولعلي أن أجمعها »

مرّ الشاعر فتلقّاه المحلق قبل أن يسبق إليه أحد ، وابنه يقوده ، فأخذ الخطام فقال الأعشى « من هذا الذي غلبنا على خطامنا ؟ » قال « المحلق » قال « شريف كريم »

= لكان أكثر ، وقلت (يلمعن في الضحى) ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقا ، وقلت (يقطرن من نجدة دما) فدللت على قلة القتلى ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك » فقام حسان منكسراً وأي الروايتين كانت فإن حكم عكاظ خليق بنفوذ البصر وصحة النظر وقوة البديهة ؛ فما عن قليل رضيته العرب يحكم في شعراء عكاظ .

ثم سلمه إليه فأناخه فنحر له ناقته وكشط له عن سنامها وكبدها ثم سقاه، وأحاطت بناته به يغمزنه ويمسحنه، فقال: «ما هذه الجواري حولي؟» قال المحلق «بنات أخيك وهن ثمان شريدتهن قليلة»

ثم خرج الأعشى من عنده ولم يقل فيه شيئاً

فلما وافى المحلق عكاظ، إذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها وإذا الأعشى ينشدهم قصيدته التي مطلعها

أرقت وما هذا السهاد المؤرّقُ ... وما بي من سقم ومابي تعشق
ولكن أراني لاأزال بحادث ... أغادى بما لم يمس عندي ويطرق

* * *

ومنها

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار باليفاع تحرّق
تشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى و«المحلق»
رضيعيْ لبان ثدي أم تقاسما ... بأسحم داج: عَوْض لانتفرق (١)
ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه ... كما زان متن الهندواني رونق

(١) اليفاع الأرض المرتفعة تشب النار: تضرم . والمقرور: من أصابه البرد وتقاسما: حلفا الأيمان . والأسحم: الأسود والداجي: المظلم (يعني بالأسحم الداجي: الليل) . عوض: ظرف لاستغراق الزمن المستقبل .

يداه يدا صدق فكف مبيدة وكف إذا ما ضُنّ بالمال تنفق

ومنها

أَبامسْمع سار الذي قد فعلتمُ فأنجدأقوام‌به ثم أَعرقوا[1] ‥الخ

فما أَتم الأعشى قصيدته إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهنئونه . ثم أَتى المحلق الأعشى فسلم عليه فقال الأَعشى

« مرحباً بسيد قومه » ثم نادى « يا معشر العرب هل منكم مذكار يزوج ابنه إلى الشريف الكريم »

فتسابق الأشراف إليه جرياً ، يخطبون بناته لمكان شعر الأعشى ، فما قام من مقعده وفيهنّ مخطوبة إلا وقد زوجها ‥ ولم تمسِ واحدة منهن إلا في عصمة رجل خير من أَبيها وأَفضل

فما قولك بفطنة امرأة المحلق ، وحسن دعاية الأَعشى ، وهذا النوع من البضاعة التي روّجتها عكاظ

١٦ — منعة محرّرة

حضر عكاظ من سراة الناس في أَحد المواسم عمرو بن الشريد السلمي ، وابناه معاوية وصخر أَخوا الخنساء الشاعرة وحضرها

---

(١) الكف المبيدة : المهلكة التي لا تبقي على مال . أنجد أتى نجداً عرق : سار إلى العراق

مَعْمر بن الحارث جد جميل الشاعر الغزِل فلما نظر معمر إلى عمرو صافنه وأَمر ولده أُن يخدموه ففعلوا

فلما تقوّضت السوق دعا عمرو بن الشريد ابنيه معاوية وصخراً فقال لهما

« إن معمراً قد طوقني ما لم يطوّقني أحد من العرب ، وقد أَحببت أن أُكافيه . » فقالا « افعل ما بدا لك . » فدعا بكاتب وصحيفة فكتب

[هذا ما منح عمرو بن الشريد السلمي ، معمر بن الحارث العذرى

منحه ماله بالوحيدة من أُخلاف يثرب ، أَطلال ذاك ومغانيه ورسومه وأعراصه ودواويه وزحاليفه وقريانه وبراذعه وقَسْوَره وعُجْرُمه وبَشامه وينْعه وتاليه وحَماطه وشَبَحه وأراكه وأَحزّته وحذاريَه وآكامه وبرُقه وعُلْجانه ، وكل ما صاء وصمت فيه ، وبكت السماء عليه وضحكت الأرض عنه فهو لمعمر دون عمرو وممنوح به من نيات الصدر ، لا يشوبه كدر الامتنان ولا أمارات الامتهان ، مستنزَل من هضاب الجَندل وجرثومة وُد بعيد المحل لا تخلق الأيام جدّته ولا يركد لمتنسم بارحه ما دام الزمان ؛

وتوقّد الحراب وسمر ابنا سَمير وأقام حراء وثبير[1] .

(١) الوحيدة من أعراض المدينة بينها وبين مكة . الخِلْف : ماأنبت الصيف من العشب والجمع أخلاف . الأَطلال جمع طلل : وهو ما شخص من آثار الدار . والمغنى المنزل الذي غني به أهله ثم ظعنوا . والرسم : ركيّة تدفنها الأَرض ، وما لا شخْص له من الآثار . والأَعْراض جمع عَرْصة وهي كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء الدويّة : الأَرض غير الموافقة ، والدّو والدويّة والداويّة الفلاة والزحاليف جمع زُحْلوفة وهي (هنا) المكان المنحدر المملّس . والقَرِيّ : مسيل الماء من التلاع ، ومدْفعه من الربْو إلى الروضة ، والقَرو ، حوض طويل ترده الإبل والأَرض لا تكاد تقطع ، ومسيل المعصرة ، وأسفل النخلة ينقر فينتبذ فيه والجمع قُريّ . والبراذع جمع برذعة وهي الأَرض لا غليظة صلبة ولا سهلة والقسورة نبات سهلي ، والجمع قسور ، وقسورَ النبتُ كثر والعُحرم جمع عجرمة وهي شجر والبشام شجر عطر الرائحة يسوّد الشعر ويستاك بقضيبه والينع جل الشجر والحماط جمع حماطة شجر شبيه بالتين أحب شجر إلى الحيات أو التين الجبلي أو الأسود الصغير أو الجميز الشبح الباب العالي البناء وأشباح المال ما يعرف من الإبل والغنم وسائر المواشي والأَراك : القطعة من الأَرض ، وشجر من الحمض يستاك به والأَحزّة جمع حزيز وهو الموضع الغليظ المنقاد ، كثرت حجارته وغلظت كأنها سكاكين والحذاري جمع حِذرية وهي الأكمة الغليظة ، والقطعة الغليظة من الأَرض ، وحرة لبني سلَيم وهم قوم عمرو صاحب هذا القول والبرَق جمع برقة غِلظ من الأَرض فيه حجارة ورمل وطين مختلطة ، وبرق

وكتب لخمس وثلاثين عاماً خلت من عام الفيل »

ثم بعث بالكتاب مع طرف من طرائف اليمن وعدد إلى معمر

قال الأصمعي فهي باقية إلى الآن يفيض على ولده دخلها وذلك في أيام الرشيد رحمه الله [1]

وهذا سند تمليك محرر ، صدر عن عكاظ ليعرفنا كم تهز الأريحية من نفوس الكرام

١٧ — صفقة خاسرة

« أخسر صفقة من شيخ مَهْو »

كانت إياد تسبّ بالفسو وتُعيَّر به ، فقام رجل من إياد بسوق عكاظ ومعه بردا حبرة فقال

ديار العرب تنيف عَلى مئة ذكر صاحب القاموس كثيراً منها فارجع إليه . والعلجان كل شجر ذي شوك ، وكل عظيم طويل من الشجر . وما صمت من المال الذهب والفضه وما صاء منه الإبل وما إليها وودّ الوتد ، واسم جبل ، واسم صنم معروف والبارح الريح الحارة في الصيف وابنا سمير الليل والنهار تقول لا أفعله ما سمر السمير وابن سمير وابنا سمير أي ما اختلف الليل والنهار

(١) الأزمنة والأمكنة ٢ ١٦٨

« من يشتري مني عار الفسو بهذين البردين ؟ »

فقام عبد الله بن زبيدة أخو مهو (ومهو حي من عبد القيس) فقال

« هاتهما ، واشهدوا أني اشتريت عار الفسو من إياد لعبد القيس بهذين البردين . »

فلما أتى رحله وسئل عن البردين قال « اشتريت لكم بهما عار الدهر . » فوثبت عبد القيس وقالت

إن الفساة قبلنا إياد ونحن لا نفسو ولا نكاد

وتفرق الناس عن عكاظ بابتياع عبد القيس عار الفسو حتى قال الشاعر

يا من رأى كصفقة ابن بيدرة من صفقة خاسرة مخسرة
المشتري الفَسْوَ بِبُرديْ حَبَرَة شلّت يمين صافق ما أخسره

وسارت هذه الصفقة الخاسرة مثلاً بين الناس

قال ابن دارة :

وإني وإن ضربت حبال قيس وحالفت المزون على تميم
لأخسر صفقة من شيخ مهو وأجور في الحكومة من سدوم[1]

وتلك غريبة في بابها بين جميع مآتي القوم في عكاظ

---

(١) ثمار القلوب للثعالبي ص٨٢

١٨ — فتنة جمال

زعموا : « أن جارية بن سليط كان أحسن الناس وجها وأمدهم جسماً ، وأنه أتى عكاظ فأبصرته امرأة من خثعم فأعجبها ، وتلطفت له حتى وقع عليها . فلما فرغ قالت : « إنك قد أتيتني على طهر ، وإني لا أدري لعلي سأعلق لك ولداً ، فموعدك فصال ولدي إن حملت لك . » فسمّى لها اسمه

ثم وافى عكاظ لرأس ثلاثة أحوال . وأقبلت المرأة مع أمها وخالتها يلتمسنه بعكاظ حتى رأته المرأة فعرفته وقالت لأمها : « هذا جارية » قالت أمها : « بمثل جارية فلتزن الزانية ، سراً أو علانية . » ووجد الرجل أن المرأة قد ولدت غلاماً وفطمته . ثم دفعن اليه الغلام فسماه عوفاً فشرف وساد قومه وهو عوف الأصم [1] . »

١٩ — راية غدر

والذي يثلج الصدر ويشفي النفس من مآثر عكاظ ، مشهد نستطيع أن نفيد فيه درساً بليغاً ، ومثالاً فعالاً وأسلوباً ناجحاً في محاربة الخائنين ، ووددت — والله — لو أخذنا به في أيامنا العصيبة هذه ، واحتذينا مثاله ؛ إذاً لبقي كل ساع في فساد يذوق الموت

(١) أمثال الضبي ص ١٨

ألوانًا حتى يلاقي ربه بالموت المريح قال المرزوقي

« كانوا إذا غدر الرجل أو جنى جناية عظيمة، انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ ، فيقوم رجل فيخطب بذلك الغدر فيقول « ألا إن فلان بن فلان غدر ، فاعرفوا وجهه ولا تصاهروه ولا تجالسوه ولا تسمعوا منه »

فإن أعتب وإلا جعل له مثل مثاله في رمح فنصب بعكاظ فلعن ورجم !! وهو قول الشماخ

ذعرت به القطا ونصبت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين . »

وهي خطوة حاسمة موفقة في السياسة السلبية لمحاربة الرذائل ، ما أظن أن أحداً اهتدى إليها قبل العرب ولا بعدهم

لم يغفل العرب في عكاظ أن يرفعوا مقابل ذلك راية وفاء لمن أتى مكرمة كلفته المغارم ثم مضى فيها ولم ينكص ، فقد ذكروا أن عامر بن جوين رفعت له كندة راية غدر في صنيعه بامرئ القيس بن حجر في وجهه إلى قيصر ، ورفعت له فزارة راية وفاء في صنيعه بمنظور بن سيار حيث أقحمته السنة فصار بماله وإبله وأهله إلى الجبلين فأجاره عامر ووفى له وصار الناس بين حامد له وذام [1] .

---

(١) انظر كتاب الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٧٠

٢٠ — داعية الإسلام

وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه بثلاث سنين في عكاظ ، يدعو الناس إلى الخير والهدى والسعادة وقد لزمه منذ قيامه بالدعوة حزن عميق على قومه الذين كفروا بنعمة الله ، وآلمه ألا يراهم مسارعين إلى ما به صلاحهم ، فعزم ليقصدنّ المواسم وليأتين فيها القبائل ، كل قبيلة بمنزلها ، و كل جماعة في حيهم ، يعرض عليهم هذا الدين الجديد ولقد حرص الحرص كله عَلى أَن يهتدوا ، و كان أسفه يشتد كلما أَلح قومه بالصد ؛ قام في عكاظ يقول

« يا أَيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا »

ويتبعه رجل له غديرتان كأنّ وجهه الذهب وهو يقول

« يا أيها الناس إن هذا ابن أَخي وهو كذاب فاحذروه »

فعرف الناس أن هذا (الصادّ عن سبيل الله) هو عمه أَبو لهب ابن عبد المطلب ، يكذّبه كلما قال كلمة الحق

عاود الدعوة مراراً فلم يُجب ولم ييأَس ورجا أن يجد فيهم الحامي والمجير على الأقل إذ لم يجد المجيب ، فكان يقول للحي في موسم عكاظ

« لا أُكره منكم أَحداً على شيء من رضي الذي أدعوه

إليه قبله ، ومن كرهه لم أكرهه، إنما أريد أن تحوزونى مما يراد بي من القتل ، فتحوزوني حتى أبلغ رسالات ربى ويقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء »[١]

كان الناس يعجبون من أمره وأمر عمه ، وهم بين راض وغاضب ، ومتعجب يرى بعينه ثم يمضي كأن الأمر لا يهمه ، منهم من لا ينكر ما يسمع ومنهم من يرد أقبح الردّ، ومنهم من يقول: قومه أعلم به

كان هذا دأبه أبداً يوافي به القبائل سنة بعد سنة ، حتى إن منهم من قال له « أيها الرجل ، ما آنَ لك أن تيأس ؟ » من طول ما يعرض نفسه عليهم

* * *

انتهى رسول الله في تطوافه على القبائل في عكاظ إلى بني محارب بن خصفة فوجد فيهم شيخاً ابن عشرين ومئة سنة ، فكلمه ودعاه إلى الإسلام وأن يمنعه حتى يبلغ رسالة ربه فقال الشيخ :« أيها الرجل قومك أعلم بنبئك ، والله لا يؤوب بك رجل إلى أهله إلا آب بشر ما يؤوب به أهل الموسم ، فأَغْنِ عنا نفسك .» وإن أبا لهب لقائم يسمع كلام المحاربي . ثم وقف

(١) دلائل النبوة ص ١٠٢ ؛ .

أبو لهب على المحاربي فقال « لو كان أَهل الموسم كلهم مثلك لترك هـذا الدين الذي هو عليه ، إنه صابئ كذاب » قال المحاربي : « أنت والله أَعرف به ، هو ابن أخيك ولحمتك . » ثم قال المحاربي « لعل به يا أَبا عتبة لمماً ، فإن معنا رجلاً من الحي يهتدي لعلاجه . » فلم يرجع أَبو لهب بشيء (١)

روى عبد الرحمن العامري عن أشياخ من قومه قالوا :

[أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بسوق عكاظ فقال : « ممن القوم ؟ » قلنا : « من بني عامر بن صعصعة . » قال : « من أي بني عامر ؟ » قلنا : « بنو كعب بن ربيعة . » قال : « كيف المنعة فيكم ؟ » قلنا : « لا يرام ما قبلنا ولا يصطلى بنارنا . » فقال

« إني رسول الله فإن أتيتكم تمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ولم أكره أحداً منكم على شيء ؟ » قالوا : « ومن أي قريش أنت ؟ » قال : « من بني عبد المطلب » قالوا « فأين أنت من بني عبد مناف ؟ » قال : « هم أول من كذبني وطردني . » قالوا « ولكنا لا نطردك ولا نؤمن بك ونمنعك حتى تبلغ رسالة ربك . »

فنزل إليهم والقوم يتسوّقون إذ أتاهم بجرة بن قيس القشيري

(١) دلائل النبوة ص ١٠١

فقال : « من هذا الذي أراه عندكم أنكره ؟ » قالوا : « هذا محمد بن عبد الله القرشي . » قال : « وما لكم وله ؟ » قالوا : « زعم لنا أنه رسول الله ، يطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه . » قال : « فماذا رددتم عليه ؟ » قالوا « قلنا في الرحب والسعة ، نخرجك إلى بلادنا ونمنعك مما نمنع به أنفسنا » قال بجرة : « ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشر من شيء ترجعون به ، بدأتم لتنابذكم الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة ، قومه أعلم به ، لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به ، تعمدون إلى رهيق قوم قد طرده قومه وكذبوه فتؤوونه وتنصرونه ؟ فبئس الرأي رأيتم » ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « قم ، الحق بقومك ، فوالله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك . »

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ناقته فركبها ، فغمز الخبيث بجرة شاكلتها فقمصت برسول الله فألقته وعند بني عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن قرط ، كانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله بمكة ، جاءت زائرة إلى بني عمها فقالت « يال عامر ولا عامر لي ! أيصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم ! ؟ »

فقام ثلاثة نفر من بني عمهـا إلى بجرة ، وثلاثة أعانوه ، فأخـذ كل رجل منهم رجلاً فجلد به الأرض ثم جلس على صدره ثم علقوا وجوههم لطماً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم بارك على هؤلاء والعن هؤلاء ».

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قـد كان أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه سألهم عمن كان في الموسم فقالوا

« جاءنا فتى من قريش ثم حدّث أنه أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به معنا إلى بلادنا »

فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال

« يا بني عامر ! هل لها من تلاف ? هل لذُناباها من تطلب ? فوالذي نفس فلان بيده ، ما تقوّلها إسماعيلي قط ، ألا إنهـا الحق ؛ فأين كان رأيكم ? ! ! »] [1]

(١) دلائل النبوة ص ١٠٠

٢١ — خمر

بعث رجل من بني جشم امرأته ـ واسمها عبلة بنت عبيد بن خالد بن حنظلة ـ إلى عكاظ بأنحاء سمن تبيعها له فيها ، فباعت السمن وراحلتين وشربت بثمنها الخمر ، فلما نفد الثمن رهنت ابن أخيه وهربت ، فطلّقها فقالت في شربها الخمر

شربت براحلتيْ مِحْجَن فيا ويلتى ، مِحجنٌ قاتلي
وبابن أَخيه على لذة ولم أَحتفل عذْلة العاذل

وتزوجها عبد شمس بن عبد مناف فولدت له أُمية الأُصغر ، وعبد أُمية ونوفلاً ، وهم العبلات

٢٢ — تلقيب

ساوم ربيعة بن عمرو بقدح في عكاظ فاستصغره فقال لصاحبه « لو وضعت فيه حوثرتي (حشفتي) لملأته . » فسمي حوثرة بذلك

* * *

الآن وقد استعرضتَ هذه المشاهد ، وذكّرتك هذه الفقرات جواً خاصاً تتصوره لعكاظ كلما مرت بك في نقلة من نقل الأَدب أو التاريخ ، الآن تستطيع أَن تفهم : لم يعد مؤرخو

الأدب عكاظ في أول ما وحّد لهجات القبائل العربية قبل نزول القرآن الكريم بأكثر من قرن ، وهيّأ لقريش خاصة تلك الزعامة والتحكّم في اللغة والانتقاء فسلمت من عيوب اللهجات . وعرفتَ أيضاً أن عكاظ دنيا تعج بالقاصدين من كل فج عميق ، وأن فيها الخطباء المصاقع يخطبون ، والشعراء الفحول ينشدون ، والأعزة والأشراف يتفاخرون ويتنافرون ، والموتورين يؤمونها للبحث عن واتريهم ، ومن له أسير سعى إلى عكاظ في فكاكه ، ومن أراد أن يأتي عملاً تعرفه له العرب عامة أتاه في عكاظ ، ومن أتى مكرمة في قطر فأحب أن تخلد جاء عكاظ فشهر فيها أمره .

ومن هنا لهج الشعراء بذكرها حتى قال حسان بن ثابت

سأنشر ما حييت لهم كلاماً ينشّر بالمجامع من عكاظ

وقال أبو ذؤيب

إذا بني القباب على عكاظ وقام البيع واجتمع الألوف

وقال ثالث يضرب بها المثل

فإنك ضحاك إلى كل صاحب وأنطق من قُس غداة عكاظها

وهجا أمية بن خلف الخزاعي حسّان وأراد إيلامه فعنونها إلى عكاظ فقال

ألا من مبلغ حسان عني مغلغلة تدب إلى عكاظ

أليس أبوك فينا كان قينا لدى القينات فسْلاً في الحفاظ
يمانياً يظل يشدّ كيراً وينفخ دائماً لهب الشواظ [1] .الخ

فأنت إذ تجول في عكاظ ينقسم سمْعَك خطب وقصائد ومفاخرات ومنافرات وخصومات وأنماط من البيع لا تتشابه ، وأزياء في اللبس والتكلم والمراكب تجمعت من كل صوب -

ولما قال عمرو بن كلثوم قصيدته

ألا هبي بصحنك فاصبحينا

في العراق ، أحبّ أن تسير في الناس ويكتب لها الخلود ، فسعى إلى عكاظ في الموسم ، فقام بهذه القصيدة خطيبا ثم قام بها أيضاً في موسم مكة .

وكذلك قل في بقية القصائد الطوال التي يسمونها (المعلقات) ، فما كان الإجماع ليعقد على أنها أجود الشعر لولا أن المحكّمين في عكاظ شهدوا لها بذلك وأقر السامعون بتفوقها

تلك مشاهد عامة مما كان يجري في عكاظ ، وكأن العرب الذين عرضوا في هذه السوق متاجرهم وأموالهم وأنعامهم ، وعرضوا فيها أدبهم وشعرهم ، أبوا إلا أن يعرضوا بقية مقوماتهم فرأينا مشاهد عن سياستهم وصلحهم وحربهم ولو كان لعربي أن يصبر

---

(١) المغلغلة : الرسالة السريعة . والقيْن : الحداد . والفسل : الرذْل الساقط

على ضيم قريب أو بعيد لصبر هؤلاء الجيران في هذه السوق العامة ، ولكن طرح الخسف وردّ الضيم في نفس العربي قبل التجارة والأدب ، ورفع الذل عنده أهون وسائله إهراق الدماء وقطع وريد الحياة ، لأنه لا يفقه عيشاً بقيد ولا يتصور حياة بذل .

والظاهر أن احتفال الناس بعكاظ لم يكن واحداً دائماً ، فقد كان في بعض السنين يربي على الغاية في الازدحام والحركة ، حتى تضيق السوق بمن فيها وحتى يربح التاجر والجالب إليه ربحاً عظيماً لا يتأتى إلا في الفرط النادر . قال المرزوقي : « فلما دخلت سنة خمس وثلاثين من عام الفيل حضر السوق من نزار واليمن ما لم يروا أنه حضر مثله في سائر السنين ، فباع الناس ما كان معهم من إبل وبقر ونقد وابتاعوا أمتعة مصر والعراق والشام .. »

هي إذن معرض عام للجزيرة العربية فيها عرض لتجارات جميع الأقطار وعرض للبيوع وعرض للعادات وللأديان واللغات والآداب ، وللسياسة ... وفيها لجان رسمية على نحو ما نألف في معارضنا اليوم ، تحكم للمتفوّق بتفوّقه حكماً نافذاً من أقصى الجزيرة إلى أقصاها وتزيد على معارضنا بميزة جليلة ، وهي صهرها لعادات القبائل ولغاتها ومواضعاتها لتنتقي منها أحسنها وأخلقها بالبقاء

لسنا نعلم لهـذه السوق بداية محدودة إلا أنا نرجح وجودها قبل القرن السادس الميلادي[1] ، ولمـا جاء الإسلام وتوطدت

(١) في بعض المراجع القديمة والحديثة تخبّط في تعيين سنة افتتاحها وتناقض ظاهر خذ لك مثلا هذه المصادر بلوغ الأرب للألوسي ، دائرة معارف وجدي ، الوسيط للأستاذين الإسكندري والعناني ؛ فإنها اتفقت عَلى أن عكاظ افتتحت بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة مع أن هناك حديثًا صحيحًا يفيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينبل عَلى أعمامه في حروب الفجار وعمره أربع عشرة سنة أي بعد الفيل بأربع عشرة سنة فتكون الفجار ونبل الرسول فيها قبل وجود عكاظ بسنة وهو تناقض بيّن والغريب حقًا أن ينقل صاحبا الوسيط — وهما ما هما فضلا وتحقيقًا — هذا التحديد عن بلوغ الأرب عَلى علاته في الطبعة الخامسة للوسيط ص ١٢ ثم ينقضاه هما نفساهما ص ٢٧ من الكتاب المذكور فيذكرا نبل الرسول وعمره أربع عشرة . كما فعل الألوسي تمامًا . ولو نجا أحد من زلل لنجا هؤلاء الأفاضل الثقات

أما دائرة معارف وجدي فمع ارتكابها الخطأ نفسه فقد عزّزته بثان فقالت « عكاظ اتخذت سوقًا بعد الفيل بخمس عشرة سنة أي سنة (٥٤٠) ميلادية ؟ وهذا غير صحيح لأن حادث الفيل كان سنة (٥٧٠— ٥٧١) م ولعل الألوسي رحمه الله أراد « قبل الفيل بـ ١٥ سنه » فغيرت في الطبع كلمة (قبل) بـ (بعد) ثم تابعه عَلى الخطأ من بعده وحينئذ تكون السنة الميلادية التي عيّنها وجدي صحيحة إذا كان افتتاح السوق قبل الفيل بخمس عشرة سنة

ثم أتى الأستاذ أحمد حسن الزيات فذكر في كتابه « تاريخ الأدب العربي »

أركانه في الجزيرة والعراق والشام بدأ شأنها يضوئل ، ولم تزل قائمــة إلى أن خرجت الخوارج الحرورية مع المختار بن عوف بمكة سنة (١٢٩) للهجرة فنهبوها فتركت إلى الآن

وعلى هذا تكون هذه السوق قد عمرت أكثر من قرنين ونصف القرن



= أن عكاظ افتتحت سنة (٥٤٠) م ولم ندر من أين استقى هذا التعيين ولا على أي شيء بنــاه ، فإن كان مصدره دائرة معارف وجدي فقد مرّ بك شأنها

وإذا تأملت أحداث عكاظ التي عرضنا لها عرفت أن بعضها يرتفع إلى ما قبل جميع هذه التواريخ التي ذكروها فالمرأة التي باعت أنحاء السمن بعكاظ تزوجت بعد ذلك بعبد شمس ، وعمرو بن كلثوم الذي أنشد قصيدته في عكاظ عاش حول سنة (٥٠٠ م) وإذا أضفت إلى هذا ما فطن له الأستاذ أحمد أمين (الرسالة : السنة الأولى العدد ١٣ ص ٢٥) في بحوثه عن عكاظ والمربد ، من أن المرزوقي عد عشرة ولوا القضاء بعكاظ قبل الإسلام ، استظهرت أن السوق مضى على إنشائها زمن قبل أن تصير فيه هذه الأحداث كلها من كل ذلك تعرف صحة ما ذهبنا إليه من أنها كانت في القرن الخامس الميلادي أي قبل سنة (٥٠٠ م) حتماً

سوق مجنة

مَجَنَّة موضع (وقيل بلد) قرب مكة على أميال منها ، تقع بمرّ الظهران ، قرب جبل يقال له الأسفل وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها ، ميمها بالفتح وتكسر [1] . والظاهر أنها من المواطن التي لا ينساها أهل مكة لبعض جمال فيها ولأنها ذات مياه ، فقد جاء في كتب السيرة : أن بلالاً لما هاجر إلى المدينة وأصيب بالحمى ، تشوّق إلى مكة ومواطنها وتغنّى بقوله

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة   بفَخٍّ وحولي إذْخِرٍ وجَليل
وهل أردنْ يوماً مياه مجنّـة   وهل يبدونْ لي شامة وطفيل [2]

(١) لهم في اشتقاقها أكثر من مذهب ، فقد جاء في تاج العروس أن المجنة الكثيرة الجن ، وفي الصحاح : أرض مجنة : ذات جن . قال ابن جني : « يحتمل مجنة وزنين ، أحدهما أن يكون مَفعَلة من الجنون كأنها سميت بذلك لشيء يتصل بالجن أو بالجَنة أعني البستان أو ما هذا سبيله ، والآخر أن يكون فَعَلَّة من مجن يمجُن كأنها سميت بذلك لأن ضرباً من المجون كان بها . هذا ما توجبه صنعة علم العرب ، فأما لأي الأمرين وقعت التسمية فذلك أمر طريقه الخبر . »

(٢) أخبار مكة للأزرقي ص١٣١ . الإذخر والجليل : نبتان . وشامة وطفيل : جبلان ، مشرفان على مجنة .

هذه السوق لكنانة وأرضها من أرض كنانة تقوم في العشر الأخير من ذي القعدة [١] ويقصدها العرب بقضّهم وقضيضهم بعد أن تنفض سوق عكاظ ، يتممون فيها ما قصدوا له من تجارة وفداء وتفاخر و على شبه التفصيل المتقدم في عكاظ ويجلب إليها ما يجلب إلى تلك من متاع وعروض، ولم تكن الخمر لتقلّ فيها شأناً عن بقية الأسواق فقد كانت تحمل إليها من معادنها من الشام ، ومن بصرى وغزة حتى صار يشيد بذكرها الشعراء ، قال أبو ذؤيب الهذلي

سُلافة راح ضُمّنتها إداوة مقيَّرة رِدفٌ لمؤْخِرَة الرَحْل
تزوّدها من أهل بُصْرى وغزةٍ على جَسْرةٍ مرفوعة الذيل والكفل
فوافى بها عُسْفان ثم أتى بها «مجنة» تصفو في القلال ولا تغلي [٢]

ومجنة وعكاظ وذو المجاز تستوي في نظر المحرمين من العرب

---

(١) هذا قول جمهرة العلماء ، اما ياقوت فمع انه وافقهم على هذا عند كلامه على (مجنة) ، خالفهم وناقض قوله هو نفسه فقال عند الكلام على عكاظ هذا القول الغريب : « كانت العرب تقيم سوق عكاظ في أول شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج . »

(٢) السُلافة : الخمر وكذا الراح . والإداوة : المطهرة . والمقيَّرة : المطلية بالقار الرِدْف : الراكب خلف الراكب وكل ما تبع شيئاً فهو رِدْفه . =

وتتمتع منهم جميعاً باحترام واحد حتى إن بعضهم لا يردها إلا محرِماً . قال الأزرقي :

[كانت قريش وغيرها من العرب تقول : «لا تحضروا سوق عكاظ ومجنة وذي المجاز إلا محرمين بالحج . » وكانوا يعظّمون أن يأتوا شيئاً من المحارم أو يعدو بعضهم على بعض في الأشهر الحرم وفي الحرم[1] . »

ومجنة — وإن قرنت في أغلب الأحيان مع عكاظ وذي المجاز — دون هاتين السوقين شأناً حتى إن المرزوقي لم يذكرها مستقلة كما ذكر غيرها بل اكتفى بقوله « وزاد بعضهم في الأسواق المجنة وهو قريب من ذي المجاز . »

= والرَحْل : مركب للبعير . والجَمْرة : الناقة العظيمة الماضية . والكِفْل : مركب للرجال يؤخذ من كساء فيعقد طرفاه فيلقى مقدمه على الكاهل ومؤخره مما يلي العجز . القلال جمع قلة : وهي الجرة العظيمة .

(١) أخبار مكة ص ١٣٢

سوق ذي المجاز

لهم في تحديدها قولان أحدهما أَنها على فرسخ من عرفة بناحية كَبْكَب ، وكبكب جبل بعرفات خلف ظهر الإمام إذا وقف ذكره ياقوت وغيره وهو أَحد قولين نقلهما الزبيدي ؛ والثاني أنه موضع بمنى ، ومنى بين مكة وعرفات في نصف الطريق تقريباً ، والذين نقلوا الأَول أكثر عدداً وسمي ذا المجاز لأن إجازة الحاج كانت منه ، ولعل السوق أَحياناً تمتد أو ينتقل الناس فيها : يقتربون ويبتعدون حتى تشغل هذه المسافة ، وهي أيضاً موضع قريب من العراق لا شأن لنا به

يكثر ورود ذي المجاز في شعر العرب لأَنها من أَسواقهم الكبرى ، ومن المواسم أيضاً قال أبو ذؤيب

وراح بها من ذي المجاز عشية يبادر أُولى السابقات إلى الحبل

وقال الليثي

للغانيات بذي المجاز رسومُ في بطن مكة عهدهن قديم

أما التي ذكرها الحارث بن حلّزة في معلّقته

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء

فالغالب أنها التي في شمال الجزيرة ، لأن مقام قبيلته يَشْكُرُ والأَحداث بينها وبين غيرها كانت هناك

* * *

إذا انقشع الناس عن مَجَنّة حين يهل ذو الحجة ، ساروا بأجمعهم إلى هذه السوق وأقاموا بها حتى اليوم الثامن من ذي الحجة ، وهو يوم التروية ، سمي بذلك لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء ويملؤون أوعيتهم لما بعده إذ لا ماء بعرفة وإلى هذه السوق تتقاطر وفود الحجاج من سائر العرب ممن شهد الأسواق قبلها ، أَو لم يشهدها وأتى للحج خاصة ، إذ أن ذا المجاز من مواسم الحج عندهم

تحفل ذو المجاز لوقوعها أَيام الحج بجموع العرب وتجارهم وأشرافهم ، وهي تلي عكاظ في الشأن ، ويجري فيها ما يجري في هذه من تبايع وتناشد وتفاخر وفداء أسرى وطلب ثأر الخ يقصدها صاحب الثأر ليتعرّف فيها واتره ، فيتربص به انقضاء الشهر الحرام إن كان من المحرمين وإلا عاجله فأخذ بثأره ، وروى الأَصفهاني

« أن قيس بن الخطيم لم يزل يلتمس غرة من قاتل أبيه

وجدّه في المواسم حتى ظفر بقاتل أبيه بيثرب فقتله ، وظفر بقاتل جده بذي المجاز ، فلما أصابه وجده في ركب عظيم من قومه ، ولم يكن معه إلا رهط من الأوس ، فخرج حتى أتى حذيفة ابن بدر الفزاري فاستنجده فلم ينجده ، فأتى خداش بن زهير فنهض معه ببني عامر حتى أتوا قاتل عدي (جد القيس) فإذا هو واقف على راحلته في السوق ، فطعنه قيس بحربة فقتله ثم استمر فأراده رهط الرجل فحالت بنو عامر دونه ... الخ . »

وكثيراً ما يغير قوم على قوم فيسبون من ذراريهم فيستعبدونهم فينشأ هؤلاء الذراري أرقاء في غير قومهم ، فيباعون في الأسواق أيام المواسم ، فكانت الجواري والأطفال من جملة العروض التي يقتنيها العربي في الجاهلية ويبيعه ويشتريه كما يفعل بالتمر والثياب والسلاح حتى جاء الإسلام فأبطل سبي العربي ، جاء في الأغاني (١١ ٧٥) :

« أن أبا وجزة لحق أباه عبيداً ـ وهو صبي ـ سباء في الجاهلية ، فبيع بسوق ذي المجاز ، فابتاعه رجل من سعد واستعبده ، فضرب عبيد هذا يوماً ضرع ناقة لمولاه فأدماه ، فلطم المولى وجه العبد ، فخرج عبيد إلى عُمر مستعدياً فلما قدم عليه قال « يا أمير المؤمنين أنا رجل من بني سُليم ثم من بني ظفر ، أصابني سباء

في الجاهلية كما يصيب العرب بعضها من بعض ، وأنا معروف النسب ، وقد كان رجل من بني سعد ابتاعني فأساء إلي وضرب وجهي ، وقد بلغني أنه لا سباء في الإسلام » فما فرغ من كلامه حتى كان مولاه قد أتى عمر على أثره فقال : « يا أمير المؤمنين هذا غلام قد ابتعته بذي المجاز ، وقد كان يقوم في مالي ، فأساء ، فضربته ضربة والله ما أعلمني ضربته غيرها قط ، وإن الرجل ليضرب ابنه أشد منها فكيف بعبده ؛ وأنا أشهدك أنه حر لوجه الله » فقال عمر لعبيد « إنه لا سباء على عربي وإن هذا الرجل قد امتنّ عليك ، وقطع عنك مؤونة البيّنة ، فإن أحببت فأقم معه فله عليك منة ، وإن أحببت فالحق بقومك .» فأقام عبيد مع السعدي وانتسب في بني سعد بن بكر بن هوازن » اهـ

* * *

هذه الأسواق الثلاث عكاظ ومجنة وذو المجاز التي كانت تقوم في أيام الحج ويؤمها العرب قاطبة من كل حدب وصوب ، شهدت إلى جانب مناظر البيع والشراء ، والمفاخرة والإنشاد ، مشهداً من أفظع مشاهد الجفاء والتنكّر والأذى لصاحب الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وسلم ، وابتلعت تلك الأسواق بضجيجها وما كانت تعجّ به من حوادث ، صوت الدعوة الإسلامية

فيما ابتلعت من دعوات ، وغاب صوت صاحبها في ذلك الرُّغاء والصخب والزحام ، فلقد مكث الرسول بمكة مستخفياً ثلاث سنين ، ثم أعلن في الرابعة ودعا الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافي فيهن المواسم كل عام ، يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة وذي المجاز ، يدعوهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ، فلا يجد أحداً ينصره أو يجيبه ، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة فيردّون عليه أقبح الرد ويؤذونه ويقولون له « قومك أعلم بك[1] . »

كان قاصد هذه الأسواق أيام الحج ، موزّع السمع بين داع إلى ثأر وناشد ضالة ، ومنشد قصيدة ، وخطيب ، وعارض بضاعة ، وحامل مال لفك أسير ، وقاصد شريف لإجارة أو حمالة ، وداع إلى عصبية ، وآمر بمنكر . . . ، فيجد شيئاً معروفا قد ألفه منذ عقل وأبصر الدنيا لكنه بعد عام الفيل بثلاث وأربعين سنة يجد أمراً لم يألفه قط ، ولا سمع بمثله رجلاً كهلاً وضيئاً عليه سمات الوقار والخير ، يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة هذه بنو عامر بن صعصعة ، وهذه محارب ، وتلك فزارة ، والرابعة غسان ، وهناك مرة وحنيفة ، وسليم ، وعبس ،

(١) شرح المواهب ١ ٣٠٩

وهنا بنو نصر وكندة ، وكعب ، وعذرة ، وهؤلاء الحارث ابن كعب وأولئك الحضارمة ... الخ

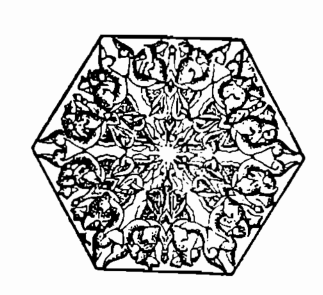
يؤم منازل كل قبيلة ، ويقصد إلى شريفها يدعوه بالرفق إلى الله ، وفعل الخير ، فيتجهم له هذا ، ويعبس ذاك ، ويجبهه ذلك ويحقره آخر فيلقى من الصدّ ألواناً يضيق ببعضها صدر الحليم ، فلا يؤيسه ما لقي ، ولا يكفه ما أوذي ، فيمضي متّئداً حزيناً إلى قبيلة أخرى وشريف آخر يعرض نفسه عليهم ويقول « هل من رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلّغ كلام ربي . » فلا يجد مجيباً ، حتى تدارك الله نبيّه بوفد الأنصار

هذا ما حفظته لنا كتب السير والأدب من مشاهد مؤثرة ، فرأينا أن تلك الأسواق لم تخل من دعوة إلى خير ، فقد تردد في أجوائها الصوت الضعيف الخافت ، يطلب حماية وإجابة ولئن صدف عنه الناس وازورّوا في أسواق الجاهلية فقد ملأ هذا الصوت فيما بعد ما بين المشرق والمغرب ، وطبّق الخافقين بآثاره التي بثها في العالمين رحمة وعدلاً وعلماً وإنسانية وسعادة ومُثُلاً عليا وما زال يستجيب لهذا الصوت كل يوم ، أفواج من أمم الحضارة والعرفان ، في آسيا وأوروبا وأمريكا ؛ صدّ عنه قديماً

أجلاف البادين ، وهرع إليه اليوم زُمر المتحضرين من كل عالم ومخترع ومصلح وأديب وسياسي ، ومفكرٍ يستضيءُ بعلمه وفكره الملايين من الخلائق

فلنأخذ من هذه الأسواق العبرة ، ولنحتفظ بهذا الدرس ، فإن الحق مهما بدا ضعيفاً وبدا خصيمه الباطل قوياً صائلاً ، لا بد أنه ظافر في النهاية عليه . ولنعلم أن اليأس لا ينبغي أن يجد سبيلاً إلى قلب المؤمن ، وأنه

« لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْكافِرُونَ »



سوق نطاة خيبر

خيبر قرية شمالي المدينة ، بينها وبين تبوك . وهي عدة حصون لليهود وفيها مياه ومزارع . ونطاة اسم حصن بها واسم عين أيضاً . وقيل هي خيبر نفسها وحول القرية نخيل كثير يسقى بعين فيها والبلدة وبئة معروفة في العرب بحُمّاها

أهلها يهود استوطنوا الحجاز منذ القديم واشتغلوا بالزراعة والتجارة [1]

ونظراً لوقوع هـذه القرية على الطريق التجارية الكبرى بين اليمن والشام ساهم أهلها بتجارة الجزيرة ، وكانت إحدى محطات القوافل التجارية في سفرها إلى الشام ونجح أهلها في متاجرهم حتى أفادوا منها غنى واسعاً واستفاضت لهم ثروات طائلة ونشأت فيهم رؤوس الأموال الضخمة . ولا نبعد إذا قلنا إن خيبر مصرف الجزيرة المالي . ولما فتحها الرسول صلى الله عليه وسلم صالح أهلها على الشطر من الثمر والحب . ويذكر أصحاب السيرة غنائم خيبر وما وجدوا فيها من كنوز ، فيذكرون أموالاً جمة ودنيا

---

(١) انظر ص ١٩ وما بعدها في هذا الكتاب

عريضة بني اليهود فيها حصوناً عديدة جعلوا فيها أموالهم وميرتهم من طعام وحب وثمر . وهم في الجملة أهل بأس وشكيمة قاوموا كثيراً قبل أن يفتح المسلمون حصونهم ، ثم غلبوا على أمرهم فافتتح المسلمون حصن ناعم ثم القموص ثم حصن الصعب بن معاذ وهو أعظم حصونها غناءً وأكثرها طعاماً وودكاً ، ثم الوطيح ، ثم السلالم ثم الشق . وكان في الغنائم ذهب كثير وفضة كثيرة ، فجعل الصحابة يتبادلونهما حتى نهى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبتاع الذهب بالذهب والفضة بالفضة بين تلك الحصون حصن الشق وحصن نطاة وحصن الكتيبة .

كان لكل حصن خازن يخبئ أموال أهله وكان كنانة بن الربيع عنده كنز بني النضير فلما أسر سئل عنه فأنكر فاهتدى الفاتحون إليه فوجدوا أموالاً طائلة

اتسعت تجارات اليهود في خيبر وغيرها حتى استطاع الرجل الواحد منهم كأبي رافع الخيبري أن يسير قوافل تجارية لحسابه إلى الشام . وهم نشروا في الجزيرة التعامل بالربا كما تقدم في أول الكتاب وأثروا إثراء ضخماً . وكلما مرت عير لقريش أو لطيمة من لطائم النعمان قامت لها سوق في خيبر . وقد جعل المرزوقي زمنها بعد زمن سوق ذي المجاز أي بعد أشهر الحج وقبل أن تبتدئ سوق حجر

سوق حجر

تقع بلاد اليمامة إلى غربي البحرين وجنوبي العراق ٠ والطريق إليها من العراق وغيره طويلة شاقة وقصبتها وأمّ قراها (حجْر) وذكر اللسان أنها (الحَجْر) بالتعريف وحكى فيها الكسر أيضاً ٠

ينزل أمراء اليمامة وولاتها في حجر ، حيث السوق وحيث تجلب إليها الأشياء ، إذ هي مصر اليمامة عامة وفي وسطها وهي في قاع فيه نخيل وماء وكان به قصور في القديم حين كانت البلدة ذات شأن ٠ وأصلها لبني حنيفة إلا أنها شركة كالبصرة والكوفة لكل قوم فيها خطة لكن العدد فيها لبني عبيد من بني حنيفة وكان قد تحصن فيها مسيلمة الكذاب لما تبعته سجاح المتنبئة قبل أن يتزوجها ويقتسما الأرض بينهما وهي ذات شهرة في العرب ، اشتهرت منها زرقاء اليمامة التي ضرب المثل بحدّة بصرها واشتهر أيضاً منها عرّافها الذي كان يقصد من بعيد ، والذي روي فيه بيت عروة بن حزام

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه ... وعراف نجد إن هما شفياني

حَجْر من الأسواق المتوسطة ، يقصدها العرب لما يقصدون إليه بقية الأسواق من بيع وشراء وتناشد . ثم صار لها في الإسلام ذكر مكرّر في أحاديث الأدب والأخبار لأنها دار جرير بن الخطفى الشاعر ، وكثيراً ما كان ينزلها أيضاً ذو الرمة ، وكانت في مأمن من السلطان ، نظراً لبعدها وبقيت سوقها حتى آخر العصر الأموي ، وذكروا أن عمران بن حطان هرب من الحجاج إلى اليمامة فنزل بحجر

كان يجري في هذه السوق قريب مما يجري في عكاظ من المفاخرة :

قال علي بن شفيع « إني لواقف بسوق حَجْر ، إذ أنا برجل عليه مقطعّات خزّ وهو على نجيب مهري ، رجل من هيئته وحالته .. لم أر قط أحسن منه وهو يقول « من يفاخرني ؟ ، من ينافرني ببني عامر بن صعصعة ، فرساناً وشعراء وعدداً وفعالاً ؟» قلت : « أنا » قال « بمن ؟» قلت « ببني ثعلبة بن ... بن بكر بن وائل » فقال « أما بلغك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المنافرة ؟ .» ثم ولىّ هارباً فقلت من هذا ؟ فقيل عبد العزيز الكلابي .»

ولعل أفحل من بها (وبغيرها) من الشعراء في الإسلام

جرير ، كان إذا انتهى من أَحداثه الشعرية في العراق أَو الشام وملأ الأَجواء بهجائه ونخره ، أوى إلى بلده وقومه الذين ينافح عنهم ، فأكرموا مثواه وطاروا بأَشعاره ، وإن مجلس جرير ليعدّ أَحد المشاهد في سوق حجر

« كان يوماً جالساً بفناء داره في حجر فإذا راكب أَقبل فقال له جرير : « من أين وضح الراكب ؟ » قال « من البصرة . » فسأله عن الخبر فأخبره بموت الفرزدق ، فقال

هلك الفرزدق بعد ما جدّعته[1] ليت الفرزدق كان عاش قليلا

فقال له المهاجر « بئس ما قلت ، أتهجو ابن عمك بعد ما مات ، لو رثيته كان أحسن بك » ففكّر قليلاً ثم قال « والله إني لأعلم أن بقائي بعده لقليل ، وإن كان نجمي ليوافق نجمه ، أفلا أَرثيه » فقيل له « لو كنت بكيته ما نسيتك العرب . »

ثم قال جرير من أَبيات يرثيه

فلا ولدت بعد الفرزدق حامل ولا ذات بعل من نفاس تعلّت[2]
هو الوافد المأمون والواثق الرضى إذا النعل يوماً بالعشيرة زلت . »

---

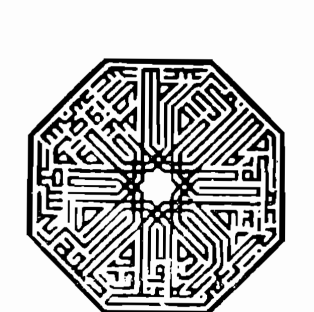
(١) جدعه قطع أنفه

(٢) صحّت وعوفيت

وهكذا كانت سوق حجر خاتمة المطاف لهذه النقائض الممتعة والحرب السجال الطويلة بين فحلين من أفحل شعراء العرب ، استأثر سوق المربد بالبصرة بأكثرها وختمت هنا في حجر

ففي هذه السوق إذن ، أثارات مما كان يكون في عكاظ من بيع وشراء ومفاخرة ومجالس أدب .

كانت تقوم هذه السوق بين عاشوراء وآخر المحرم



سوق بصرى

بصرى من مشارف الشام وهي عاصمة حوران ومن كبار مدن الشام منذ الزمن الأطول قبل الإسلام ، حتى إن اسمها ليتردد في كثير من أشعار العرب . وكان أهل الشام عامة على علاقات متواصلة مع سكان الحجاز ، لكثرة أسفار هؤلاء إلى الشام . وكان النبط كثيراً ما يحملون تجاراتهم بين الحجاز والشام وينقلون الأخبار بين البلدين بل إنا لنجد لبصرى من الشهرة في الجاهلية ما لا نجد لدمشق نفسها ، لأنها كانت محطّ رحال تجار العرب من بلاد الشام يتَقْدَمون إليها بحاصلات الحبشة والهند واليمن فكانت هذه العلائق سبباً في جريان الألسنة بذكرها دون دمشق التي لا نكاد نعثر على ذكر لها في الأشعار القديمة .

كانت بصرى أيام الرومان على جانب من العظمة والمكانة وقد أنجبت أحد أباطرة الرومان : « فيلبس » الذي نصب إمبراطوراً سنة (٢٤٤) من الميلاد فقد كان عربياً من بصرى حوران

جاء في خطط الشام [١] في صدد الكلام على حوران وعمرانها :

« ولا تزال خرائب بصرى عاصمة حوران وأحصن مدن (باشان) ومعقل الرومان ، شاهدة بما كان في بلاد تلك المدينة من الفخامة والعظمة . وكان طولها داخل السور كما قال بورتر ميلاً وربع ميل وعرضها ميلاً . ويحيط بالسور رَبَض كثير المباني ، ومحيطها خمسة أَميال ، لها سور عالي الجدران وثيق البنيان ، وقلعة لا أُحصن منها في عامة بلاد الشام . ويقطع المدينة شارع كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفه ، وشوارع رحبة ، وفيها ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة ، وبدائع البناء ، وأساليب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح ، ورُكام الأنقاض وبيوت الأقدمين وقوس نصر أقيم للقائد فيليبس الذي صار إمبراطوراً وهو من أَهالي بصرى والمشهد نصف دائرة قطره (٢٧١) قدماً وهو مكشوف من الأَعلى مثل كل المشاهد الرومانية . وفيها مشهدان وستة هياكل وعشر كنائس . عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات وأقواس النصر وغير ذلك من المباني الكثيرة . وبعضها ما يصلح أَن تزدان به أَعظم عواصم أوروبا الآن » اهـ

---

(١) ٥ ٢٥٨

انتظم سير القوافل التجارية العربية إلى بصرى قبل الإسلام بزمن طويل . وكان رحل إلى الشام فسكنها وما حولها ، عرب من اليمن بعد حادث سيل العرم وكانت تُزْعَم لها الشهرة قبل هذا الحادث أيضاً فقد جاء في الأغاني :

لما أَرسل الله سيل العرم على أَهل مأْرب قام رائدهم فقال : من كان يريد الخمر والخمير ، والأمر والتأمير ، والديباج والحرير ، فليلحق ببصرى والحفير ، وهي من أرض الشام فكان الذين سكنوه غسان اهـ

ولما عظم أمر قريش صارت عيرهم ترد بصرى في مقدمة ما ترد من مدن الشام وتعدّدت أسفارهم إليها . وليس في قريش تاجر إلا رحل إليها مراراً وعرفها حق المعرفة ، كما عرف أُغلب مدن الشام ، فاستفادوا من خبرتهم بهذه الديار فوائد جُلَّى لما بدأت الفتوحات بعد الإسلام وكتب السيرة تذكر أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم سافر إليها مرتين : مرة طفلاً ومرة تاجراً ابن خمس وعشرين سنة . وتذكر اجتماعه بأَحد الرهبان في دير (١)

---

(١) جاء في مسالك الأبصار ١ ٣٤٧ ما يأتي

دير بصرى هو بالشام ، وقيل هو الذي كان فيه بحيرى الراهب حكى المازني : قال : نزلت بدير بصرى . فرأيت في رهبانه فصاحة ، وهم عرب =

هناك ، وأن الراهب دعا إلى وليمته جميع من في العير مما يدل على وجود العلائق بين الفريقين وتفاهمهم معاً باللغة العربية. بحيث يجوز لنا أن نعد كورة بصرى قطراً عربياً في الجاهلية . وقد راسل رسول الله ملك بصرى عاصمة حوران فأرسل إليه كتاباً مع الحارث بن عمير كما بعث إلى غيره من الملوك ولما كانت خلافة أبي بكر لم يفت المسلمين شأن بصرى وعظمتها ، فكانت أول ما فتحت صلحاً بعد حصار قليل ، لما سار خالد بن الوليد من العراق لمدد أهل الشام وقدم على المسلمين وهم نزول ببصرى ، وضايقوا أهلها فصالحوهم ، على أن يؤدّوا عن كل حالم

= متنصرة من طيء من بني الصادر ، أفصح من رأيت . فقلت لهم مالي لا أرى فيكم شاعراً مع فصاحتكم ، فقالوا والله ما فينا رجل ينطق بالشعر ، إلا أمة لنا كبيرة السن فقلت جيئوني بها فجاءت ، فاستنشدتها فأنشدتني لنفسها :

أيا رفقة من آل بصرى تحملت تؤم الحمى لُقّيت من رفقة رشدا
إذا ما بلغتم سالمين فبلّغوا تحية من قد ظن أنْ لا يرى نجدا
وقولوا : تركنا الصادريّ مكبّلا بكبل هوى من حبكم ، مضمرا وجدا
فياليت شعري هل أرى جانب الحمى وقد أنبتت أجراعه بقلا جعدا
وهل أردنّ الدهر ماء وقيعة كأن الصبا تسدى على متنه بُردا

فوهبت لها دريهمات . وبت في ديرهم وأكرموا ضيافتي

ديناراً وجَرِيب حنطة ثم افتتح المسلمون حوران جميعها وقد تمّ ذلك سنة ١٣ للهجرة قال القعقاع بن عمرو يذكر أمر بصرى هذا وقد كان في الجيش المحاصر

بدأنا بجمع الصفُّرين فلم ندعِ لغسان أنفًا فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به سوى نفر نجتذّهم بالبواتر
وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة فألقت إلينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت بنا العيس في اليرموك جمع العشائر

ونحن — وإن لم يكن في يدنا نص عربي قديم يشير إلى غناها وكثرة أرزاقها نجد في شروط الصلح ما يدل على كثرة خيراتها ، حتى لقد ادّعى صاحب بصرى مرة أنه صالح المسلمين على طعام وخلّ وزيت فكذبه أبو عبيدة [1] كما أن في كثرة ورودها على ألسنة الشعراء ما يدل على شأنها ، فإنا إذا أردنا التقصي تعذّر علينا إحصاء مافي الشعر القديم من مثل قول أعرابي

أيا رفقة من آل بصرى تحملوا رسالتنا لُقّيتِ من رفقة رشدا ،

وقول الصمة بن عبد الله القشيري :

نظرت وطرف العين يتبّع الهوى بشرقيّ بُصرى نظرة المتطاول

---

(١) طبقات ابن سعد

وقول المتلمس (وهذا كان له ولد يقال له عبيد المنان هلك ببصرى ولا عقب له) :

لم تدر بصرى بما آليت من قسم ولا دمشق إذا ديس الكراديس

وقول الآخر

ولو أُعطيت من بيلاد بصرى وقِنّسرين من عرب وعجم

وورد في كتب السيرة ذكر لقصور بصرى هذه

* * *

لم ينقطع قيام سوق بصرى بعد الإسلام بل زاد أَمد قيامها. وكان العرب في جاهليّتهم إذا انتهوا من سوق دير أَيوب أُقاموا سوق بصرى حيث كان يشرف عمّال الرومان. وتطول مدة هذه السوق طولاً يتناسب هو وما قطعوا في سفرهم إليها من زمن. وقد بقيت تلك السوق حتى زمن المرزوقي (القرن الخامس الهجري) إذ ذكر أنه أدركها تقوم خمساً وعشرين ليلة ونقل أَنها كانت تقوم بولاية بني أمية من ثلاثين ليلة إلى أربعين وهي مدة طويلة ليس للعرب مثلها في عامة أَسواقهم

اشتهر لبصرى نوعان من البضاعة اختصت بهما أُما الأُول فالخمر لأُنها كانت من مدن الشام التي يحمل منها الخمر (١) ويتبجح العرب بذكرها قال أَبو ذؤيب الهذلي يذكر خمرتها

---

(١) كذلك صرخد وحلبون في جبل سنير كانتا مشهورتين بخمرهما ايضاً.

سُلافة راح ضُمنتهـا إداوة مقـيّرة ردف لمؤخرة الرحل
تزودها من أهل بصرى وغزة على جسرة مرفوعة الذيل والكفل

وأما الثاني فالسيوف وقد اشتهرت بصنعها بصرى كما اشتهر كثير غيرها من قرى الشام التي تدنو من الريف حتى قيل للسيف «مشرفي» نسبة إلى مشارف الشام وبصرى أحدها فتنسب ليها السيوف البصرية قال الشاعر

يعلون بالقلْع والبصريّ هامهمُ (١)

وقال الحصين بن حمام المري يصف خيل الغارة

عليهنّ فتيان كساها محُرّق وكان إذا يكسو أجاد وأنعما
صفائحَ بُصْرى أخلصتها قيونها ومُطّرداً من نسج داود معلما (٢)

وأمر هـذه السوق من إشراف ومكس ، إلى عمال الروم عليها وكثيراً ما يكونون عرباً من غسان

---

(١) القَلع : فأس صغيرة تكون مع البنّاء ، ومعدن ينسب إليـه الرصاص الجيد • (٢) الصفائح : السيوف • والقيون : الحدادون • والمطّرد : الدرع • والمُعلم : ما عليه علامة •

سوق دير ايوب

دير أيوب قرية بحوران من نواحي دمشق يزعمون أنها مسكن أَيوب النبي عليه السلام، وأن الله ابتلاه فيها ويزعمون أيضاً أن العين فيها هي التي ركضها برجله

هذا ما ذكره ياقوت أما القرية فهي إلى شمال بصرى وغرب أذرعات وتعرف اليوم باسم (شيخ سعد)[1] ولا يزال إلى اليوم فيها مقام للنبي أَيوب وفيها العين التي أَشار إليها ياقوت وهي من القرى الصغيرة في حوران، قليلة النفوس والشأن

ويظهر أَن لها في القديم خطراً كبيراً يقارب ما لبصرى فقد هبطتها منذ سنين بعثة أَثرية (تشيكوسلوفاكيّة) ونقّبت في تربتها، فعثرت على آثار رومانية قديمة، حملت منها إلى بلادها قسماً مهماً وكان في جملة ما عثرت عليه آثار حثيّة ومصرية وأبقت منها نصباً في دار العظم بدمشق

---

(١) انظر في ذلك (الطبوغرافيا الأثرية لسوريا وفلسطين) لدوسوص ٢٤٤

فالبلدة إذن ذات مكانة قديمة لعهد الجاهلية وصدر الإسلام.
ويذكر الطبري [1] أنه لما « انصرف مروان (الجعدي) منهزماً، جمع قومه وجنده، ومضى إليه أبو الورد فهزمه ثانية وتفرق من معه وأسر ثلاثة رجال من ولده وهم نعيم، وبكر، وعمران فبعث بهم إلى مروان ... وهو بدير أيوب فأمر بمداواة جراحاتهم. »
ثم ذكر ما يفيد أن مروان جعلها قاعدة حربية لتجهيز جنده وبعثهم إلى الأطراف المنتقضة فيقول « فأقبل نحو من عشرة آلاف ممن كان مروان قطع عليه البعث بدير أيوب لغزو العراق مع قوادهم حتى حلوا بالرُّصافة [2] »

وبقيت دير أيوب من القرى المهمة في حوران حتى ضؤل شأنها كما ضؤل شأن بصرى وأذرعات وسائر حوران

وهذه السوق أول أسواق الشام قياماً. فكان العرب وقريش إذا انتهوا من أسواقهم الموسمية: عكاظ ومجنة وذي المجاز، وأنهوا حجهم ورجعت وفود البلدان، نظّموا عيرهم وتهيؤوا للسفر إلى الشام فأقاموا تجاراتهم فيها وبدؤوا بسوق دير أيوب هذه

ومتى انتهوا منها وانتقضت اعتدوا سبعين يوماً [3] ثم أقاموا سوق بصرى

---

(١) ٢ : ١٨٩٤ (٢) ٢ : ١٨٩٧ (٣) الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٦٩

سوق أذرعات

أذرعات بلد بالشام قرب البَلقاء (وهي اليوم تعرف بإزرع) أمرها قريب من أمر بصرى وتليها في الشأن، وعلائق العرب التجارية بها في الجاهلية كعلائقهم ببصرى، واستفاضتها على ألسن شعرائهم تشبه ما لبصرى، من مثل قول امرئ القيس

تنوّرتها من أذرعات وأهلها ... بيثرب أدنى دارها نظرعالي[1]

وقول الآخر

وهيجني من أذرعات وما أرى ... بنجد على ذي حاجة طرباً بعدا؟

واشتهرت بخمرها في الشعر فقال أبو ذؤيب الهذلي

فما إن رحيقٌ سبَتْها التجا ... ر من أذرعات فوادي جدَرْ

وقال

فما فضلة من أذرعات هوت بها ... مذكّرةٌ عَنْس كهازئة الضحل[2]

(١) تنوّر النار من بعيد: أبصرها. (٢) المذكّرة: الناقة العظيمة الرأس. والعَنْس: الناقة الصلبة. وأهزأت به ناقته: أسرعت. والضَحْل: الماء القليل. وأتان الضَحل: صخرة على فم الركيّة، ملساء أو بعضها ظاهر وبعضها غائر.

سلافة راح   الخ، وتنسب إليها فيقال خمر أذرعية .

كان يحكمها في الجاهلية عمال للروم فلما جاء الإسلام صولح أهلها ونالوا عهداً لأنفسهم وبلدهم . فلما كانت جيئة عمر إلى الشام استقبلوه . قال عبد الله بن قيس :

« كنت مِمن لقي عمر مع أَبي عبيدة مَقْدَمَه الشام ، فبينما عمر يسير إذ لقيه المقلِّسون [1] من أَهل أذرعات بالسيوف والريحان فقال عمر « مه ، امنعوهم . » فقال أبو عبيدة : « يا أَمير المؤمنين هذه سنتهم ، وإنك إن منعتهم منهـا يروا أن في نفسك نقضاً لعهدهم . » فقال عمر : « دعوهم »

تقوم هذه السوق بعد سوق بصرى بسبعين ليلة [2] . ويطول أمدها . والغالب أنهم يقيمونها مدى الصيف   وقد بقيت هذه السوق قائمة بعد الإسلام بكثير ، فقد أَدركها المرزوقي ووصف طول قيامهـا بقوله : « وسوق أَذرعات اليوم أطولها قياماً وربما لقيت الناس صادرين منها وأنا وارد »

---

(١) التقليس : الضرب بالدُّف والغناء واستقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو ، وأن يضع الرجل يديه علَى صدره ويخضع — القاموس

(٢) الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٧٠

سوق الحيرة

لم يذكر هذه السوق أحد ممن تعرض لذكر أسواق العرب مع عظم شأنها وقصد تجار العرب إليها وليس من المعقول أن تقصد قريش وأهل الطائف، فارس للتجارة فيها ولا يكون لهم أسواق موسمية في العراق وهي على طريقهم وأهلها عرب

إلا أن في الأغاني مايدلنا على سوق عظيمة موسميّة قال أبو الفرج :

« خرج الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ومعه عطر يريد الحيرة ، وكان بالحيرة سوق يجتمع إليه الناس كل سنة[1] »

وبلدة كالحيرة بعيدة الصيت في جزيرة العرب، يتحدثون بخصبها وعظمتها ومنازهها. وأحداث ملوكهم بني نصر ، وعلائقهم مع من جاورهم من العرب ، ويتحدثون عن الشعراء العظام الذين قصدوا ملوكها للنوال والهبات كالنابغة الذبياني والأعشى وحسان بن ثابت

---

(١) الاغاني ١٦ : ٩٥

وغيرهم ... بلد كهذا لا بد أن يكون مرتبطاً بما جاوره من الأقاليم ارتباطاً تجارياً وثيقاً وهي أولى من بصرى وأذرعات بأنه يكون فيها للعرب أسواق عامة .

ويطلعنا التعمّق في التنقيب عَلى أسواق ثانية تقام في أماكن من العراق ولا تقتصر على العرب وبضائعهم ، بل يخالطهم فيها أجانب من فرس وغيرهم ويحمل إليها متاع الهند وفارس كما يحمل إليها أمتعة الشام واليمن والبحرين فقد جاء في الطبري عند كلامه على فتوح العراق :

« سوق الخَنَافس سوق يتوافى إليها الناس ويجتمع بها ربيعة وقضاعة يخفرونهم قال رجل من أهل الحيرة للمثنّى « ألا ندلّك على قرية يأتيها تجار مدائن كسرى والسواد وتجتمع بها في كل سنة مرة ، ومعهم فيها الأموال كبيت المال ؟ وهذه أيام سوقهم » فصبحهم في أسواقهم فوضع فيهم السيف ... وأخذوا ما شاؤوا وقال المثنّى : « لا تأخذوا إلا الذهب والفضة ، ولا تأخذوا من المتاع إلا ما يقدر الرجل منكم على حمله على دابّته . وهرب أهل الأسواق وملأ المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء والحر من كل شيء »[1]

---

(١) تاريخ الطبري ١ : ٢٢٠٣ طبع أوروبا

الحيرة مدينـة واسعة الشهرة منذ القـديم ذكروا أن بانيها بختنصر ، وأنه بناها لتجار العرب الذين وجد بحضرته ثم صارت من بعده عاصمة ملوك العراق حتى إن الطبري ليذكر أن لها قبل الإسلام أكثر من خمسة قرون [(١)] . وموضعها إلى شمال الكوفة على ثلاثة أميال منها . طيبة الهواء كثيرة البساتين . ردّد ذكرها الشعراء منذ الجاهلية وفتنوا بها وبخمرها وحاناتها وأديارها فكانت بحقٍّ مقصف العرب عامة . ونسبوا إليها فقالوا حاري على غير القياس وقالوا حيري على القياس ، فمن الأول قول عمرو بن معديكرب :

كأن الإثمـد الحاريّ منها يسف بحيث تبتدر الدموع [(٢)]

ومن الثـاني قول عاصم بن عمرو وقد كان فيمن فتحها من جيش المسلمين

صبحنا الحيرة الروحاء خيلاً ورَجْلاً فوق أثباج الركاب
حضرنا في نواحيها قصوراً مشرفة كأضراس الكلاب [(٣)]

ولها تاريخ طويل يدل على قدمها وشهرتها قبل الإسلام وأنها

---

(١) تاريخ الطبري ١ : ٧٤٨ طبع أوروبا

(٢) الإثمد : حجر للكُحْل . وأسفّ الجرحَ دواءً : أدخله فيه .

(٣) الرّوحاء : الواسعة . وخيلاً ورجْلاً : فرسانًا ومشاةً . والأثباج جمع ثَبَج : وهو ما بين الكاهل إلى الظهر ، ووسط الشيء ومعظمه .

كانت ميدانًا لحوادث جسام ليس هذا مقام سردها فليرجع إليها في مظانّها ٠

وذكر ياقوت في سبب بنائها أن « بختنصر قد جمع من كان في بلاده من العرب بها فسمّتهم: النبط أنبار العرب فصار في الحيرة من جميع القبائل من مذحج وحمير وطيّ وكلب وتميم وتنوخ ٠٠٠ فأهل الحيرة ثلاثة أصناف: فثلث تنوخ وهم كانوا أَصحاب المظالّ وبيوت الشعر ينزلون غربيّ الفرات بين الحيرة والأنبار فما فوقها ٠ والثلث الثاني العباد وهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا فيها ، وهم قبائل شتى تعبّدوا لملوكها وأقاموا هناك ، وثلث الأَحلاف وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها »

وأشار إلى بعض هؤلاء الشاعر

وغزا تبّعٌ في حمير حتى نزل الحيرة من أهل عدن

واشتهر في ظاهر الحيرة بناءان عظيمان هما قصر الخورنق وقصر السدير وبقيت مسكن ملوك العرب من بني نصر ولخم حتى كان آخرهم المناذرة الذين انقضى ملكهم بالإسلام

ارتباط هذه البلدة بفارس وخضوع أمرائها لهم وكثرة العلائق بين البلدين، وسع أفقها التجاري وأكثر فيها الغنى والترف وأحدث فيها نوعاً من الثقافة ليس في غيرها ٠ فقد مر بك أن قريشاً

تعلمت الكتابة من أهل الحيرة ، وأن الذي قرأ صحيفة المتلمس غلام حيري ، وأن لها رحلات وقوافل تجارية إليها وأن للنعمان لطائم يجهزها إلى عكاظ كل سنة . وهذا الاختلاط الشديد بين أهلها والفرس والأنباط جعل أنساب الحيريين في منزلة دون منزلة بقيّة أنساب العرب حتى إن من العرب من يُعيّر بالنسب إلى الحيرة وانظر إن شئت ما كان بين قيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد جاء في الاغاني أن قيس بن عاصم قال في عمرو : « والله يا رسول الله ما هم منا ، وإنهم لمن أهل الحيرة !! » وقال فيه

لولا دفاعي كنتمُ أعبداً　　مسكنها الحيرة فالسيْلَحون

فقال عمرو بن الاهتم متأثراً بهذا التعيير الذي لم يجد له ما يفي به إلا أن ينسب خصمه إلى الروم « بل هو يا رسول الله من الروم وليس منا » ثم قال :

إن تبغضونا فإن الروم أصلكمُ　　والروم لاتملك البغضاء للعرب[1]

هذا وإن نحن استرشدنا بنتفٍ من الأخبار تأتي عرضاً في مطاوي الكلام ، عرفنا أن للحيرة شأناً تجارياً ممتازاً ، وأن عادة العرب جرت منذ القديم بالمتاجرة إلى الحيرة ، وأنها كانت تؤمها

---

(١) الاغاني ١٢ : ١٥٠

القوافل الكبرى التي تقصد البرّ حاملة متاجر الهند من عُمَان إلى الشام ، فكانت الحيرة محطة كبرى لتلك القوافل المحمّلة . وكان أكثر الطُرّاء عليها تجاراً يختلفون إليها [1]

ولما قتل الشَّيْظم بن الحارث الغساني رجلاً من قومه وهرب إلى الحيرة تظاهر بأنه « رجل من خيبر أقبل إلى هذه البلدة بتجارة [2] . »

وخرج خمسة نفرٍ من طيٍّ من ذوي الحجا والرأي يريدون سواد بن قارب الدوسي ليمتحنوا علمه .. » فأهدوا إليه طرفاً من طرف الحيرة فضرب عليهم قبة ونحر لهم .. [3] »

ويذكر أبو الفرج الأصفهاني أن الأعشى باع في سوق الحيرة « كِرْشاً مدبوغة مملوءة عنبراً بثلاثمائة ناقة حمراء [4] »

يعرض في هذه السوق الأُدم والعطر والبرود والجواهر وسائر ما يعرض في بقية أسواق العرب ، مما يحمل من الشام أو اليمن أو عمان أو الحجاز أو البحرين أو الهند وفارس ، عدا ما يحمل الأعراب إليه من إبل وشياه وقرود أحياناً [5]

---

(١) الطبري ١ ٢٦٧٧

(٢) الأمالي : النوادر ص ١٧٩ دار الكتب .

(٣) المصدر نفسه ٢ ٢٨٩

(٤) الأغاني ٩ ١٢٥ دار الكتب

(٥) الأمالي ٢ ٤٤

وفيها أيضاً إلى هـذا ، أدب وشعر وخطابة ومنافرات كما يكون في غيرها من الأسواق ، وسنعرض لبعض ما يجري فيها بعد قليل

فلما كان الإسلام تضاءل شأنها التجاري ، وانصرف الناس إلى الفتوحات فلم يمض القرن الأول للهجرة حتى صارت الحيرة ذات لون أخّاذ يفتن الشبان وأهل اللهو والمجون . فطار لها صيت بعيد ساحر في منازهها وخمرهـا وحاناتها[1] وأديارها ، وصرنا بعد هذا الزمن لا نجد ذكراً للحيرة إلا حيث مجلس شراب ، وجماعة قصف وبذخ ، وخليفة يخرج للترويح عن النفس ، وفتيان سئموا حياة الجد فخرجوا إلى الحيرة فنزلوا أحد أديرتها أو إحدى حاناتها فذبحوا وطعموا وشربوا وغنّوا وأنشدوا وأثرى أصحاب الحانات من وراء ذلك إثراء عظيماً فصاروا يتنافسون بتجويد الخمر ، وجذب الزائرين حتى كثر الذين ذهبت ثرواتهم وفدحهم الدين من جراء الخمرة

« ولما حرّم بعض أمراء الكوفة بيع الخمر على خماري الحيرة وركب فكسر نبيذهم جاء بكر بن خارجة يشرب عندهم

(١) عقد صاحب مسالك الأبصار فصلا في كتابه عن حانات الحيرة فارجع إليه في ا ٣٨٩—٣٩١ وكذلك فعل في أديارها .

على عادته فرأى الخمر مصبوبة في الرحاب والطرق فبكى طويلاً وقال شعراً (١) ويظهر أن الأمراء لم يشدّدوا على الخمارين حتى رأوا من إقبال الفتيان عليهم الشر المستطير ، وحتى كان رجال كأبي حية النميري يشربونها في الحيرة بنسيئة وصارت السَّكْرة في الحيرة إحدى المنى الغالية

هل إلى سكرة بناحية الحيـ رة يوماً قبل الممات سبيل !؟

أما بساتين الحيرة فحدّث ولا حرج عما فيها من منازه ونضرة وفتنة تحيّر اللب ، وتأسر العقل ، وحسبك أن تعلم أن إبراهيم الموصلي خرج في ركب الرشيد إلى الحيرة ، فلما نام الرشيد اغتنم غفلته فركب يدور في ظهر الحيرة فنظر إلى بستان فقصده « فإذا على بابه شاب حسن الوجه وإذا جنة من الجنان في أحسن تربة وأغزرها ماء » فقال فيه

جنان شُمارى ليس مثلك منظر لذي رَمَدٍ أعيا عليه طبيب

ترابك كافور ونَوْرك زهرة لها أرَج بعد الهُدُوّ يطيب

ثم صنع فيه لحناً وغناه الرشيد ، فأعطاه ثمن البستان أربعة عشر ألف دينار

---

(١) أغاني ٢٠ ٨٧

لم نهتد إلى الزمن الذي تقوم فيه هذه السوق أما ربْع الطريق فقد جعله النعمان طُعْمة لبني لام من طيئ لأنهم أصهاره [1] ونظراً لوقوع هذه السوق في سلطة المناذرة كانت عشورها إليهم لأنهم هم المسيطرون عليها والأمر فيها على كل حال أكمل وأتم من بقية الأسواق من حيث النظام والأمن لأنها في أرض مملكة.

وإليك الآن مشاهد مما كان يجري في تلك السوق على سبيل المثال ، ولا تعجب إذا كان أكثرها في الخمر لأن الخمرة والنضرة والعزف والشعر والغناء ، هن الطابع الخاص للحيرة :

---

(١) المصدر نفسه ١٦ ٩٥

١ — منافرة حامية

خرج الحكم بن أَبي العاص بن أُمية بن عبد شمس ، ومعه عطر يريد الحيرة ، وكان بالحيرة سوق يجتمع إليها العرب كل سنة فمر بحاتم بن عبد الله الطائي ، فسأله الجوار في أرض طيء حتى يصير إلى الحيرة ، فأجاره ثم أمر حاتم بجزور فنحرت وطبخت أعضاء فأكلوا

ومر حاتم بسعد بن حارثة بن لام (وكان النعمان جعل ربع الطريق لبني لام لأنهم أَصهاره) وليس من بني أَبيه غير ابن عمه ملْحان ، فوضع حاتم سفْرَته وقال « اطعموا حيّاكم الله . » فقالوا « من هؤلاء معك يا حاتم ؟ قال : « هؤلاء جيراني . » قال له سعد : « أَفأنت تجير علينا في بلادنا ؟ » قال له : « أَنا ابن عمكم وأحق من لا تخفرون ذمته . » فقالوا : « لست هناك . » وأَرادوا أَن يفضحوه كما فُضح عامر بن جُوَيْن قبله ، فوثبوا إليه ، فتناول أحدهم حاتمًا فأهوى له حاتم بالسيف فأطار أرنبة أَنفه ، ووقع الشر حتى تحاجزوا ، فقال حاتم

وددت وبيت الله لو أَن أَنفه هواءٌ فما مت المخاط عن العظم
ولكنما لاقاه سيف ابن عمه فآب ومرّ السيف منه على الخَطْم[1]

(١) الخطم الأنف .

فقالوا لحاتم « بيننا وبينك سوق الحيرة فنماجدك ونضع الرُّهُن . »

ثم نفذوا ما قالوا فوضعوا تسعة أَفراس رهناً على يد رجل من كلب ، ووضع حاتم فرسه ثم خرجوا حتى انتهوا إلى الحيرة

وسمع بذلك إياس بن قبيصة الطائي ، فخاف أَن يعينهم النعمان ويقويهم بماله وسلطانه للصهر الذي بينهم وبينه ، فجمع إياس رهطه من بني حيّة وقال « يا بني حية إن هؤلاء القوم أَرادوا أن يفضحوا ابن عمكم في مِجاده . » فقال رجل منهم « عندي مئة ناقة سوداء ، ومئة ناقة حمراء أدْماء » وقام آخر فقال : « عندي عشرة حصن ، على كل حصان منها فارس مدجج لا يرى منه إلا عيناه » وقال حسان بن جبلة الخير

« قد علمتم أن أبي قد مات وترك مالاً كثيراً ، فعليّ كل تمر أَو لحم أو طعام ما أقاموا في سوق الحيرة ! »

ثم قام إياس فقال « عليّ جميع ما أَعطيتم كلكم »

وكان حاتم لا يعلم بشيء مما فعلوا . فذهب إلى مالك بن جبار ابن عم له بالحيرة كان كثير المال ، فقال : « يابن عم ، أَعنّي على مخايلتي (مفاخرتي) » فقال مالك : « ما كنت لأُخرب نفسي ولا عيالي وأعطيك . » فانصرف عنه

ثم أتى حاتم ابن عم له يقال له وهم بن عمرو ، وكان حاتم يومئذ مصارماً له لا يكلمه . فقالت له امرأته : « أيْ وهم ! هذا والله أبو سفَّانة حاتم ، قد طلع . » فقال « ما لنا ولحاتم ، أثْبِتي النظر . » فقالت : « حاتم ! » قال : « ويحكِ ، هو لا يكلمني ، فما جاء به إليّ ؟ » فنزل حتى سلّم عليه فردّ سلامه وحياه ثم قال « ما جاء بك يا حاتم ؟ » قال « خاطرت على حسبك وحسبي . » قال « في الرحب والسعة ، هذا مالي (وعِدّته يومئذ تسعمائة بعير) تأخذها مئة مئة ، حتى تذهب الإبل أو تصيب ما تريد . »

فقالت له امرأته : « أنت تخرجنا عن مالنا ، وتفضح صاحبنا (تعني زوجها) ؟ » قال :

« اذهبي عني فوالله ما كان الذي غمّك ليردّني عما قبلي »

ثم إن إياس بن قبيصة قال : « احملوني إلى الملك . » وكان به نِقرِس ، فحمل حتى أدخل عليه فقال « أَنعم صباحاً أبت اللعن . » فقال النعمان :

« وحيّاك إلٰهك . » فقال إياس

« أتمد أَختانك بالمال والخيل وجعلت بني ثعل في قعر الكنانة ؟[1] أظنّ أَختانك أن يصنعوا بحاتم كما صنعوا بعامر بن

---

(١) الأختان الأصهار والكِنانة جعبة السهام

جُوَين ، ولم يشعروا أَن بني حية بالبلد ؟ فإن شئت والله ناجزناك حتى يسفحَ الوادي دماً ، فليحضروا لجادهم غداً مجمع العرب . »

فعرف النعمان الغضب في وجهه وقال له

« يا أَحلمنا لا تغضب فاني سأَكفيك »

وأَرسل النعمان إلى سعد بن حارثة وإلى أصحابه « انظروا ابن عمكم حاتماً فأرضوه ، فوالله ما أنا بالذي أعطيكم مالي تبذّرونه ، وما أَطيق بني حية »

فخرج بنو لام إلى حاتم فقالوا له : « أَعرض عن هذا المجاد . » وتركوا أَرْش أنف صاحبهم وأفراسهم وقالوا

« قبحها الله وأبعدها ، فانما هي مقاذيف . »

فغدا إليها حاتم فعقرها وأَطعمها الناس [1]

٢ - حرمة شاعر في ولده

قدم لَبَطة بن الفرزدق الحيرة فمرّ بقوم من بني تغلب فاستقراهم فقرَوْه ثم قالوا له « من أَنت ؟ » قال « ابن شاعركم ومادحكم ، أنا ابن الذي يقول :

(١) الأغاني : ١٦ ٩٥ والأرش الدية

أضحى لتغلب من تميم شاعرٌ ... يرمي الأعادي بالقريض الأثقل[1]

إن غاب كعب بني جُعَيل عنهم ... وتنمّر الشعراء بعد الأخطل

يتباشرون بموته ووراءهم ... مني لهم قِطَعُ العذاب المرسل ».

فقالوا له: « أنت ابن الفرزدق إذن؟ » قال: « أنا هو. »

فتنادوا « يا آل تغلب، اقضوا حق شاعركم والذائد عنكم في ابنه »

فجعلوا له مئة ناقة وساقوها إليه فانصرف بها[2]

٣— حلق لمة

شرب طُخيم الأسدي بالحيرة، فأخذه العباس بن مَعْبد المُري، وكان على شُرَط يوسف بن عمر، فحلق رأسه؛ فقال

وبالحيرة البيضاء شيخ مسلَّط ... إذا حلف الأيمان بالله برّتِ

لقد حلقوا منا غُدافاً كأنها ... عناقيد كرم أينعتْ فاسبطرّت[3]

يظلّ العذارى حين تحلق لمتي ... على عجل يلقُطْنها حين جُزّت[4]

---

(١) ثفَله: نثره بمرة واحدة. وثَفل الرحى: وضع تحتها مايقيها من الأرض. ولا يثفُلون الرحى إلا إذا كانت طاحنة. (٢) الأغاني ١٩: ١٣

(٣) الغُداف الأسود: يعني شعره. واسبطرّت: طالت وامتدت.

(٤) الأغاني ٨: ١٧٩ (دار الكتب). واللمّة الشعر المجاوز شحمة الأذن. وجزّ الشعر: قصه.

٤ — خمارة وشرطي

كان الأُقَيْشِر الشاعر يكتري بغلة أبي المضاء المُكاري فيركبها إلى الخمّارين بالحيرة ، وكان لا يسأل أحداً أكثر من خمسة دراهم : يجعل درهمين في كري بغل إلى الحيرة ودرهمين للشراب ودرهماً للطعام . فيقال إنه دفع ثمن البغل في الكراء [1]

شرب يوماً في بيت خمار بالحيرة فجاء شرطي من شرط الأمير ليدخل عليه ، فغلّق الباب دونه ، فناداه الشرطي : « اسقني نبيذاً وأنت آمن » فقال : « والله ما آمنك ، ولكن هذا ثقب في الباب فاجلس عنده ، وأنا أسقيك منه » ثم وضع أنبوباً من قَصَب في الثُّقْب وصبّ فيه نبيذاً من داخل ، والشرطي يشرب من خارج الباب حتى سكر ، فقال الأقيشر

سالني الشرطي أَن نسقيَه فسقيناه بأُنبوب القصب
إنما نشرب من أَموالنا فسلوا الشرطي ماهذا الغضب [2]

---

(١) الأغاني ١٠ : ٨١ (٢) الأغاني ١٠ : ٨٦ . هذا وقد قال عبد الملك بن مروان للأقيشر « أنشدني أبياتك في الخمرة » فأنشده

تريك القذى من دونهـا وهي دونه لوجـه أخيهـا في الإناء قطوب
كُمَيْتٌ إذا فضّت وفي الكأس وردة لهـا في عظام الشاربين دبيب

فقال أحسنت ، ولقد أجدت وصفها ، وأظنك قد شربتها ! » فقال : « والله يا أمير المؤمنين إنه ليريبني منك معرفتك بهذا !! »

والقذى : الوسخ في الشراب . والكميت : الأشقر

٥— وطنية صادقة

أختم الكلام عن الحيرة بهذا الدرس البليغ الذي ألقاه علينا أَحد فتيان الحيرة منذ ثلاثة عشر قرناً في حب الوطن ونصرته · وهو درس عملي يخلق بقادة الفكر وزعماء العرب أن يستفيدوا منه فيكونوا قدوة في الوطنية العملية الحقيقية

بلغ العرب في الاعتماد على أنفسهم والاقتصار على صناعاتهم في جميع شؤونهم أمراً عجيباً ، حتى إن بلدة كالحيرة ليست من البلدان الكبرى حينئذ في المملكة الإسلامية ، استطاع أَهلها أن يعتمدوا على محصول بلدتهم ويكتفوا به في كل حاجاتهم حتى الكمالية منها · نرى ذلك في هذا الخبر الطريف الذي سنرويه لك عن الأَغاني ونودّ لو جرؤنا على تقليد أسلافنا في مكرمتهم تلك ، إذاً لكنا حذقنا درساً في الإخلاص الصادق للوطن ، ولما استعبدتنا أَموال الغرب وشركاته ، ولما كنا جميعاً رجالاً ونساء وأَطفالاً ، جنوداً لهم — على رغم أنوفنا — نوطّد أقدامهم في بلادنا بما نتهافت على استهلاكه من بضائعهم ، وبما يطير من جيوبنا إلى خزائنهم ومصانع أسلحتهم من أَموال باهظة ، لا داعي إلى تبذيرها إلا التقليد الأعمى وقشور التمدن السخيف والترف الكاذب ، وإليك هذه الطرفة الثمينة

« كان بعض ولاة الكوفة يذم الحيرة أيام بني أمية ؛ فقال له رجل من أهلها وكان عاقلاً ظريفاً : « أتعيب بلدة بها يضرب المثل في الجاهلية والإسلام ؟ »

قال « وبماذا تمدح ؟ » قال : « بصحة هوائها وطيب مائها ونزهة ظاهرها تصلح للخف والظلف ، سهل وجبل ، وبادية وبستان ، وبر وبحر محل الملوك ومزارهم ومسكنهم ومثواهم ؛ وقد قدمتها أصلحك الله مُخِفاً فرجعت مُثْقِلاً وزرتها مقلاً فأصارتك مكثراً » قال « فكيف نعرف ما وصفتها به من الفضل ؟ » قال : « بأن تصير إليَّ ، ثم ادع ما شئت من لذائذ العيش فوالله لا أجور بك الحيرة فيه ! »

قال : « فاصنع لنا صنيعاً واخرج من قولك » قال : « أفعل . »

فصنع لهم طعاماً وأطعمهم من خبزها وسمكها ، وما صيد من وحشها من ظباء ونعام وأرانب وحُبارى . وسقاهم ماءها في قلالها وخمرها في آنيتها ، وأجلسهم على رَقْمها (وكان يتخذ بها من الفُرُش أشياء ظريفة) ولم يستخدم لهم حراً ولا عبداً إلا من مولّديها ومولّداتها من خدَم ووصائف كأنهم اللؤلؤ ، لغتهم لغة أهلها . ثم غناهم حنين (الحيري) وأصحابه في شعر عدي بن زيد شاعرهم وأعشى همْدان ، لم يتجاوزهما ؛ وحياهم برياحينها ، ونقّلهم

على خمرها، وقد شربوا بفواكهها ثم قال له « هل رأيتني استعنت على شيء مما رأيت وأكلت وشربت وافترشت وشممت وسمعت بغير ما في الحيرة ؟ »

قال : « لا والله، ولقد أحسنت صفة بلدك ونَصَرْته فأحسنت نصرته والخروج مما تضمّنته، فبارك الله لكم في بلدكم [1] . »

---

(١) الأغاني ٢ : ٣٥١ (دار الكتب)

الظلف : للبقر كالخف للبعير وكالحافر للفرس . والحبارى : طائر طويل العنق رمادي اللون في منقاره بعض طول . والرقْم : ضرب مخطط من الوشي أو الخز . والوصائف جمع وصيفة : وهي الجارية البالغة حد الخدمة وكذلك الوصيف . ونقّلهم : أطعمهم النّقْل، والنّقْل : ما يتنقل به على الشراب من فستق وتفاح وغيرهما .

أسواق العرب

ب – في الإسلام

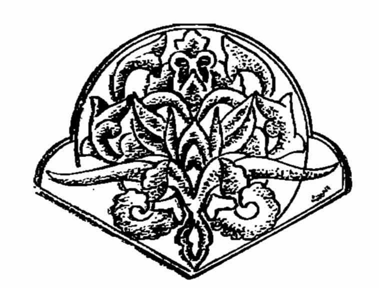
—⊰⊰⊰✿⊱⊱⊱—

الأسواق في الإسلام

لم يعد — وقد تحضر العرب — من حاجة إلى مواسم وأسواق على ما كان عليه الحال في الجاهلية، لأن العرب سكنت المدن الكبار من بلاد الشام والعراق ومصر وفارس والروم، ومصرت هي لأنفسها أمصاراً عظم شأنها مع الزمن كالكوفة والبصرة وبغداد والقيروان

فصارت تستغني كل مدينة بأسواقها الدائمة عن أسواق المواسم، وكفى الله العرب مؤونة الترحال بين أسواق الجزيرة، بما فتح عليهم وسهّل من تجارات تأتيهم إلى مدنهم، بحيث يجدون في كل بلد عُروضَ كثيرٍ من البلدان. وعدل الذين يعانون التجارة منهم عن أسفار البوادي إلى أسفار البحار. وأصبح من البدهي تضاؤل الأسواق الجاهلية بتضاؤل آثار البداوة من حياة العرب، وانتقلوا إلى حضارة وارفة الظلال ريّانة الجنبات يأتيهم فيها رزقهم رغداً من كل مكان، فامّحت أسواق الجاهلية قبل انقضاء القرن الثاني للهجرة ورسخت أقدام التجارة في المدن والثغور

ولكنّ سوقاً واحدة نشأَت في الإسلام واحتفظت بكثير من خصائص أَسواق الجاهلية ، وزادت عليها بميزات واسعة أَسبغتها الحضارة الجديدة واقتضتها حاجات الرقي الحديث : تلك هي سوق المِرْبَد في البصرة ، السوق التي استطاعت أن تكون مرآة تعكس حياة العرب في الجاهلية كما تصوّر حضارتهم في الإسلام . وسنرى كيف استطاعت هذه السوق أن تصهر الحياتين معاً في بوتقة واحدة ، لتصوغ منهما هذه الحِلْية العجيبة التي نعرضها عليك الآن :



البصرة ـ المربد

يتقاضانا الكلام على المربد أن نصف البصرة ، المدينة التي كان المربد سوقها العامة ، نظراً لمكانتها التجارية ، إذ أنها ثغر العراق في الإسلام وليس من المستطاع أن نفهم المربد على حقه إذا لم نعرف أحوال بلده البصرة ، وسيغنينا هذا التمهيد عن شروح وحواشٍ كثيرة عند كلامنا على المربد نفسه .

مصرت البصرة سنة (١٧) أيام عمر بن الخطاب « في أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم كما أمر الخليفة عمر رحمه الله » ولم تكن على عهد الراشدين بالمدينة الكبيرة ، لحداثة نشأتها ، وكانت مستوخمة رديئة الهواء والماء ، ليست بالخصبة ولا الغنية ، حتى اضطر عمر إلى أن ينظر إلى أهلها نظر رحمة ، حينما شكوا إليه أمرهم ، فقد جاء في فتوح البلدان[1]

« قدم الأحنف بن قيس على عمر في أهل البصرة فجعل

---

(١) ص ٣٥٦

يسألهم رجلاً رجلاً والأحنف في ناحية البيت ، في بَتّ[1] لا يتكلم فقال له عمر « أما لك حاجة ؟» قال

« بلى يا أمير المؤمنين إن مفاتح الخير بيد الله ، إن إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العذبة والجنان الملتفّة ، وإنا نزلنا سَبْخة بشاشة لا يجف نداها ولا ينبت مرعاها ، ناحيتها من قبل المشرق البحر الأجاج ، ومن قبل المغرب الفلاة ، فليس لنا زرْع ولا ضرْع ، يأتينا منافعنا وميرتنا في مثل مريء النعامة ، يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين وتخرج المرأة لذلك فتربق[2] ولدها كما تربق العنز يخاف بادرة العدو وأكل السبع ؛ فإلا ترفعْ خسيستنا وتجبرْ فاقتنا نكن كقوم هلكوا » فألحق عمر ذراري أهل البصرة في العطاء وكتب إلى أبي موسى يأمره أن يحتفر لهم نهراً

هذه بداية أمر البصرة وقد ظلت على حالها ، لم تترقّ منها إلى خير منها ، حتى صدراً من أيام الأمويين ، ومضت خلافة معاوية ولم ينفرج ضيق أهلها تمام الانفراج فقد قدم الأحنف أيضاً على معاوية وافداً لأهل البصرة يستعطفه لهم ، وكان فيما

---

(١) البتّ : طيلسان من خز .

(٢) ربقه : ربطه بالربق وهو حبل فيه عدة عُرى .

وصف به أهلها قوله « أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير مع تتابع من المحول واتصال من الذحول ، فالمكثر فيها قد أطرق ، والمقلّ قد أملق ، وبلغ منه المخنّق[1] . »

وبانقضاء عهد الفتن فيها واستقرار الأمر بمثل زياد وابنه والحجاج ، انصرف أهلها لشؤونهم فعكفوا على الزراعة والتجارة وانتعشوا واستفاض لهم زرع ونخيل وتجارات ، فمن ثَمّ عدّت البصرة من أكبر ثغور الإسلام قاطبة

أما الهواء فيها فرديء وكذلك الماء فهو غير عذب ، حتى إنهم ليجلبونه من المسافات البعيدة وقد حفرت فيها أقنية وجداول كثيرة تتشعب عن النهر الأعظم ، ووصف الأقدمون كثرتها وصفاً نكاد لا نصدقه . جاء في مسالك الممالك للإصطخري

« البصرة مدينة عظيمة لم تكن في أيام العجم ، وإنما اختطها المسلمون أيام عمر ، ومصرها عتبة بن غزوان وهي خطط وقبائل كلها . ويحيط بغربيها البادية ، وليس فيها إلا أنهار . وذكر بعض أهل الأخبار أن أنهار البصرة عُدّت أيام بلال بن أبي بردة

---

(١) زهر الآداب ١ : ٨٧ (الطبعة الثانية مبارك) المحول جمع مَحْل : وهو القحط . والذُحول جمع ذَحْل : وهو الثأر : يعني أنهم تفانوا لكثرة الحروب والفتن بينهم . وأطرق : غضّ بصره حياء لأنه لايجد ما يعطي . وأملق : افتقر .

فزادت على (١٢٠) نهر «كذا !!» تجري فيها الزوارق
وقد كنت أنكر ما ذكر من عدد هذه الأنهار في أيام بلال..
حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع، فربما رأيت في مقدار رَمية
سهم، عدداً من الأنهار صغاراً تجري في كلها زواريق صغار،
ولكل نهر اسم ينسب إلى صاحبه الذي احتفره أو إلى الناحية
التي يصب فيها وأشباه ذلك من الأسامي، فجوّزت أن يكون
ذلك في طول هذه المسافة وعرضها وأكثر أبنيتها بالآجر
(هذا على عهد الإصطخري في القرن الرابع الهجري) وهي من بين
سائر العراق مدينة عُشْرية، ولها نخيل متصلة من عَبَدس إلى عبادان
نيفاً وخمسين فرسخاً متصلاً لا يكون الإنسان منه في مكان إلا
بحيث نهر ونخيل أو يكون بحيث يراهما وهي في مستوى
لا جبال فيه ولا بحيث يقع البصر على جبال وبها نهر يعرف
بنهر الأُبُلّة طوله أربعة فراسخ ما بين البصرة والأُبلة[1]، وعلى حافتي
هذا النهر قصور وبساتين متصلة كأنها بستان واحد قد مدّت
على خيط واحد ويتشعب هذا النهر إلى أنهار كثيرة، فمنها
ما يقارب هذا النهر في الكبر وهذه الأنهار كلها مخترقة بعضها
إلى بعض وكذلك عامة أنهار البصرة حتى إذا جاءهم مدّ البحر

---

(١) قال في القاموس: الأُبُلة: موضع بالبصرة، أحد جنان الدنيا.

تراجع الماء في كل نهر حتى يدخل نخيلهم وحيطانهم وجميع أنهارهم من غير تكلّف ، فإذا جزر الماء انحط حتى تخلو منه البساتين والنخيل ويبقى في الأنهار ، إلا أن الغالب على مائهم الملوحة وإنما يستقون إذا جزر الماء إلى حد نهر مَعْقِل ثم يعذُب فلا يضره ماء البحر . »

ونحن مَعْنِيّون بأن نعرف عن البصرة تفاصيل مُسْهبة لأنها سوق العراق العامة يومئذ ، فلا غنى لنا عمن شاهدها ونعتها لنقف على مكانتها وسعة غناها ولولا هذه الصفات التي وصلتنا عن الأقدمين في مختلف حالاتها ، لما استطعنا أن نعلم التدرّج الذي ترقّت فيه البصرة من الإملاق إلى الثروة . ثم صار لهذه الأرض السبخة القفرة على عهد عمر ، الشأن العظيم والمكانة البعيدة في نفوس الكبار حتى قال زياد : « لو أضللت البصرة لجعلت الكوفة لمن دلني عليها ! [١] »

والذين نعتوها متفقون على رداءة هوائها مع سعة عيشها ، فقد روى ابن عبد ربه عن أبي العباس أنه قال « إنما مثل الكوفة مثل اللهاة من البدن ، يأتيها الماء ببرده وعذوبته ، ومثل البصرة مثل المثانة يأتيها الماء بعد تغيّر وفساد . » وقال الحجاج : « الكوفة

(١) العقد الفريد ٤ : ٢٦٥

بكر حسناء والبصرة عجوز بَخراء أوتيت من كل حلْي وزينة[١] .»

وسماها الناس لتقلب هوائها بالرَعناء قال الفرزدق :

لولا أَبو مـالك المرجو نائله ما كانت البصرة الرعناء لي وطنا

والرعونة الحمق والاسترخاء .

إلا أَن وخامتها لم تمنع أَن يتكاثف فيها السكان ويطّرد لها النمو حتى أصبحت كما وصفها جعفر بن سليمان بقوله «العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق »

انقضى القرن الهجري الأُول والبصرة قد قطعت شوطاً بعيداً في الازدهار ، ولم تستقرّ الأُمور لبني العباس في عهد المهدي ومن بعده حتى صارت البصرة «باب[٢] بغداد الكبير ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأَنواع السلع المجلوبة من أَطراف الدنيا ، نظير مرسيلية اليوم بالنسبة إلى فرنسا ، أو جنوة لإيطاليا ، أو ليفربول لبـلاد الإنكليز بل امتازت البصرة على تلك المراسي بنصيب أوفر وحظ أكبر إذ كانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب ، ومحط رحال الشرق والغرب ، من مجاهل

---

(١) المصدر نفسه . وانظر أيضاً ماجاء في أحسن التقاسيم وفي رحلة ابن بطوطة من تقلب هوائها وعفنها . اللهاة : الهنة المطبقة في أقصى سقف الفم . والبَخَر نتن ريح الفم

(٢) حسن حسني عبد الوهاب (مجلة المجمع العلمي العربي) ١٢ ٣٢١

الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى ، ولذلك استفحل بها العمران وكثرت فيها المصانع والصناعات ، وصارت واسطة العرب والعجم وحُق لها أَن تتلقّب « بقبة الإسلام » كما سماها عمر بن الخطاب . ناهيك ببلد جمع لحسن الموقع أضداد الأَشياء وأَشتات الأُرزاق ومختلف المكاسب والمطالب

اشتهر أهل البصرة من قديم بالتطوّح في الآفاق والترامي على الأُسفار البعيدة والضرب في مناكب الأُرض طلباً للرزق والتماساً للثراء (اشتهاراً) جعل الجاحظ يصرّح : « بأنه ليس في الأرض بلدة واسطة ولا بادية شاسعة ولا طرف من أَطراف الدنيا إلا وأنت واجد به البصري والمدني [1] » وقد اتفقت كلمة السائحين وأصحاب الرحلات على بعد همة البصريين في الترحال وغَوْرهم في الاغتراب حتى قال أبو بكر الهمذاني — وناهيك به من خبير —: « وأبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري ، ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى فلا بد أَن يرى فيهما بصرياً أَو حميرياً [2] » اه ملخصاً

---

(١) البخلاء (طبعة مصر سنة ١٣٢٣) ص ١٦٠

(٢) البلدان للهمذاني (ليدن) ص ٥١

وكثرت الأصناف المجلوبة إلى البصرة من عامة الأقطار حتى لقّبت بحق بـ (خزانة العرب [1]) واستطاع أَحد أبنائها وهو الجاحظ ، أَن يؤلف في بضائع البصرة كتاباً مستقلاً يذكر فيه الأحجار الثمينة كالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد.. الخ. والطيب والعطر والروائح الطيّبة والوشي والفرش وما يجلب من البلدان من طرائف السلع والأمتعة والجواري وما يختار من البزاة والشواهين والبواشق والصقور يبتدئ بصفة النوع وما يستجاد منه ومن أَين يجلب وأين أحسنه والجاحظ كما نعلم لم يرحل إلى الهند ولا إلى فارس ولكنّ عنده في بلده تجارات تلك الأمم كلها . ولا نكون إلى الغلوّ إذا قلنا إن البصرة في عصر العباسيين الذهبي كانت سوق العالم قاطبة

ولم يقصر البصريون في الزراعة بل عكفوا عليها وجوّدوها حتى اختُصّوا بمعرفة النخيل وضروبه وأصول غراسه اختصاصاً فاقوا به كل أَحد . قال الهمذاني في كتابه البلدان « ولأهل البصرة من النخيل وأَنواع التمور ما عدم مثله في جميع كُوَر النخيل ، وذكر الجاحظ أَنهم أَحصوا أصناف نخيل البصرة دون نخل المدينة ودون مصر واليمامة والبحرين وعمان وفارس وكرمان

---

(١) انظر تاج العروس .

ودون الكوفة وسوادها وخيبر وذواتها والأهواز وما بهـا ، أيام المعتصم ، وإذا ثلاثمائة وستون ضربا مـن مُغَلّ معروف وخارجي موصوف وبديع غريب مع طيب عجيب »

وهذا افتنان غير قليل في إجادة الزراعة يدل على حذق بها ورقي بالغ وذلك عدا ما شهرت به من الأسماك وأنواع اللحوم والألبان والأقطان وسائر التجارات

ولها إلى ذلك شهرة أخرى تعنينا هنا في بحثنا كثيراً ، وهي ما استفاض فيها من علوم ولغة وأدب وشعر حتى صارت تقصد لذلك دون سائر البلاد ، وكثر فيها العلماء والشعراء والأدباء والكتاب والفقهاء والقراء كثرة تستعصي على الإحصاء ، وسنلمّ بذلك في كلامنا على سوقها الكبرى المربد

ولم تخل إبّان ازدهارها من أن تكون متعة للناظرين ومنازه للمتفرجين ، واشتهر فيها وادي القصر الذي قال فيه الجاحظ

« ومن أتى وادي القصر بالبصرة رأى أرضاً كالكافور ، ورأى ضباباً تُحْتَرَش ، وغزلاناً وسمكا وصيّاداً ، وسمع غناء ملاح في سفينته ، وحُداء جمّال خلف بعيره . »

وكأنّ هذه الجملة الموجزة نثر ما كان الخليل بن أحمد قاله قبله :

زر وادي القصر نعم القصر والوادي في منزل حاضر إن شئت أو بادي

ترى به السفن والظُّلمان حاضرة والضب والنون والملاح والحادي

وليس في أَيدينا نعت للبصرة أَبلغ ولا أَكثر إِحاطة ولا أصدق ولا أَدقّ مما قاله خالد بن صفوان لعبد الملك بن مروان، فقد جمع لنا فيه من صفات البصرة وخصائصها ما لم نجده عند غيره، ولا ريب فهو ابن البصرة وأُحد بلغاء الناس، وكل من أَراد معرفة البصرة في القرن الأُول الهجري فهو عيال على صفة خالد هذه، قال

« يغدو قانصنا فيجيء بالشَّبُّوط والشيم ويجيء هذا بالظبي والظليم، ونحن أَكثر الناس عاجاً وساجاً، وخزاً وديباجاً، وبرذوناً هِملاجاً، وخريدة مغناجاً، بيوتنا الذهب، ونهرنا العجب، أوله الرطب، وأَوسطه العنب، وآخره القصب:

فأما الرطب عندنا فمن النخل في مباركه، كالزيتون عندكم في منابته، هذا على أَفنانه، كذاك على أَغصانه؛ هذا في زمانه، كذاك في إِبّانه، من الراسخات في الوحل، المطعمات في المحل، الملقحات بالفحل؛ يخرجن أَسفاطاً عظاماً، وأوساطاً ضخاماً كأنما ملئت رياطاً ثم ينفلقن عن قضبان الفضة منظومة باللؤلؤ الأبيض، ثم تتبدل قضبان الذهب منظومة بالزبرجد الأُخضر، ثم تصير ياقوتاً أَحمر وأَصفر، ثم تصير عسلاً في شَنّة من سِحاء

فليست بقربة ولا إناء، حولها المذابّ، ودونها الحراب، لا يقربها الذباب، مرفوعة عن التراب. ثم تصير ذهبًا في كِيَسة الرجال، يستعان به على العيال[١]

وأما نهرنا العجب فإن الماء يقبل عَنقًا، فيفيض مندفقًا فيغسل غثها، ويبدي مبثها، يأتينا في أوان عطشنا، ويذهب في زمان ريّنا، فنأخذ منه حاجتنا، ونحن نيام على فرشنا، فيقبل الماء وله عُباب وازدياد، ولا يحجبنا عنه حجاب، ولا نغلق دونه الأبواب، ولا يتنافس فيه من قلة، ولا يحبس عنا من علة[٢]

وأما بيوتنا الذهب، فإن لنا عليهم خرجًا في السنين والشهور، نأخذه في أوقاته، ويسلمه الله تعالى من آفاته، وننفقه في مرضاته.»

هذا ولم تحظ — فيما نعلم — بلدة من بلاد الإسلام، بمثل ما حظيت به البصرة، فقد تشارك في صفتها ثلاثة من فرسان البلاغة والعبقرية خالد بن صفوان والخليل بن أحمد والجاحظ

---

(١) الشبوط والشيم: نوعان من السمك. والساج: خشب يجلب من الهند. والهملاج: الحسن السير. والأسفاط مفردها سَفَط: وعاء يجعل فيه الطيب ونحوه. والرياط جمع رَيْطة وهي الملاءة. والشَنّة: القِربة البالية. والسحاء: القشر. والمذابّ جمع مذبّة: وهي من شعر ذنب الفرس يدفع بها الذباب. والكيَسة جمع كيس. (٢) العَنَق: سير فسيح سريع. والغث: الرديء. والعباب: موج أو ارتفاع الماء.

سوق المربد

ننتقل من أسواق العرب في الجاهلية إلى أسواقها في الإسلام. ونلاحظ أننا لا نرى في هذه الأسواق الشأن الكبير الذي كان لأسواق الجاهلية، لأن العرب – كما تقدم – تحضرت وسكنت الأمصار وكثرت فيها الأسواق الدائمة تحوي كل نوع من أنواع البضائع المعروفة لهم فلم تستجدّ في الإسلام سوق لم تكن في الجاهلية، إلا ما كان من أمر المربد الذي ورث عكاظ، وقضى على ما كانت تتمتع به من ميزات، منذ عصر الراشدين، وأخذ أمر المربد بالازدياد حين بدأ شأن عكاظ بالخمول فالانتقاص فالموت.

نزلت العرب البصرة سنة أربع عشرة ومصرتها سنة سبع عشرة على تخطيط وضعه عمر وأرسل من يقف على تنفيذه وكان المربد على الجهة الغربية من البصرة إلى البادية، ليكون أول ما ينزلون إذا قصدوا البصرة، وآخر ما يتركون إذا رحلوا عنها. ليقضوا فيه متاعاً لهم ومرافق يتبلّغون بها في ظعنهم وإقامتهم

معنى المِربد محبِس الإبل ومربطها . والمربد أيضاً بيدر التمر لأنه يربد فيه فيشمّس . والرُبدة لون إلى الغبرة

ومربد البصرة هذا متسع للإبل تُرْبَد فيه للبيع وكان في الأَصل سوقاً للإبل ، حتى إذا كان عهد الأُمويين صار سوقاً عامة تتخذ فيه المجالس ويخرج إليها الناس كل يوم ، كل إلى فريقه وحلقته وشاعره ، وتتعدد فيه الحلقات يتوسطها الشعراء والرُجّاز ويؤمها الأُشراف وسائر الناس يتناشدون ويتفاخرون ويتهاجون ويتشاورون وقد وجدوا فيه مستجاًّ لأبدانهم وأرواحهم التي نهكتها الفتوحات ، وحنّت إلى سابق عهدها في عكاظ فجدّدت منه ما سمح به الدين الجديد بل غضّت النظر فتسامحت أَحياناً وأحيت ما أمات الإسلام من حميّة جاهلية وإحن وثارات وأثارات عداوات ، كان يبعثها الناس من تلقاء أنفسهم ، أو بتشجيع خفي من بعض خلفاء الأُمويين ، ليشغلوا الناس بعضهم ببعض عن الخلافة وما يأتي الخلفاء من هنات

فالمربد معرض لكل قبيلة تعرض فيه شعرها ومفاخرها كما تعرض عروضها . وهو مجتمع العرب ومتحدثهم ومتنزه البصريين ، يؤمه منهم من عاف عيشة المدن . وما زال يعلو شأنه وتستجيب له أسباب الكمال ، حتى اشتد ولوع الناس به وارتيادهم له . ويظهر أَن الأُمر

زاد على ما نعرف للمنازه اليوم من خطر ، فقد بنيت فيه الدور الجميلة وتفاقم أمره حتى صار من الضروري لكل أحد في عصر العباسيين ، أن يغشى المربد ، إن لم يكن لحاجة فلترويح النفس وتمتيع البصر وترويض البدن ، وحتى قال جعفر بن سليمان الهاشمي جملته المشهورة

« العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة ، وداري عين المربد[1] » ومازال في مجده هذا حتى خرب وخربت البصرة وتقلّص العمران بينهما إلى أن صار بين المربد والبصرة ثلاثة أميال خراب على عهد ياقوت الذي ذكره في معجمه فقال :

« مربد البصرة من أشهر محالّها . وكان يكون سوق الإبل فيه قديماً ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء والخطباء . وهو الآن بائن عن البصرة نحو ثلاثة أميال وكان مابين ذلك كله عامراً وهو الآن خراب فصار المربد كالبلدة المنفردة في وسط البرية . »

نقلت قول ياقوت هذا في البصرة ومربدها ، لأقول إن الذي طرأ عليها من الخراب والتأخر ، طرأ على العراق كله فمن يقرأ وصف العراق وبلدانه وجنانه ونعيمه وسكانه وعمرانه وخيراته في كتب

---

(١) ثمار القلوب ص ١٢٨

الأَدب ، وخاصـة في العصر الثاني والثالث والرابع للهجرة ، ثم يرحل إليه اليوم ، لا يجد وصفاً للعراق أصدق من قول ياقوت في تلك الأميال الثلاثـه التي كانت عمرانًا متصـلاً بين البصرة ومربدها وأصبحت على عهده خرابًا يبابًا أفرد المربد من أمها و كان سوقًا من أسواقها ، وجعلها قرية بائنة لا خطر لها

ولئن كان لعـكاظ ذلك الأثر في اللغة العربية : ألفاظها وأساليبها ، فإن المربد كان له أيضـًا في اللغة أثر بعيـد يختلف بعض الاختلاف عن أثر عـكاظ ، لمـا بين الزمانين والمكانين من التباين ؛ فعـكاظ في قلب الجزيرة العربية يحج إليها أشراف العرب وفصحاؤها ، لا عجمة فيها ولا أثر لأعجميين البتة والأمر في المربـد على العـكس هو في طرف الجزيرة على الخليج الفارسي وبينه وبين الفرس قرب قريب . وزاد الاسلام والفتوح اختلاط العرب بالعجم فتطرّق إلى اللغة الفسـاد والعجمة واللحن وغشي هذا الضعف مجالس الخاصة من العرب ، وأزرى بلهجات الفصـحاء حتى صرت تسمع الأمير على المنبر في المواسم ، يلحن على ملأ من الأعراب والبلغاء والأشراف ، فعيب على الحجاج لحن وأُثر عن عبيد الله بن زياد مثله ، وكذلك نقلت لحنات عن أشراف العرب . فكان المربد يعج بأعلام اللغة والأدب والشعر والنحو ، معهم محابرهم ودفاترهم يكتبون عن

فصحاء الأَعراب فيه ، وهــذه الظاهرة لم تكن في عــكاظ قط

ويشبه المربد عــكاظ في أمر الشعر وحلقاته ، بل يزيد عليه ، فلكل شاعر حلقة ، ولـكل متهاجيين مجلس ، ولـكل قبيلة نادو شاعره يذود عنها ويرد عدوان قريعه من القبيلة الثانية فللعجاج ولروبة حلقة ، ولأبي النجم العجلي حلقة ، ولجرير والفرزدق وراعي الإبل وذي الرمة ، لكل منهم حلقة وكثر هذا المحصول من الرجز والشعر والنكات الأدبيــة كثرةً ملأت أمهات كتب الأدب بأخبارها ، ولا شك في أن المربد في هذا فاق عــكاظ مراحل واسعة وفاته بعدد الشعراء والرجّاز وكثرة الروّاد وطلاب الأدب . وفي المربد أطفئت ثالثة جمرات العرب ، أطفأها جرير بقصيدته الدمّاغة .

كان لكلٍ من الشعراء رواة ينقلون له ماقاله خصمه وينشرون في الناس جواب شاعرهم عليه ، وكان اهتمام الناس بالشعر والأدب من أقوى الأسباب العاملة في غزارته وكثرة المقبلين على تعلّمه وروايتــه

ويتفرّد المربد بأمر علمي محض لم يكن له في عــكاظ من أثر ، وهو أنه أرفد اللغة بمادة كثيرة ، عليها أسّس النحاة قواعدهم وأصلحوها ؛ وذلك بما كانوا يقصدون له فصحاء الأعراب يسألونهم فيما فيه يختلفون ،

ويأخذون عنهم مستفيدين ومتعلمين . وحسبك أن تقرأ أيًا شئت من كتب الأدب الأمهات كالأغاني والأمالي والبيان والتبيين والكامل و . . . لتجد أن أكثر مادتها فيما يتعلق بالعصر الأول والثاني للهجرة ، كان المربدُ ميدانه وينبوعه وخذ إن أردت كتب التاريخ الكبرى كالطبري مثلاً ثم ابلغ في فهرس أماكنه إلى المربد ، يأخذك العجب من كثرة المواطن التي ورد ذكر المربد فيها مع أن الكتاب كتاب سياسة وأخبار ملوك لا كتاب عامة وأدب .

والغريب أن هذا المربد لم يكتف بأن يستأثر بكل ميزة كانت لعكاظ ، بل جمعها وضم إليها ميزات جديدة أفادها من خصائص عصره وطبيعة اجتماعه ، فإن كانت في عكاظ حروب موضعية بين قبيلتين فإن المربد كان ميداناً لأكبر فتنة وأشد حرب داخلية وقف فيها المسلم أمام المسلم يكافحه بسيفه ويشرع إليه رمحه . كان المربد ميداناً لحروب الجمل ، أول حرب فرّقت كلمة هذه الأمة المخيفة وجعلت بأسها بينها ، وكانت حلقة أولى في هذه السلسلة الطويلة التي نخرت الجسم الاسلامي ومكّنت عدوه منه وكانت أفتك به من كل حرب صليبية وغارة تتارية ووحشية أوروبية

فلأعرض على القارئ مشهداً صغيراً مما جرى في المربد من هذه الحرب ليحمل باقي المشاهد عليه

خرجت السيدة عائشة مطالبة بدم عثمان ، ناقمة على خلافة علي ، ومعها مشيخة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرين وأنصاراً ، منهم الزبير وابنه وطلحة وابنه ونفر من بني أمية فيهم مروان بن الحكم وآخرون غير هؤلاء ، فقصدت البصرة لأن لها فيها نفراً على رأيها . وكان على البصرة عثمان بن حنيف والياً لعلي ، وقد مهدت لأمرها بكتب أرسلتها إلى رؤساء البصرة وساداتها فأجابها قليل وردّ عليها قوم وحايد قوم . بعد هذا التمهيد القصير أنقل وصف هذا المشهد معتمداً على ما جاء في تاريخ الطبري :

« أقبلت عائشة فيمن معها حتى إذا انتهوا إلى المربد ودخلوا من أعلاه ، أمسكوا ووقفوا وتلقّاهم الناس حتى لو رموا بحجر ما وقع إلا على رأس إنسان . وخرج عثمان أمير البصرة لعلي فيمن معه ، ولحق بعائشة من أهل البصرة من شاء حتى غصّ المربد بالناس . واحتلّ طلحة والزبير وجموعهما ميمنة المربد واحتلّ عثمان بن معه ميسرته . فوقف طلحة يتكلم فأنصتوا له

فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان رضي الله عنه وفضله والبلد وما استحلّ منه بقتل عثمان الخليفة ، وعظم ما أُتي إليه . ودعا إلى الطلب بدمه وقال إن في ذلك إعزازاً لدين الله عز وجل وسلطانه ، وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم فإنه من حدود الله ، وإنكم إن

فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليكم وإن تركتم لم يقم لكم سلطان ولم يكن لكم نظام وتكلم الزبير بمثل ذلك ؛ فقال من بميمنة المربد وكانوا يحطبون في حبل الخارجين على علي : « صدقا وبرّا وقالا الحق وأمرا بالحق . » وقال من في ميسرته : « فجرا وغدرا وقالا الباطل وأمرا به ، قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان . » وتحاثى الفريقان وتحاصبوا وأرهجوا .[1]

فتكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كأنه صوت امرأة جليلة فحمدت الله وأثنت عليه وقالت « كان الناس يتجنّوْن على عثمان رضي الله عنه ويزْرُون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيرونا فيما يخبروننا عنهم ويرون حسناً من كلامنا في صلاح بينهم ، فننظر في ذلك فنجده بريئاً تقيّاً وفيّاً ونجدهم فجرة غدرة كذبة ، يحاولون غير ما يظهرون فلما قووا على المكاثرة كاثروا ، فاقتحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر ألا إن مما ينبغي — ولا ينبغي لكم غيره — أَخذ قتلة عثمان رضي الله عنه وإقامة كتاب الله عز وجل وتلت « أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ ٱلَّذِينَ أُوتوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ

---

(١) تحاثى ترامى ، والحثى : التراب . تحاصبوا : تراموا بالحصْبة : وهي الحجارة . وأرهجوا : أثاروا الرهج وهو الغبار

يُدْعَوْنَ إِلىٰ كِتَابِ ٱللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يتولىّٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ٠ » آل عمران ، ٢٣

فماج الناس وافترق أصحاب عثمان بن حنيف بعد سماعهم ما تقدّم فرقتين فقالت فرقة « صدقت والله وبرّت وجاءت والله بالمعروف ٠ »وقال الآخرون : « كذبتم والله ما نعرف ما تقولون .» فتحاثوا وتحاصبوا وأرهجوا

أوقعت هذه الخطب الانقسام في جماعة عثمان نفسه ، ولما رأت عائشة ذلك انحدرت وانحدر أَهل الميمنة مفارقين لعثمان حتى وقفوا من المربد في موضع الدبّاغين وبقي أَصحاب عثمان على حالهم يتدافعون حتى تحاجزوا ومال بعضهم إلى عائشة وبقي بعضهم مع عثمان وأَتى عثمان فيمن معه حتى إذا كانوا على فم السكة سكة المسجد عن يمين الدبّاغين استقبلوا الناس فأخذ عليهم بفمها

كاد الأمر يقف عند هذا ، فإن أَصحاب عائشة ما أَرادوا حينئذٍ قتالا ، ولكن جماعة في أصحاب عثمان — ولعل أَكثرهم ممن اشترك في دم الخليفة الشهيد — تعجلوا الحوادث وأَرادوا بدء القتال ، وكان حكيم بن جبلة على الخيل وهو أول من أَقبل يُنشب القتال ، وأشرع أَصحاب عائشة رضي الله عنها رماحهم ، وأَمسكوا ليمسك أَصحاب عثمان ، فلم ينته حكيم

ولم يُثْنَ ، وقاتلهم ، وأصحاب عائشة كافّون ، إلا ما دفعوا عن أنفسهم ، وحكيم يُذَمِّر [1] خيله ويركبهم بها ويقول « إنها قريش ، ليُرْدِيَنّها جبنها والطيش » واقتتلوا على فم السكة وأشرف أهل الدور — والموقعة بجوارهم والمربد يومئذٍ سوق داخل في البلد حوله البيوت — ممن كان له في واحد من الفريقين هوى ، فرموا الآخرين بالحجارة . وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بني مازن فوقفوا بها طويلاً وثار إليهم الناس حتى حجز الليل بينهم »

هذا حادث من حوادث كثيرة وقعت في المربد واستمرت حتى انتهت حرب الجمل باندحار أصحاب عائشة ذكرتُه ليقف القارئ على صورة من هذه المأساة الفادحة التى كانت وما بعدها سبباً في فُرقة المسلمين وحدوث طوائف ونحل يلعن بعضها بعضاً ويحمل بعضها على بعض ، تتناكر وتتقاذف وترى كل منها أن غير المسلم أقرب إليها من أهل الطائفة الثانية وكثيراً ما استعان بعضها على بعض بالأجنبي عدوهما معاً ، بل كثيراً ما عمل الدخيل على توسيع الشقه بينهما وقوّى بعضا على بعض وأمدّ الفريقين من وراء وراء ، بالسلاح والمال ليفنيا جميعاً

---

(١) التذمير الحثّ والحضّ .

كان في المربد إذن أدب وتجارة وحرب وسياسة كما كان في عكاظ وأستطيع أن أقسم الكلام على المربد أقساماً ثلاثة كان شأنه في كل منها مختلفا . أما الأول فعلى عهد الراشدين إذ كان يقتصر أمره على التجارة غالباً وإن لم يعدم يوماً أن كان ساحة حرب ومسرح مآسٍ وقد عرفنا مما ذكر الطبري أن به موضعاً للدباغين فالمربد إذن سوق البصرة أيام الراشدين وأغلب ما يتاجر فيه التمر وما إليه والإبل والسلاح والغنائم مما كان يقسم على المحاربين ، فيبيعه هؤلاء في المربد .

ثم يأتي العهد الثاني أيام الأمويين وقد اتسعت السوق وكثر قاصدوها من الأطراف وازدهت بالشعراء والأدباء والعلماء ووفود القبائل ، مما لم يكن في العهد الأول ، لانشغال الناس آنئذٍ بالجهاد والفتوح ، وعدم فراغ لهذه الألوان من الأدب التي لا تغزر وتتهيّأ إلا بعد استتباب حال الدولة ، ولم نعهد حركة أدبية نشأت إبان الفتوح حين تتأسّس الدول

وازدان هذا العهد بأفحل رجّاز وشعراء أخرجهم العهد الأموي وأخص بالذكر جريراً والفرزدق والأخطل والبعيث ، وراعي الإبل وذا الرمة ، ومن الرجاز رؤبة وأباه العجاج وأبا النجم العجلي وهذا الفريق

أما في العهد الثالث أي بين آخر العصر الأموي والقرن الثاني للهجرة، فقد نضجت حركة المربد الأدبية والعلمية نضجاً يتسق هو وما وصلت إليه الدولة من حسن الحال وسعة الأفق ومرافق الحضارة وبسطة العلم وسعة السلطان . وكان من أبطال المربد أكابر النحاة ورواة الشعر والأدب والشعراء والذي كان جديداً في هذا العهد ولم يكن قبل، الناحية العلمية وأعني بها ما كان يصنعه أبو عمرو بن العلاء والأصمعي وقبيلهما من غشيان لفصحاء (١)

---

(١) كان المربد مدرسة عملية تعلم الفصاحة ويهرع إليه طلابها من كل وجه ونبغ منهم عدد غير قليل، والنظام والجاحظ من مشهوريهم فقد ذكر المؤرخون أن الثاني تلقف الفصاحة شفاها بالمربد . وأهل البصرة في الجملة من أفصح أهل الأمصار، بل إن الجاحظ ليذهب أبعد من ذلك فيزعم أنهم أفصح أهل الأمصار عامة، ولسنا نستطيع أن ننسب هذا منه إلى عصبية لبلده . جاء في كتابه البيان والتبين (١ ٣٣ السندوبي)

[قال أهل مكة لمحمد بن مناذر الشاعر : « ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة » فقال ابن مناذر « أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن، وأكثرها له موافقة، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم

أنتم تسمون القدر بُرمة، وتجمعون البُرْمة على برام، ونحن نقول : قدر ونجمعها على قدور، وقال الله عز وجل « وجِفَانٍ كَالْجَوَاب وَقُدُورٍ راسِيَاتٍ » سبأ . الآية ١٣

وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت علية، وتجمعون هذا الاسم =

الأعراب وصبر على لوثتهم وجفائهم ، وتلقّف لما ينطقون به وإثبات له في الصحف ، يروونه ليبنى عليه الأساس في وضع القواعد العربية

قال صاحب ضحى الإسلام (٢ : ٨) وفي قوله إجمال ما قدّمت

كان المربد في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين مركزاً سياسيًا وأدبيا ، نزلت فيه عائشة أم المؤمنين بعد مقتل عثمان تطالب بدمه وتوألّب الناس على عليّ ، وكان المربد مركزاً للمهاجاة بين جرير والأخطل والفرزدق ، وأنتج ذلك نوعًا من أقوى الشعر الهجائي كالذي نقرؤه في النقائض ، وكان لكل من هؤلاء الشعراء حلقة ينشد فيها شعره ، وحوله الناس يسمعون جاء في الأغاني « وكان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد في البصرة »

واستمر المربد في العصر العباسي ، ولكنه كان يؤدي غرضاً

= على علالي ونحن نسميه غرفة ونجمعها على غرفات وغرف وقال الله تبارك وتعالى « غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ » الزمر ، الآية ٢٠ وقال : « وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ » سبأ ، الآية ٣٧

وأنتم تسمون الطلع : الكافور والإغريض ، ونحن نسميه الطلع وقال الله عز وجل « وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ » الشعراء ، الآية ١٤٨

فعدّ عشر كلمات ولم أحفظ أنا منها إلا هذا .]

آخر غير الذي كان يؤديه في العهد الأموي ، ذلك أن العصبية القبلية ضعفت في العصر العباسي بمهاجمة الفرس للعرب ، وأحس العرب بما هم فيه جميعاً من خطر من حيث هم أمة لا فرق بين عدنانيّهم وقحطانيّهم ، ولكنهم لم يستطيعوا المقاومة ، فقوي نفوذ الفرس وغلبوا العرب على أمرهم ، وبدأ الناس في المدن كالبصرة يحيون حياة اجتماعية هي أقرب إلى حياة الفرس منها إلى حياة العرب ، وانصرف الخلفاء والأمراء عن مثل النزاع الذي كان يتنازعه جرير والفرزدق والأخطل ، وظهرت العلوم تزاحم الأدب والشعر ، وفشا اللحن بين الموالي الذين دخلوا في الإسلام ، وأفسدوا حتى على العرب الخالصة لغتهم ، فتحوّل المربد يؤدي غرضاً يتفق (هو) وهذه الحياة الجديدة

أصبح المربد غرضاً يقصده الشعراء لا ليتهاجوا ، ولكن ليأخذوا عن أعراب المربد الملكة الشعرية يحتذونهم ويسيرون على منوالهم ، فيخرج إلى المربد بشار وأبو نواس وأمثالهما ، ويخرج إلى المربد اللغويون يأخذون عن أهله ويدوّنون ما يسمعون روى القالي في الأمالي عن الأصمعي قال « جئت إلى أبي عمرو ابن العلاء فقال لي من أين أقبلت يا أصمعي ؟ » قلت « جئت من المربد » ، قال « هات ما معك » فقرأت عليه

ما كتبت في ألواحي ، فمر به ستة أحرف لم يعرفها ، فخرج يعدو في الدرجة وقال « شمّرت في الغريب » أي غلبتني

والنحويون يخرجون إلى المربد يسمعون من أهله ما يصحح قواعدهم ويؤيد مذاهبهم ، فقد اشتد الخلف بين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة في النحو وتعصب كل لمذهبه ، وكان أهم مدد لمدرسة البصرة هو المربد ؛ وفي تراجم النحاة نجد كثيراً منهم كان يذهب إلى المربد يأخذ عن أهله ويخرج الأدباء إلى المربد يأخذون الأدب ، من جمل بليغة وشعر رصين وأمثال وحكم ، مما خلفه عرب البادية وتوارثوه عن آبائهم ، كما فعل الجاحظ إن الجاحظ أخذ النحو عن الأخفش ، وأخذ الكلام عن النظّام ، وتلقّف الفصاحة من الأعراب شفاهاً بالمربد » اه

وكما كان عكاظ يؤمه كل من أراد أن يفتخر أو يعلن أمراً تفرد به أو يشيع في الناس مأثرة أو خبراً ، كان المربد كذلك منشرة للمحامد والمساوئ ، مسرة الصديق وغيظ العدو ، فكل من أراد أن يكبت خصماً أو يحقر قبيلة أو يشهر محمدة طلب لها المربد يجعلها فيه ، لتكون أشيع وأسير وأبلغ في الإرضاء والإغاظة . وقد كان المربد مسرحاً لدعوات سياسية ودينية واستغاثات وشكوى ورثاء ونخر كما كان عكاظ وأحفل ما

كان المربد ، في النصف الثاني لعهد الأمويين والثلث الأول لعهد العباسيين فلأشرع في عرض مناظر تكمل الصورة التي وصفت ليكون القارئ ملماً بجميع ما يعرض ويجري في المربد على اختلاف المناحي والغايات ، وقد تقدمت صورة على عهد الراشدين وهي حرب الجمل . ولا ريب في أن المربد لم يستفحل أمره وتتعدّد مقاصده إلا فيما بعد ، في الزمن الذي ذكرت لك من أيام بني أمية وبني العباس

* * *

١ — عوذ بقبر

عبد مكاتب لبني مِنْقَر ، ضاقت حاله ولم يقدر على حيلة يجمع بها المال لسيّده حتى يعتقه ؛ فلما عيي بالأمر أتى قبر غالب أبي الفرزدق ، فضرب قبة عليه علامة الاستعاذة والاستغاثة ، فقدم الناس فأخبروا الفرزدق أنهم رأوا بناء على قبر غالب أبيه

قصد المكاتب المربد وتقصّى الحلقات حلقةً حلقة ، حتى وقف على حلقة الفرزدق حيث يجلس فقال

بقبر ابن ليلى غالبٍ عذت بعدما ... خشيت الردى أو أن أُردّ على قسْر
فخاطبني قبر ابن ليلى وقال لي ... فكاكك أن تلقى الفرزدق بالمصر

فقال له الفرزدق « صدق أبي ، أَنِخْ أنخ » ثم طاف على الناس حتى جمع له كتابته وفضلاً فضل للمكاتَب فانصرف وقد أَنجح مسعاه

٢ — مجنون في حب

كان بالبصرة مجنون قاعد على ظهر الطريق بالمربد ، فكلما مر به ركب قال

ألا أيها الركب اليمانون عرِّجوا علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
نسائلكم هل سال نعمان بعدكم وحبَّ إلينا بطن نعمان واديا

فسألت عنه ، فقيل هذا رجل من البصرة ، كانت له ابنة عم يحبها فتزوجها رجل من أهل الطائف فنقلها ، فاستوله عليها [1]

٣ — إنهاب مال

كان زياد قد نهى أن يُنهب أَحد مال نفسه ، وكان الفرزدق أُنهب ماله بالمربد وذلك أُن أباه بعث معه إبلا ليبيعها فباعها وأَخذ ثمنها فعقد عليه مُطْرَف خزّ كان عليه ، فقال قائل :

---

(١) الأمالي ٢ ١٢٦ · والوله ذهاب العقل من حزن ، والحيرة والخوف ·

« لشدّ ما عقدت على دراهمك هذه ، أما والله لو كان غالب ، ما فعل هذا الفعل ! »

فحلها الفرزدق ثم أنهبها وقال « من أخذ شيئاً فهو له »

وبلغ ذلك زياداً فبالغ في طلبه فهرب ، فلم يزل زياد في طلبه ، قد بلغ منه كل مبلغ ليعاقبه على ما صنع ، وقد نهى زياد في ذلك ألا يفعله أحد وكان زياد إذا قال شيئاً وفى به فلم يزل في هربه ذلك يطوف في القبائل والبلاد حتى مات زياد .[1]

٤ — تهديم دور الهجّائين

كان للبصرة وال متنسّك يروى عنه الفقه ، اسمه الحارث بن عبد الله المخزومي ولقبه القُباع[2] بلغه ما يكون في المربد من الشر بين جرير والفرزدق وبين حييهما بسببهما ، ولما رأى أنهما غير منتهيين عن ذلك ، أراد أن يخطو الخطوة الحاسمة بحزم ، فأمر بالدار التي ينزلها جرير في المربد والدار التي ينزلها الفرزدق في المقبرة فهدمتا

---

(١) النقائض ص ٦٠٧

(٢) القُباع : المكيال الضخم . ولقّب الحارث بن عبد الله والي البصرة بالقباع لأنه اتخذ ذلك المكيال لهم ، أو لأنهم أتوه بمكيال لهم حين وليهم فقال : « إن مكيالكم هذا لقباع » — القاموس

وكان القُباع قد أَراد هدم دار الفرزدق قبل هذه المرة أيضاً في شيءٍ بلغه ، ثم إنه كُلِّم فيه وهرب الفرزدق

ويظهر أَن هذا الجزاء كان شديداً قد بلغ من نفسي الشاعرين مبلغاً ، حتى إن الفرزدق بعدها خنع وتملّق فقال

أحارث داري مرتين هدمتها وكنتَ ابنَ أُخت لا تُخاف غوائله
وأَنت امرؤ بطحاء مكة لم يزل بها منكمُ معطي الجزيل وفاعله
فقلنا له لا تشمتنّ عدونا ولا تنس من أصحابنا من نواصله
فقبلك ما أَعييت كاسر عينه زياداً فلم تقدر عليّ حبائله
فأقسمت لا آتيه سبعين حجة ولو نشرت عين القباع وكاهله

وقال جرير في ذلك

أحارث خذ من شئت منا ومنهمُ ودعنا نقس مجداً تعد فواضله
فما في كتاب الله تهديم دورنا بتهديم ماخور خبيث مداخله

٥ — هجاء الباهلي

كان الفرزدق قد أَكثر من هجاء « باهلة » حتى عيّت هذه القبيلة بأمرها وكان مما قال فيهم

أَباهلُ لو أَن الأَنام تنافروا على أَيِّهم شرٌّ قديمًا وأَلأَمُ
لفاز لكم سهما لئيم عليهم ولو كانت العجلان فيهم وجرهم

وقال أيضاً

ألا كيف البقاء لباهلي   هوى بين الفرزدق والجحيم
ألست إذا نسبت لباهلي   لألأم من تركّض في المشيم[1]
وهل يسطيع أبكم باهلي   زحام الهاديات من القروم[2]
فلا يأت المساجد باهلي   وكيف صلاة مرجوس رجيم. الخ

إلا أن الله أراد أن يرحمهم، فساق الفرزدق يوماً إلى المربد، فلقي رجلاً يقال له حِمام من موالي باهلة، ومعه نِحْيٌ من سمن يبيعه

فسامه الفرزدق إياه فقال له: «أدفعه إليك وتهب لي أعراض قومي!» فقال يهب له أعراض قومه ويهجو إبليس

ألا بشّرا من كان لا يملك استه   ومن قومُه بالليل غير نيام
يخافون مني أن يصكَّ أنوفهم   وأقفاءهم إحدى بنات صمام[3]
لعمري لنعم النِحْيُ كان لقومه   عشيةَ عب البيع نحي حمام[4]

(١) المشيم محل الولد في الرحم

(٢) الهادي المتقدم، والهوادي من الإبل أول رعيل يطلع منها. والقُروم الفحول

(٣) الصَّمام الداهية الشديدة يقال: صَمّي صمام أي زيدي ياداهية.

(٤) النِحْي الزق وقيل ما كان للسمن خاصة والعَبّ الكرع وتتابع الشرب

أطعتك يا إبليس سبعين حجة فلما انتهى شيبي وتم تمامي
فررتُ إلى ربي وأيقنت أنني مُلاقٍ لأيام المنون حمامي
ألا طالما قد بتّ يوضع ناقتي أبو الجن إبليس بغير خِطام
يظل يمنّيني على الرحل واركاً[1] يكون ورائي مرة وأمامي
وما أنت يا إبليس بالمرء أبتغي رضاه ولا يقتادني بزمام
سأجزيك من سوءات ما كنت سقتني
إليه جروحاً فيك ذات كِلام[2]
وإن ابن إبليس وإبليس ألبنا لهم بعذاب الناس كل غلام[3]
هما تفلا في فيَّ من فمويهما على النابح العاوي أشد رجام[4]

٦— جرير يهجو قبيلة

بنو العم قبيلة ليست من صميم العرب « نزلوا ببني تميم في أيام عمر بن الخطاب فأسلموا وغزوا مع المسلمين وحسن بلاؤهم، فقال الناس « أنتم وإن لم تكونوا من العرب، إخواننا وأهلنا

---

(١) الوارك المعتمد على وركه، والورك: ما فوق الفخذ

(٢) الكِلام الجروح

(٣) لبَنَ القوم سقاهم اللبن، وألبن القومُ كثر عندهم اللبن، ومن المجاز: لبَنَه بالعصا والحجر ضربه

(٤) الرِجام الحجارة

وأَنتم الأنصار والإخوان وبنو العم » فلُقّبوا بذلك وصاروا في جملة العرب . » إلاّ أَن الاسم الذي سُمّوا به يحمل في تضاعيفه سمة قوم لصقاء ، فكان فيه بعض الغضّ منهم وكانوا يُضربون مثلاً في رقة النسب وضعف الوشيجة حتى قال كعب بن معدان يهجو بني ناجية ويُعرّض بنسبهم في قريش :

وجدنا آل سامة في قريش   كمثل « العمّ » بين بني تميم

حضرت هذه القبيلة المربد وقد تواقف للهجاء جرير والفرزدق ، يردّ هذا على ذلك ووراء كلٍّ قبيلتهُ وحزبه ، فهاج الشر واقتتلت القبيلتان بنو يربوع قوم جرير ، وبنو مجاشع قوم الفرزدق ، فأمدت بنو العم بني مجاشع وجاؤوهم وفي أيديهم الخشب فطردوا بني يربوع » فقال جرير « من هؤلاء ؟ » قالوا : « بنو العم . » فقال جرير يهجوهم ويعرّض بالفرزدق وأَنصاره الوضيعين هؤلاء :

ما للفرزدق من عزّ يلوذ به   إلا بني العم في أَيديهم الخشب
سيروا بني العم فالأهواز داركمُ   ونهر تيرى ولم تعرفكم العرب (١)

---

(١) الأغاني ٣ : ٢٥٧ (دار الكتب) الأهواز : سبع كور بين البصرة وفارس ، لكل كورة منها اسم ويجمعها الأهواز . ونهر تيرى من نواحي الأهواز

٧ — والفرزدق لعبة

جرير والفرزدق ملآ المربد بأشعارهما ونقائضهما وظلاّ حديث أهلها ما عاشا لا يألو أحدهما جهداً في خلق ما يعير صاحبه به ، فهما أبداً دائبان في أن يجدا من كل شيء موضوعاً للهجاء ، ألف منهما ذلك أهل المربد عامة . وكانت لـكلٍّ حلقة يملأ فيها ماضغيه فخراً بقبيله وهجاءً لقبيل خصمه ، وكانت عبقريتهما البعيدة الغور تفتق لهما من الشعر ألواناً تشغل بها السامعين من البدو والحضر

هذا جرير ، وقف بالمربد وقد لبس درعاً وسلاحاً تاماً وركب فرساً أعاره إياه أبو جهضم عبّاد بن حصين الحبطي فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب وشيٍ وسواراً وقام في مقبرة بني حصن ينشد بجرير ، والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما . فقال الفرزدق وقد وجد في لباس جرير السلاحَ والدرعَ ، مادةً لهجائه

وإن كليباً إذ أتتني بعبدها كمن غرّه حتى رأى الموت باطله
رجوا أن يردوا عن جرير بدرعه نوافذ ما أرمي وما أنا قائله
عجبت لراعي الضأن في حُطَمِيّة وفي الدرع عبد قد أصيبت مقاتله
وهل تلبس الحبلى السلاح وبطنها إذا انتطقت عبءٌ عليها تعادله
أفاخ وألقى الدرع عنه ولم أكن لألقي درعي من كميٍّ أقاتله

تركناجريراًوهوفيالسوقحابس عطية : هل يلقى به من يبادله
فقالوا له رُدَّ الحمار فإنه أبوك لئيم رأسه وجحافله
وأنتحريصأن يكون محاشع أباك ولكنّ ابنه عنك شاغله[١]
وما ألبسوه الدرع حتى تزيّلت من الخزي دون الجلد منه مفاصله

ولما بلغ جريراً أن الفرزدق في ثياب وشي اهتبلها فرصة فقال :

لبست سلاحي والفرزدق لعبة عليه وشاحا كُرَّج وجلاجله ![٢]

فعرف كيف يصوّب السهم ويحكم الضربة ويفوز بإضحاك الناس من خصمه الفرزدق : اللعبة

٨ – ضحية بين فحلين

هاجى جرير ثمانين شاعراً وكان عمر بن لجأ أحدهم ؛ وكان جرير قد هجاه بقوله

ياتيمُ تيم عديّ لا أبا لكم لا يَقْذِفَنّكمُ في سوْءة عمر
أحين صرتُ سماماً يابني لجأ وخاطرتْ بي عن أحسابها مضر[٣]

فبينا جرير واقف بالمربد وقد ركبه الناس وعمر بن لجأ مواقفه

---

(١) النقائض ص ٦٢٣ الحطمية الدرع أفاخ تفاجّ وفتح فخذيه وفشا . وعطية : أبو جرير . والجحافل للخيل والبغال والحمير : بمنزلة الشفة .
(٢) الكُرّج المهر معرب
(٣) السمام : جمع سم . وخاطر راهن . والحسب مفاخر الآباء

يتهيأ للردّ عليه ببيتيه ، هدأت الضجة فقال عمر هذين البيتين وكان قد رفده بهما الفرزدق

لقد كذبْتَ وشرالقول أكذبه ماخاطرت بك عن أحسابنامضر

ألبست فروة خوّار على لوُمٍ لا يسبق الحلبات اللوُم والخور

سمعها جرير ففكر ثم فطن للأمر فقال « قبحاً لك يا بن لجأ ، أهذا شعرك ؟ كذبت والله ولوُمت ؛ هذا شعر حنظلي ، هذا شعر العزيز (يعني الفرزدق) . » فأبلس عمر وما ردّ جوابا .

وكان في الحلقة غنيم بن أبي الرقراق فطار حتى أتى الفرزدق فضحك له وأخبره الخبر ، فاستلقى الفرزدق يضحك حتى فحص الأرض برجليه ، وقال في ساعته يريد عمر بن لجأ ، هذا الذي دخل بين فحلين فسقط مطّرحاً بين أقدامهما

وما أنت إن قِرْما تميم تساميا أخا التيْم إلا كالوشيظةفيالغرم[1]

فلو كنت مولى الظلم أو في ثيابه ظلمتولكن لايديْ لكفيالظلم

ويرجع الخبر بذلك إلى جرير فتنبسط أساريره ويعلوه البشر إذ سمع هذين البيتين ، ورأى لأول مرة كلمة إنصاف من ذلك الذي ملأ عليه الأرض هجاءً وشراً فيقول

---

(١) الوشيظة قطعة عظم تكون زيادة في العظم الصميم ، وهم وشيظة في قومهم حشو فيهم ؛ والدعيّ لا يدخلونه عادة في الغرم .

« ما أنصفني في شعر قط قبل هذا » يعني قوله (إن قرما تميم تساميا)

٩ — الحكم في تنافر شاعرين

[لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قتلت بنو سليم وهم من قيس ، مقتلة من بني فهر وبني كنانة

فلما وجه معاوية في خلافته بسر بن أرطاة الفهري لقتل شيعة علي ، نهضت وجوه قيس إلى معاوية وقالوا

« نسألك بالله والرحم ألا تجعل لبسر على قيس سلطانا فيقتل قيساً بمن قتلت بنو سليم من بني فهر وبني كنانة يوم فتح مكة » فقال معاوية : « يا بسر ليس لك سلطان على قيس »

سار بسر حتى أتى الطائف فقالت له ثقيف « ما لك علينا سلطان ، نحن من قيس . » فسار حتى أتى همدان وهم في جبل يقال له شبام ، فتحصنت فيه همدان ثم نادوا « يا بسر نحن همدان وهذا شبام . » فلم يلتفت إليهم ، حتى إذا اغتروا ونزلوا إلى قراهم أغار عليهم فقتل وسبى نساءهم فكن أول مسلمات سبين في الإسلام ومر بحيّ من بني سعد نزول بين ظهري بني جعدة بالفلج (موضع لبني جعدة بنجد) فأغار بسر على الحي السعديين فقتل منهم وأسر فقال أوس بن مغراء في ذلك

مشرّين ترعون النجيل وقد غدت ... بأوصال قتلاكم كلاب مزاحم[1]

فقال النابغة يجيبه

---

(١) المُشِر الباسط ثوبه في الشمس ، والنجيل : جنس من الحمض

متى أكلت لحومكم كلابي أكلت يديك من جوب تهام

وهاج الشر بين الشاعرين لما كان بين القبيلتين من ذحول وعداوة . ولم يكن أوس مثل النابغة ولا قريباً منه في الشعر . فقال النابغة : « إني وإياه لنبتدر بيتاً أينا سبق إليه غلب صاحبه . » فلما بلغه قول أوس

لعمرك ما تبلى سرابيل عامر من اللؤم ما دامت عليها جلودها

قال النابغة « هذا البيت الذي كنا نبتدر إليه » فغُلِّب أوس عليه]

كان مفهوماً أَن يناضل كل شاعر عن حيّه ويدفع عنه ما يلصقه خصمه به ، فتأرّث الهجاء بين النابغة وأَوس ، واستطال أوس بنسبه إلى معدّ ، ثم كانت الحكومة بين الشاعرين في المربد سوق العرب في الإسلام وهذه رواية الأغاني في القضاء بينهما

اجتمع النابغة الجعدي وأَوس بن مغراء في المربد ، فتنافرا وتهاجيا ، وحضرهما العجّاح والأخطل وكعب بن جعيل ؛ فقال أَوس

لما رأت جَعدة منا ورِدا ولّوْا نعَامًا في البلاد رُبْدا [1]

إن لنا عليكم معدّا كاهلها وركنها الأشدا

فقال العجاج :

---

(١) الورْد الجيش . والرُبْد : جمع ربداء وهي النعامة المختلطة السواد

كل امرئ يعدو بما استعدا

وقال الأخطل يعين أوس بن مغراء ويحكم له

وإني لقاض بين جعدة عامر   وسعد قضاء بيّن الحق فيصلا
أَبو جعدة الذئب الخبيث طعامه   وعوف بن كعب أكرم الناس أَولا

وقال كعب بن جعيل

إني لقاض قضاء سوف يتبعه   من أم قصداً ولم يعدل إلى أَود [1]
فصلاً من القول تأَتمّ القضاة به   ولا أجور ولا أَبغي على أَحد
(نالت) بنو عامرٍ سعداً وشاعرها   كما (تنال) بنو عبس بني أَسد

وهكذا باء النابغة على فحولته بشر ما يبوء امرؤ إلى أَهله، وفاز أَوس بحكومة هؤلاء القضاة غير العادلين

١٠ — نقد سخف

تكوّف جماعة بمربد البصرة على الشاعر ذي الرمة، وهو قائم وعليه برد قيمته مئتا دينار فاجتمعوا إليه وهو ينشد ودموعه تجري على لحيته حزناً وأَسفاً على عهد صاحبته خرقاء

ما بال عينك منها الدمع ينسكب   الخ

* * *

بينا ذو الرمة بالمربد والناس مجتمعون إليه، إذا هو بخياط

---

(١) أم قصد، الأود العوج والميل

يقف ويقول « يا غيلان » (اسم ذي الرمة)

أأنت الذي تستنطق الدار واقفاً من الجهل : « هل كانت بكن حلول ! » ؟

فقام ذو الرمة وفكر زماناً ثم عاد فقعد في المربد ينشد فإذا بالخياط قد وقف عليه وكان ، ذو الرمة قد قال في خرقاء صاحبته هذين البيتين المشهورين

أيا ظبية الوعساء بين جُلاجل وبين النقا آ أنت أم أمّ سالم
هي الشبه ، لولا مدْرياها وأذنها سواء وإلا مَشْقَةٌ في القوائم [1]

فقال الخياط يعرّض بهذين البيتين ويسخر من تشبيهه هذا :

« أأنت الذي شبهت عنزاً بقفرة لها ذنب فوق استها أم سالم
وقرنان إما يلزقانك يتركا بجنبك ياغيلان مثل المواسم
جعلت لها قرنين فوق شواتها [2] ورابك منها مشقة في القوائم »

فخجل ذو الرمة وبهت ، وقام فذهب ولم ينشد بعدها في المربد حتى مات الخياط [3]

---

(١) الوعساء رابية من رمل لينة تنبت أحرار البقول والنقا من الرمل : القطعة تنقاد محدودبة · المَشْقة التفريج في قوائم ذات الحافر المِدْرى القرْن ، والمشط

(٢) الشوى قحف الرأس

(٣) الأغاني ١٦ ١١٤

١١ — إعدام قبيلة

كان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها ، وكان الراعي قد ضخم أمره ، وكان من شعراء الناس ، فدخل في المنافرة بين جرير والفرزدق وقضى على الأول للثاني وكان فيما قاله

يا صاحبي دنا المسير فسيرا غلب الفرزدق في الهجاء جريرا

وقال

رأيت الجحش جحش بني كليب تيمم حوض دجلة ثم هابا

(يعني جريراً)

فلما أكثر الراعي من ذلك قال جرير لرجال من قومه « هلاّ تعجبون لهذا الرجل الذي يقضي للفرزدق عليّ وهو يهجو قومه وأنا أمدحهم » ثم خرج جرير ذات يوم يمشي ولم يركب دابته لئلا يعلم به أحد ، فتعرّض للراعي يريد أن يلقاه من حيال حيث كان يمر إذا انصرف من مجلسه بالمربد فمر الراعي عَلى بغلته وابنه جندل يسير وراءه على مهر له أحوى ، وإنسان يمشي معه يسأله عن بعض الأمر فلما استقبل جرير الراعي قال له : « مرحبًا بك يا أبا جندل . » ، وضرب بشماله على

معرفة بغلته ، ثم قال يا أبا جندل : « إنك شيخ مضر وشاعرها وقد بلغني أنك تفضل عليّ الفرزدق تفضيلاً قبيحا وهو ابن عمي دونك ، فإن كان لا بد من تفضيل فأنا أحق به لمدحي قومك وذكري إياهم ويكفيك من ذاك إذا ذكرنا أن تقول كلاهما شاعر كريم ولا تحتمل مني ولا منه لائمة » فبينا جرير كذلك أقبل ابن الراعي جندل ، حتى ضرب عجز دابة جرير حتى كاد يقطع إصبع رجله وقال لأبيه : « لا أراك واقفاً عَلى كلب من بني كليب كأنك تخشى منه شراً أو ترجو منه خيرا . » وضرب البغلة ضربة فمحت جريراً رمحة وقعت منها قلنسوته ، قال جرير « فوالله لو عرّج عليّ الراعي لقلت سفيه غويّ (يعني جندلاً ابنه) ولكن لا والله ما عاج ، فأخذت قلنسوتي فمسحتها ثم أعدتها على رأسي . »

فانصرف جرير غضبان حتى إذا صلى العشاء بمنزله في عليّة له قال « ارفعوا لي باطيّة من نبيذ وأسرجوا لي » ففعلوا . فجعل يهمهم ، فسمعت صوته عجوز في الدار ، فاطلعت في الدرج حتى نظرت إليه فإذا هو يحبو في الفراش عرياناً ، لما هو فيه ، فانحدرت فقالت : « ضيفكم مجنون ، رأيت منه كذا وكذا .. » فقالوا لها : « اذهبي لِطيّتك ، نحن أعلم به وبما يمارس . » فما زال

كذلك حتى كان السحر ، ثم إذا هو يكبّر قد قالها ثمانين بيتاً في نُمَيْر ؛ فلما ختمها بقوله

فغُضّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

كبّر ثم قال « أخزيته ورب الكعبة . »

ثم أصبح ، حتى إذا عرف أَن الناس قد جلسوا في مجالسهم بالمربد ، وكان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق دعا بدهن فادّهن ، وكفّ رأسه ، وكان حسن الشعر ثم قال « يا غلام أسرج لي » فأسرج له حصاناً . ثم قصد مجلسهم ، حتى إذا كان موقع السلام قال « يا غلام . » ولم يسلم

« قل لعُبَيْد : أبعثك نسوتك تكسبهن المال بالعراق ؟ أما والذي نفس جرير بيده لترجعنّ إلى أهلك بِمِيْرٍ يسوؤهن ولا يسرهنّ ؛ أَمّا أنا فقد بعثني أَهلي لأقعد على قارعة هذا المربد ، فلا يسبهم أحد إلا سببته وإن علي نذراً إن جعلت في عينيّ غمضاً حتى أُخزيك . » ثم اندفع جرير في قصيدته :

أَقلِّي اللوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبت لقد أصابا

فأنشدها فنكّس الفرزدق وراعي الإبل ، وأزمّ القوم ، حتى إذا بلغ قوله

بها برص بجانب إسْكَتيها

وضع الفرزدق يده على فيه ، وغطّى عَنْفَقَته [١] لئلا يفطن جرير فيخزيه في مجلسه ذاك ؛ ففطن لها جرير فأتمّ البيت هكذا وكأنّ الفرزدق لقّنه إياه

بها برص بجانب إسكتيها   كعنفقة الفرزدق حين شابا

ولعله في الأصل على غير ذلك . فانصرف الفرزدق وهو يقول « اللهم أخزه ، والله لقد علمت حين بدأ بالبيت أنه لا يقول غير هذا ، ولكن طمعت بالسلامة فغطّيت وجهي فما أغناني ذلك شيئاً »

واسترسل جرير في الإنشاد حتى بلغ قوله مخاطباً الراعي

فغضّ الطرف إنك من نُمَيْر   فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فأسقط في يد الراعي وبني نمير عامة . وقال الفرزدق « غضّه والله فلا يجيبه ولا يفلح بعدها أبدا »

وسُرعان ما تناقل هذا البيت أهل المربد ، وانفض المجلس عليه . وسار الراعي فوجد البيت سبقه إلى أهله وقومه فاستحيا ورحل وهكذا انطفأت قبيلة نمير آخر جمرات العرب في المربد ، أمام هذا المحفل الحاشد ، على يد جرير الشاعر

---

(١) الإسكة جانب فرج المرأة ، وهما إسكتان والعنفقة شعرات بين الشفة السفلى والذقن

١٢ — ردّ عدوان

قدم معن بن أوس المزني (البصرة) فقعد ينشد في المربد . فوقف عليه الفرزدق وأراد العبث به فقال : « يا معن ، من الذي يقول

لعمرك ما مزينة رهط معن   بأجفان نطاق ولا سنام [1] »

فقال معن « أتعرف يا فرزدق من الذي يقول

لعمرك ما تميم أهل فَلْج   بأرداف الملوك ولا كرام [2] »

فرآه الفرزدق صلباً فتنصل وقال له : « حسبك إنما جرّبتك . » فأجابه معن بلهجة الحازم « قد جرّبت وأنت أعلم » فانصرف وتركه

١٣ — سلاطة

كان المربد إلى ذلك يفسح مجالاً لمتعصبة الشعوبية وأراذلهم ، فينالون من الحسب الزاكي والأصل الكريم ويتطاولون ، وكانوا يدسون سمومهم في أفكار الموالي والعبيد قال الأصفهاني

---

(١) من معاني الجفن الشجر الطيب الريح

(٢) الرِدْف الرديف ، وكل ما تبع شيئاً فهو ردْفه

« وقف رجل من بني زيدٍ شريف ، لا أحب أَن أُسميه على بشار فقال له « يا بشار ، قد أفسدت علينا موالينا تدعوهم إلى الانتفاء منا وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء ؛ وأَنت غير زاكي الفرع ولا معروف الأُصل » فقال له بشار :

« والله لأُصلي أكرم من الذهب ، ولفرعي أَزكى من عمل الأَبرار ، وما في الأُرض كلب يودّ أَن نسبك له بنسبه . ولو شئت أَن أجعل جواب كلامك شعراً لفعلت ، ولكن موعدك غداً بالمربد . » فرجع الرجل إلى منزله وهو يتوهّم أن بشاراً يحضر معه المربد ليفاخره ، فخرج من الغد يريد المربد فإذا رجل ينشد

شهدت على الزيدي أَن نساءه

(وأَفحش بشار في تتمة البيت) فارتاع الشريف وسأل عمن قال هذا البيت فقيل له « هذا لبشار فيك » فرجع إلى منزله من فوره ولم يدخل المربد حتى مات

فانظر في بضاعة المربد هذه ، واعجب كيف ينقبض فيه الأَخيار ويتسلط الأَشرار !

١٤ — معركة الرجّاز

نترك حلبة الشعراء إلى حلبـة أخرى أطرف وأظرف، لأن أَصحابها ذوو أصول بدوية مقيمون في الحضر . تلك هي حلبــة الرجاز أَبي النجم العجلي ورؤبة وأَبيه، فننظر كيف يتنافس هؤلاء، حتى إذا سكنت الريح بينهم أنت قبائلهم فأثارتهــا وكدّرت ما بينهم حتى يعود الشر جَذَعَة[1] كما كان بدأ، ولعل المنظر الذي سنعرضه بعد قليل أروع منظر شهده المربد

« قال فتيان من عجل لأبي النجم هذا رؤبة بالمربد يجلس فيسمع الناس شعره، وينشد الناس ويجتمع إليه فتيان من بني تميم، فما يمنعك من ذلك ؟ » فقال « أو تحبون هـذا ؟ » قالوا « نعم » قال فائتوني بعُسّ[2] من نبيذ فأتوه به فشرب ثم نهض وقال

إذا اصطبحتُ أَربعًا عرفتَني ثم تجشّمتُ الذي جشّمتَني

وأَقبل إلى المجلس بالمربد فلما رآه رؤبة أعظمه وقام له عن

---

(١) أصل الجذع ولد الشاة في السنة الثانية والأنثى جذعة . وطفئت حرب بين قوم فقال أحدهم إن شئتم أعدناها جذعة يريد من أول

(٢) العسّ بالضم القدح الكبير

مكانه وقال « هذا رجّاز العرب » وسألوه أن ينشدهم فأنشدهم أرجوزته التي أولها الحمد لله الوهوب المجزل

وكان إذا أنشد أزبد ووحّش[1] بثيابه وكان من أحسن الناس إنشاداً فلما فرغ منها قال رؤبة هذه أمّ الرجز

إلا أن هذا الصفاء بين الرجازين واعتراف رؤبة وإقراره بفضل أبي النجم ورضى هذا عن رؤبة لم يدم طويلا ، فسرعان ما أهاج الشر بينهما غواةُ الرجز ، فما لبثا أن فسد ما بينهما واشتدت المنافسة إلى الغاية . وأنت إذا أردت أن تستمتع وتتسلى وتستفيد ، فأثر خصومة أو منافسة ، أو هج شراً بين أديبين أو شاعرين أو عالمين ، تجد متعة وطرافة تنعم بهما من حيث شقي الرجلان . هذا ما صنع قوم أبي النجم لما رأوا العجاج (أبا رؤبة وقريع أبي النجم) خرج محتفلا عليه جبة خز وعمامة خزّ ، على ناقة له قد أجاد رحلها حتى وقف بالمربد والناس مجتمعون فأنشدهم قوله « قد جبر الدينَ الإلهُ فجبر »

فذكر فيها ربيعة قوم أبي النجم وهجاهم . فانطلق رجل من الناس من بكر بن وائل يشتدّ عدواً إلى أبي النجم في بيته ، فقال له يستحثه وهو يلهث « أنت جالس وهذا العجاج يهجونا

---

(١) أي رمى بها

بالمربد ، قد اجتمع عليه الناس ! ؟ » فتحرك أَبو النجم وقال « صف لي حاله وزيّه الذي هو فيه » فوصف له ، فقال « ابغني جملاً طحاناً قد أكثر عليه من الهناء [1] فجاء إليه بجمل كاه قروح وقطران ، فأخذ أَبو النجم سراويل له فجعل إحدى رجليه فيها واتّزر بالأخرى وركب الجمل ودفع خِطامه إلى من يقوده . فانطلق حتى أَتى المربد وقد لحقه ما لا يحصى لما رأوا من الهيئة الغريبة ، حتى دنا من العجاج في حلقته فقال لقائد جمله : اخلع خطامه ، فخلعه وأَخذ أَبو النجم ينشد أُرجوزته

« تذكّر القلب وجهلاً ما ذكر »

والعجاج على ناقته يسمع ، ونفسه تحدثه بشر يصيبه . وجعل جمل أَبي النجم يدنو من ناقة العجاج يتشممها ، والعجاج يتباعد عنه لئلا يفسد ثيابه الخزّ ورحله الثمين الثقيل ، بالقطر ن . وما زال الجمل يتقرب من الناقة والعجاج يتقهقر حتى وصل أَبو النجم في إنشاده إلى قوله

« شيطانه أنثى وشيطاني ذكر »

فثارت عاصفة من الضحك والاستحسان من كل صوب وضج بها المربد ، وتعلّق الناس هذا البيت وهرب العجاج عنه .

---

(١) هنأ الإبل طلاها بالهناء وهو القطران يضعونه منها مواضع الجروح

١٥ — صحابي بكتاب نبوي

وهذا رجل من ضرب آخر قديم ، أفلت منذ قرن ، ليكون في المربد كما تكون العاديّات في المعارض أو دور الآثار والمصانع

روى الأصمعي عن يزيد بن عبد الله قال « بينما نحن بهذا المربد جلوس ، إذ أتى علينا أعرابي أشعث الرأس فوقف علينا فقلنا « والله لكأنّ هذا الرجل ليس من أهل البلد » قال الأعرابي : « أجل والله . » وإذا معه قطعة من جراب أو أديم فقال : « هذا كتاب كتبه لي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . » فأخذناه فقرأناه فإذا فيه

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله لبني زهير (حي من عكل)

إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وفارقتم المشركين وأعطيتم الخمس من الغنائم وسهم النبي والصفيّ فأنتم آمنون بأمان الله وأمان رسوله ، لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم

فقال القوم وقد تكاثروا حوله « حدّثنا أصلحك الله بما سمعت من رسول الله » قال : « سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول «صوم شهر الصبر، وصوم ثلاثة من كل شهر، يذهبن وحَرَ الصدر.»

فقال له القوم: «أنت سمعت هذا من رسول الله؟» فأثاره شكهم هذا وأغضبه فقال «أَراكم تخافون أَن أَكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا حدّثتكم حديثًا.» ثم أَهوى إلى الصحيفة وانصاع[1] مدبراً»

قال المحدِّث: فقيل لي لما تولّى: هذا النمر بن تولب العكلي[2] الشاعر!

---

(١) انصاع انفتل راجعًا مسرعًا

(٢) كان النمر يسمى الكيِّس لحسن شعره وهو جاهلي أدرك الإسلام وهو القائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم

إنا أتيناك وقد طال السفر نقود خيلاً ضُمّراً فيها عسر

نطعمها الشحم إذا قل الشجر والخيل في إطعامها اللحم ضرر

عاش إلى أن خرف وأُهْتِر وكان هجيِّراه أن يقول «أصبحوا الركب، أغبقوا الركب» كعادته التي كان عليها ومن شعره قوله:

لا تغضبنّ على امرئٍ في ماله وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

وإذا تصبك خصاصة فارجُ الغنى وإلى الذي يعطي الرغائب فارغب

وقوله

وأعلم أنْ ستدركني المنايا فإلاّ أتبعْها تتبعْني

أُهْتِر خرف وهجيراه دأبه وعادته

١٦ — من محن السياسة

أَتركُ معركة الرجّاز تلك ، وأترك أبا النجم في زهو ظفره ونشوة انتصاره وقد سرّه أن يولّي العجاج مدحوراً مقهوراً ، وأن يسري خبر ما صنع واخترع في أُسواق البصرة كلها سريان الكهرباء ، وأجوز مشهد النمر بن تولب الأعرابي الغريب الزي ، وأَقف بالقارئ على مشهد آخر يبعث العبرة ، ويهيج من النفس مكامن الثورة فيها والمقت للسياسة وما تجرّه من ويلات

أَوقع الخليفة أبو جعفر المنصور بالخراسانية إذ قتل يعسوبها أُبا مسلم ، وخلص من عمه الذي ناوأه ، وبقي عليه أن يستأصل شأفة العلويين الذين لهم في النفوس المكانة البعيدة والتجلّة والاحترام ؛ فشدّد عليهم وقيّدهم وحبس منهم وقتّل

ونحن الذين رأينا بالمربد ، صورة من كل ما يجري فيه حينئذ من دين وأَدب ، ومعرضاً لعادات اجتماعية وأساليب تجارية ، سنرى فيه أيضاً صدًى لما يتردد في أَمصار الإسلام إذ ذاك من شدّة على العلويين وتضييق وأَخذ بالخناق

في مربد البصرة سليمان بن علي من رؤوس بني العباس الذين أوقعوا بالعلويين ، وحوله جماعة من أَشراف الناس . فإنه لجالس

مجلسه ، وإذ بكبير العلويين إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين ابن علي بن أبي طالب : شيخ عليه أمارات الحزن والمهابة والوقار معاً ، وإلى جنبه المفضّل الضبّي ، ويمشي مع الشيخ صبيان من ولده قد ضمّهم إليه

لمح إبراهيم مكان سليمان بن علي فوقف على رأسه وأمامه أطفاله ، وقال بصوت متهدّج تخنقه العبرة وأشار إلى سليمان :

« هؤلاء منا ونحن منهم ، إلا أنهم فعلوا بنا وصنعوا . . . (وذكر كلاماً يعتدّ عليهم فيه بالإساءة) . . » قال هذا فتحركت الرحمة في نفوس السامعين جميعاً لما آل إليه أمر بني علي ، وحدّثتهم أنفسهم بشيء على بني العباس وقسوتهم ، على أبناء عمومتهم . ثم توجّه الرجل لوجهه وتمثّل بهذه الأبيات

مهلاً بني عمنا ظلامتنا　　إنّ بنا سورة من القلقِ

لمثلكم تحمل السيوف ولا　　تغمز أحسابنا من الرَّقَق

إني لأنمى إذا انتميت إلى　　عزّ عزيز ومعشر صُدُق

بيض سباط كأنّ أعينهم　　تكحل يوم الهياج بالعلق[1]

فقال له المفضّل وهو يتبعه : ما أفحل هذه الأبيات فلمن هي ؟

---

(١) سوْرة الغضب وثوبه وحدّته والغمز العيب السِباط : الحسان القد والاستواء والعلق الدم

قال : « لضرار بن الخطاب الفهري قالها يوم الخندق وتمثل بها علي ابن أبي طالب يوم صفين والحسين بن علي يوم قتل ، وزيد بن علي . »

ثم لحق القوم فلم يمض قليل حتى أتاه نعي أخيه محمد قتله رجال أبي جعفر ، فتمثل إبراهيم

نبئت أن بني ربيعة أجمعوا أمراً خلالهمُ لتقتل خالدا
إن يقتلوني لا تصبْ أرماحهم ثأري ويسعى القوم سعيا جاهدا
أرمي الطريق وإن صددت بضيعة وأنازل البطل الكميّ الجاحدا

فسأله المفضل لمن هذه الأبيات ؟ فقال : للأحوص بن جعفر بن كلاب تمثّل بها يوم شعب جبلة ثم لم يلبثا أن أقبلت عساكر أبي جعفر واقتتلت مع أصحاب إبراهيم هذا . وقتل من الفريقين من قتل وكاد يكون الظفر لإبراهيم[1]

---

(١) الأغاني ج ١٧ ص ١٠٩

وتتمة رواية المفضل هذه [فلما رأى البياض بقل والسواد يكثر قال لي « يا مفضل حرّكني بشيء يهوّن علي بعض ما أرى . » فأنشدته :

ألا أيها الناهي فزارة بعدما أجدّت بسير إنما أنت حالمُ
أبى كل حر أن يبيت بوتره ويمنع منه النوم إذ أنت نائم
أقول لفتيان العشي تروّحوا على الجُرْد في أفواههن الشكائم
قفوا وقفة : من يحي لم يخز بعدها ومن يخْتَرَمْ لا تتبعه اللوائم
وهل أنت ـ إن باعدت نفسك منهمُ لتسلمْ ـ فيما بعد ذلك سالم =

١٧ — استعراض الأمم

إذا كانت المعارض اليوم تزخر بالناس من مختلف الأمم فإن المربد اقتصر على العرب والفرس فقط . وكان مضى على هـذين الجنسين أكثر من قرن وهما يتمازجان دماً وطبـائع وعادات ، حتى تعلم كثير من الفرس النازلين في بقاعٍ أغلب أهلها عرب ، اللغة العربية وثقفوها وأحسنوا التكلم بهـا نظماً ونثراً ولم يخل المربد من هذه الطبقة الجديدة ، فقد كانت تغشاه وتضيف إلى ما به من ألوان ، لوناً حديثاً لا عهد للناس بمثله

= فقال لي « أعد » فتنبهت وندمت ، فقلت : « أوِ غير ذلك ؟ » فقال « لا ، أعدها ، فأعدتها ، فتطالَّ علَى سرجه ، وتمطّى في ركابه حتى خلته قد قطعها ، ثم حمل فطعن رجلا وطعنه آخر ، فقلت : « أتباشر الحرب بنفسك والعسكر منوط بك ؟ » فقال « إليك عني يا أخا بني ضبة ، كأن عُوَيْفاً أخا بني فزراة نظر في يومنا هذا حيث يقول

ألـمّت خُنـاس وإلمامهـا ... أحاديث نفس وأسقـامها
يمانية من بني مالك ... تطاول في المجـد أعمامها
وإن لنـا أصل جرثومة ... ترد الحـوادث أيامها
يرد الكتيبة مفلولة ... بها أفْنها وبهـا ذامها

ثم حمل حملة جاءه فيها سهم عائر ، فشغله عني وكان آخر العهد به] اه
ويخْتَرَمْ يمتْ شاباً والأفْن ضعف العقل . والذام الذم

وقد رُوي أَن أَديب العرب وفارس عبد الله ابن المقفع ، دعا جماعة بالمربد ناحية وطرح عليهم هـذا السؤال « أَي الأمم أعقل ؟ » فـكانت الأجوبة مختلفة واستعرض المجيبون أَحوال من يعرفون من الأمم ؛ فلا علينا وقد شهدنا مشاهد النضال في المربد من حروب وهجاء ، أَن نشهد مجلساً علمياً هادئاً يضم نخبة من ذوي العقول الراجحة والآراء الحصيفة

قال شبيب بن شيبة أَحد بلغاء العرب وجليس الملوك

« كنا وقوفاً بالمربد ، وكان المربد مألف الأَشراف ، إذ أَقبل ابن المقفع فبششنا به وبدأناه بالسلام ، فردّ علينا السلام ثم قال « لو ملتم إلى دار نيروز وظلها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعوّدتم أَبدانكم تمهيد الأرض ، وأَرحتم دوابّكم من جهد الثقل ، فإن الذي تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه »

فقبلنا وملنا ولما استقرّ بنا المكان قال لنا

« أَي الأمم أَعقل ؟ ! »

فنظر بعضنا إلى بعض ! فقلنا لعله أَراد أَصله من فارس فقلنا :

« فارس »

فقال « ليسوا بذلك ؛ إنهم ملكوا كثيراً من الأرض ،

ووجدوا عظيماً من الملك وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عقد الأمر ، فما استنبطوا شيئًا بعقولهم ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم »

قلنا فالروم ، قال أصحاب صنعة قلنا فالصين ، قال أَصحاب طُرْفة قلنا فالهند ، قال أَصحاب فلسفة قلنا فالسودان قال شر خلق الله . قلنا فالترك قال كلاب مختلسة قلنا فالخزر قال بقر سائمة قلنا : فقل . قال العرب فضحكنا

فقال أَما إني ما أَردت موافقتكم ولكن إذ فاتني حظي من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة إن العرب حكمت على غير مثال مثّل لها ولا آثار أُثرت ، أَصحاب إبل وغنم وسكان شعر وأَدم يجود أحدهم بقوته ، ويتفضّل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بفعله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسّن ما شاء فيحسن ، ويقبّح ما شاء فيقبح أدّبتهم أنفسهم ورفعتهم هممهم وأَعلتهم قلوبهم وأُلسنتهم . فلم يزل حباء الله فيهم ، وحباؤهم في أنفسهم حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر ، الخير فيهم ولهم قال سبحانه

« إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . » الأعراف ، الآية ١٢٧

فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خُصم ، ودفع الحق باللسان أكبت للجنان

١٨ — اعلان مجلجل

وإليك بعد أن استمتعت بعلم ابن المقفع وأدبه ، صراعاً يخيَّل إليك إذ تقرؤه أنه كان في الأولمبياد ، لأحد أبطال يونان ، أو أنه جرى على غرار ما يجري في بلاد الإسبان ، على يد مصارعي الثيران ، بطله فارس عربي شجاع شاعر شديد البأس والبطش ، على خلاف ما تعهد في الشعراء هو هلال بن الأسعر أحد الجبّارين العمالقة الضخام ، كأنه من قوم عاد كان هلال هذا أعظم الناس غناء في حرب ، يرد مع الإبل فيأكل كل ما وجد عند أهله ثم يرجع لا يذوق فيما بين ذلك طعاماً ولا شرابا عُمّر طويلاً ومات بعد بلايا عظام مرت على رأسه

« كان يوماً في إبل له وذلك عند الظهيرة في يوم شديد وقع الشمس ، محتدم الهاجرة ، وقد عمد إلى عصاه فطرح عليها كساءه ثم أدخل رأسه تحت كسائه من الشمس ، فبينما هو كذلك

إذ مرّ به رجلان : أحدهما من بني نهشل والثاني من بني قُنَيْم ، كانا أشد تميميين في ذلك الزمان بطشاً ، يقال لأحدهما الهيّاج ، وقد أقبلا من البحرين ومعهما أنواط[1] من تمـر هجر ، وكان هلال بناحية الصعاب ، فلما انتهيا إلى الإبل ، ولا يعرفان هلالاً بوجهه ولا يعرفان أن الإبل له ، ناديا : ياراعي أعندك شراب تسقينا ؟ وهما يظنانه عبداً لبعضهم . فناداهما هلال ورأسـه تحت كسائه : « عليكما الناقة التي صفتها كذا في موضع كذا فأنيخاها فإن عليها وطْبَيْن من لبن ، فاشربا منها ما بدا لكما » . فقال أحدهما : « ويحك ، انهض ياغلام فأت بذلك اللبن . » فقال لهما « إن تك لكما حاجة فستأتيانها فتجدان الوطبين فتشربان » فقال أحدهما : « إنك يا بن اللخناء لغليظ الكلام ، قم فاسقنا » ثم دنا من هلال وهو على تلك الحال . فقال لهما هلال : « أراكما والله ستلقيان هواناً وصغاراً » فسمعا ذلك منه فدنا أحدهما فأهوى له ضرباً بالسوط على عجزه وهو مضطجع ، فتناول هلال يده فاجتذبه إليه ورماه تحت فخذه ثم ضغطه ضغطة ، فنادى صاحبه ويحك أغثني قد قتلني . فدنا صاحبه منه ، فتناوله هلال أيضاً فاجتذبه فرمى به تحت فخذه الأخرى . ثم أخذ برقابهما فجعل يصكّ برؤوسهما بعضاً ببعض ، لا يستطيعان

---

(١) النوط : الجلة الصغيرة فيها تمر والجمع أنواط

أن يمتنعا منه فقال أحدهما : « كن هلالاً ولا نبالي ما صنعت »
فقال لهما : « أنا والله هلال ، ولا الله لا تفلتان مني حتى تعطياني
عهداً وميثاقاً لا تخيسان به لتأْتيانِّ المربد إذا قدمتما البصرة ثم
لتناديانِّ بأعلى أصواتكما بما كان مني ومنكما » فعاهداه وأعطياه
نوطاً من التمر الذي معهما ، وقدما البصرة فأتيا المربد فناديا بما
كان منه ومنهما . وكان إعلان طنّان دوّى في فضاء المربد

وهكذا جمع المربد بطولة القوة والصراع والجبروت البدني ،
إلى جانب بطولة الشعر والأدب والخطابة ، فكان معرضاً تام الأداة
وافي الفروع وتمّ لأسواق العرب به خاتمة المزايا والكمال ، وأصبح
في وسع من شاء الاستمتاع بأكثر عادات العرب وأخلاقهم
ودينهم وسياستهم وحربهم وأدبهم وسباقهم وصراعهم ، أن يفوز
بأُمنيته من أقصر طريق ، إذا استعرض ما كانت عليه أسواقهم في
الجاهلية والاسلام



استدراكات

- ١ -

قرأ فريق من أهل الفضل ، مقدمة الكتاب عقب طبعها ، فرأوا من الحق الواجب علينا ، وقد عرضنا لذكر « معرض دمشق وسوقها » وأثنينا على ما فيه من كل نفيس معجب ، أن نثبت ما يلي

أساءت إدارة هذا المعرض إلى الأمة وكرامتها كل الإساءة : في إباحتها القمار والخمر ، وفي غضها الطرف عن مفاسد كثيرة نشأت عن اختلاط الرجال بالنساء ، وفي إحيائها الليالي الساهرة تقيم فيهن الحفلات الراقصة ، يتصدرها أشخاص رسميون ، بينا كان العرب في فلسطين يخوضون الدماء ويسلط على رؤوسهم شواظ وقذائف وحمم ، وهم يكافحون ويجالدون ويصابرون ، عدوين ألدين ، ويتعرضون لنار جيشين قويين فليتنا إذ لم نقم بحق نجدة إخواننا ، راعينا المروءة والذوق على الأقل ، فنزهنا معرضنا عن المظاهر المزرية

ولئن كان المعرض قد مثّل الشام بمصنوعاته ونفائسه التي كانت بحق مفخرة من أعظم مفاخر هذه الأمة المجيدة ، إن إدارته لم تكن – فيما أباحت – تمثّل البلاد بشيء ؛ فقد شذّت عن كل إدارات المعارض التي سبقتها ، إذ خصصت هذه أياماً للنساء وأياماً للرجال ، ولم تندفع في سبيل التقليد السخيف اندفاع المعرض الأخير ، فكانت بذلك أصدق خبراً عن البلاد التي أقامتها

ولكل أمة تقاليد وأخلاق وشعور ، لا تقوم لها قائمة ولا يحترم لها مكانة ، إلا إذا تمسكت بها تمسُّك الغريق بحبال النجاة ، وأيما امرئ خرج على شيء منها فقد خرج على أمته وبلاده .

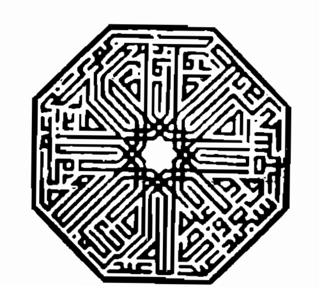
نقول هذا ونحن لا ينقضي عجبنا من أن تصدر تلك الكبائر عن معرض دمشق ، بينما مديره الذي أطلقت يده في إدارته وموظفيه ، رجل معروف بمتانة الخلق وصحة المبدأ ، والصلابة في تطبيقه

ولكن يظهر أن الشأن ليس – دائماً – في إحسان اختيار الرأس -

إن الناس كانوا إذا قرؤوا في الصحف أخبار فلسطين وما يدوّي في أجوائها من رصاص وبارود قطع عليهم قراءتهم أصوات الأسهم النارية تطلق في جوّ المعرض ابتهاجاً بغير شيء ، فكان الألم يرتسم علائمه عَلَى وجوه أكثر الشاميين وكان

على الصحف التي تمثل الرأي العام ، وعلى الطبقات المثقّفة وأهل الحل والعقد أن ينكروا ما يثلم كرامة البلد ويمس مروءته ، لكنه لم يرتفع في استنكار ذلك — مع الأسف — صوت ، إلاّ صوت بعض الجمعيات الدينية ، التي استحيت لدمشق بلد الفضيلة أن تؤذى في سمعتها

هذه كلمة نقولها للحق والتاريخ وقد مضى على انفضاض المعرض ثمانية أشهر



- ٢ -

هناك أشياء جرت سهواً على غير الترتيب في الأصل ، فرأينا أن ننبه عليها ، وإن كانت ثانوية كمالية

١ — فالفقرة التي بين (ص ١٩ س ٣) و (ص ٢٠ س ٧) كان يحسن أن تكون بعد (ص ٢١ س ٢٥) ، وكذلك الحاشية (٢) في ص ٤٤ محلها في (ص ٤٥) حيث أشير إليها في (س ٧) برقم (٣) خطأ

٢ — والفقرة التي بين (ص ٤٠ س ١٥) و (ص ٤١ س ٦) أشير إليها في الأصل لتجعل حاشية ، فأثبتها الطابع في صلب البحث

٣ — وحرب الفجار متقدّمة في الزمن على حلف الفضول فخالف بينهما الطابع كما فعل في سوقيْ بصرى ودير أيوب ، فإن الثانية هي السابقة ·

٤ — سها الطابع عن إثبات الرقم (٢ ١٦٦) إلى جانب (كتاب الأزمنة والأمكنة) في حواشي الصفحات ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ كما سها عن إثبات بعض تفاسير لكلمات غريبة

- ٣ -

لم يسلم الكتاب على رغم العناية البالغة ، من إسقاط بعض نقط وحركات وحروف يفطن لها القارئ لأول نظرة ، وقد أثبتنا جريدة في المهم منها فيما يلي

الخطأ والصواب (١)

ص	س	الخطأ	الصواب
١٥	٩	العُظيمتان	العُظميان
١٨	٦	درية	دراية
٣٣	١٣	أعرّض	أعْرض
٤٥	١٤	الضريبة	لضريبة
٤٩	٩	مر	أمر
٥٣	١١	أو	و
٥٧	١٠	لأنه	كان لأنه
٦٣	١٣	كما	وكما
٧١	٤	يضِل	يضَل
٧٥	٤	مثبوتة	مبثوثة
١١٦	٣	للغوه	بلغوه
١٢٠	١٠	تمضرم	تتضرم
١٣٤	٦	وأمنّ	ومنّ
١٣٩	١	جدلاً	جذلاً
١٤١	١٣	عتبة	ابن عتبة
١٧٥	١٩	وقال :	وقال لك حج . » اه
١٧٩	٢	أَنشئت	أُنشئت
١٨٧	١٧	٣	٣٠
٢١١	١٢	الأصعى	الأصمعيّ
٢١٢	١١	الشرابّ	الشراب
٢٢٦	٧	فإنانستطيع	نستطيع
٢٣٤	٣	نفود	نفوذ
٢٦٠	٦	ينمي	ينمى
٢٧٦	١٤	لمدبح	المدبح
٣٠١	١١	ويبيعهويشتريه	ويبيعهاويشتريها
٣١٨	٦	ليها	إليها
٣٢٣	١١	ملوكهم	ملوكها
٣٢٦	٤	فسمتهن	فسمتها
٣٣٤	١٣	أبت	أبيت
٣٥٧	٨	مستجاً	مستجماً
٣٨٠	٣	أحسابنا	أحسابها
٣٩٩	١٤	وإلمامها	وإلمامها

(١) تمكنا من تدارك بعض هذه الأغلاط في قسم كبير من النسخ .

فهارس الكتاب :

١ — فهرس الأعلام
٢ — « الأماكن
٣ — « الأسر والأمم وما بينهما
٤ — « المصادر
٥ — « الأشعار
٦ — « الموضوعات

ملاحظة

لا عبرة لهذه الألفاظ في ترتيب الجداول :

أَل	ابن
أبو	بنو
أم	آل

فهرس الأعلام

أ

ت

ث

ج

س

***

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

فهرس الأماكن

أ

ب

ت

ث

ج

ص

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

ف

ك

ل

***

م

ن

فهرس الأسر والأمم

وما بينهما

ت

ث

ج

ح

✲ ✲ ✲

ش

ص

ض

ط

ظ

* * *

ع

غ

فهرس مصادر الكتاب[1]

---

(١) تشير الأرقام إلى مواطن الاستشهاد بالمصدر في هذا الكتاب

س

ش

ص

ض

ط

ع

ف

(١) نثبت هنا مواضع الاستشهاد بالآيات الكريمة وإن لم يرد قبلها اسم القرآن الكريم

ن

و

فهرس الأشعار

صدر البيت	القافية	ص
أ		
واذكروا حلف ذي المجاز وما	الكفلاءُ	٣٠٠
ب		
ألا أيهذا الذي لم يجب		٢٦٧
إن تبغضونا فإن الروم أصلكم	للعربِ	٣٢٧
إني من النضر المحمر أعينهم	واللوبِ	١٥٩
بها برص بجانب إسكتيها	شابا	٣٨٨
تغيبت عن يوميْ عكاظ كليها	أتغيب	٢٠٧
جنان شمارى ليس مثلك منظر	طبيبُ	٣٣٠
رأيت الجحش جحش بني كليب	هابا	٣٨٥
سالني الشرطي أن نسقيه	القصبْ	٣٣٧
صبحنا الحيرة الروحاء خيلاً	الركاب	٣٢٥
فغض الطرف إنك من نمير	كلاباً	٣٨٧،٣٨٨
لا تغضبن على امرئ في ماله	فاغضبِ	٣٩٥
ليالي سعد في عكاظ يسوقها	ومغرب	٢٥١
.ا للفرزدق من عز يلوذ به	الخشبُ	٣٧٧
ت		
أربعة كلهم سيد	اسادات ِ	٨٩
فأقرّت قرارها بعمانِ	الحماةِ	٢١٧

صدر البيت	القافية	ص
وأزد لها البحران والسيف كله	المشقرِ	٢١٧
وأعصفن بالدومي من رأس حصنه	المشقرِ	١٩٩
وإن صخراً لتأتم الهداة به	نارُ	٢٧٥
وربت غارة أوضعت فيها	تمرِ	٢٠٨
ولا مرتع للعين أو متقنص	تحقرُ	١٠٦
ومن ير صنعاء الجنود وأهلها	حميرا	٢٣٥
ومنا رئيس القوم ليلة أدلجوا	النحرِ	٢ ٦
ياآل فهر لمظلوم بضاعته	والنفرِ	١٣٨
ياتيم تيم عدي لا أبا لكم	عمرُ	٣٧٩
ياصاحبي دنا المسير فسيرا	جريرا	٣٨٥
يامن رأى كصفقة ابن بيدره		٢٨٢

☆ ☆ ☆

صدر البيت	القافية	ص
ز		
ياقيس أرسل أسيراً من بني جشم	جازي	٢٦٨
س		
لم تدر بصرى بما آليت من قسم	الكراديسُ	٣١٧
ض		
تحمل هاشم ما ضاق عنه	ابن بيض	٨٤
ط		
تركت الفارس البذاخ منهم	عبيطا	١٦٠

☆ ☆ ☆

استغنينا عن ذكر القافية في الأبيات المصرعة وفي الرجز

فهرس الموضوعات

الباب الثاني

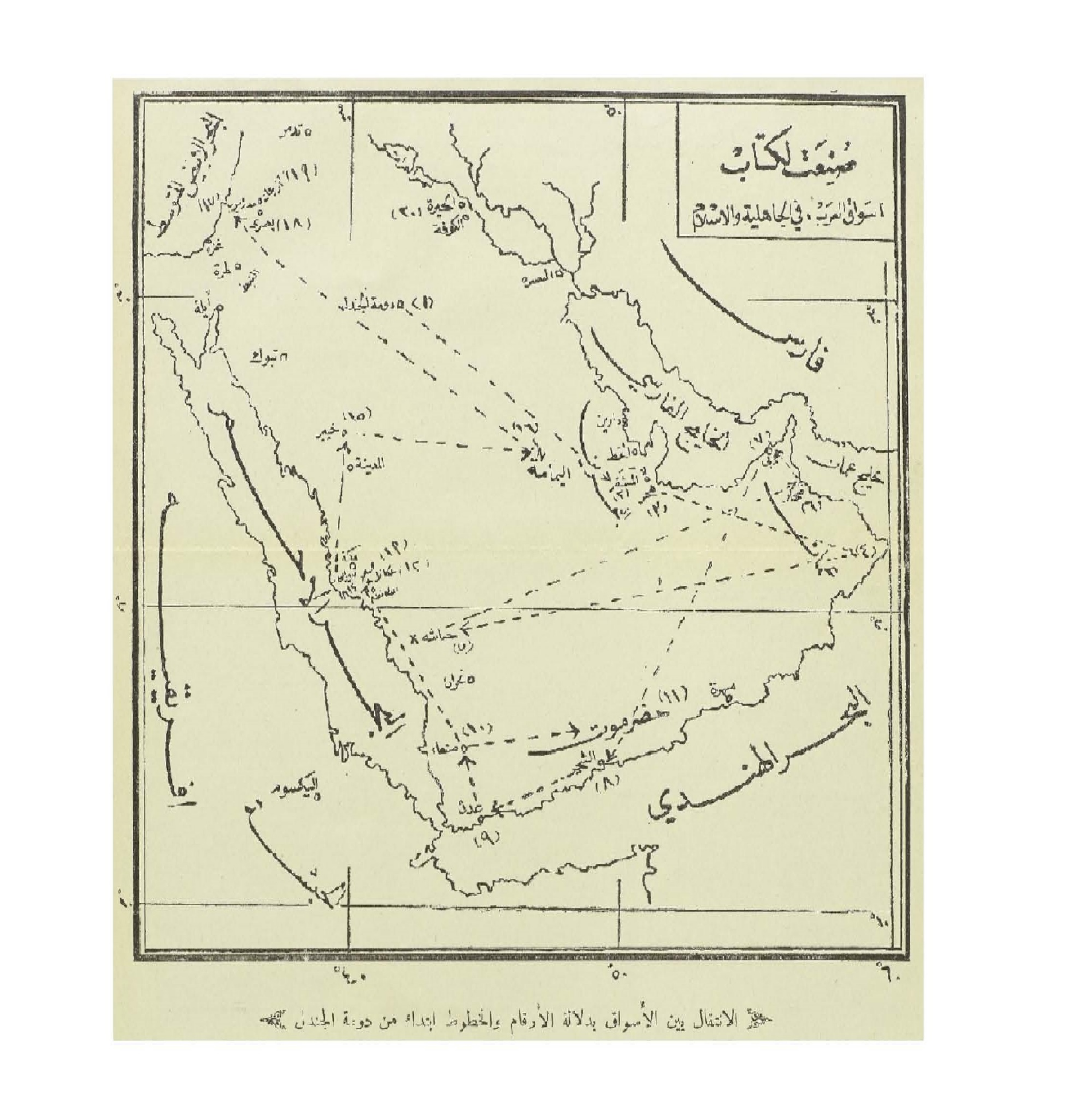
الباب الثالث

الصفحة	الموضوع
٤٠٥	استدراكات
٤١١	فهارس الكتاب
٤١٣	فهرس الأعلام
٤٢٩	فهرس الأماكن
٤٣٩	فهرس الأسر والأمم وما بينهما
٤٤٧	فهرس المصادر
٤٥٢	فهرس الأشعار
٤٦١	فهرس الموضوعات

تم طبع هذا الكتاب

في ٢٩ صفر سنة ١٣٥٦ و ١٠ مايس سنة ١٩٣٧

ادارة المطبعة الهاشمية



الانتقال بين الأسواق بدلالة الأرقام والخطوط ابتداء من دومة الجندل